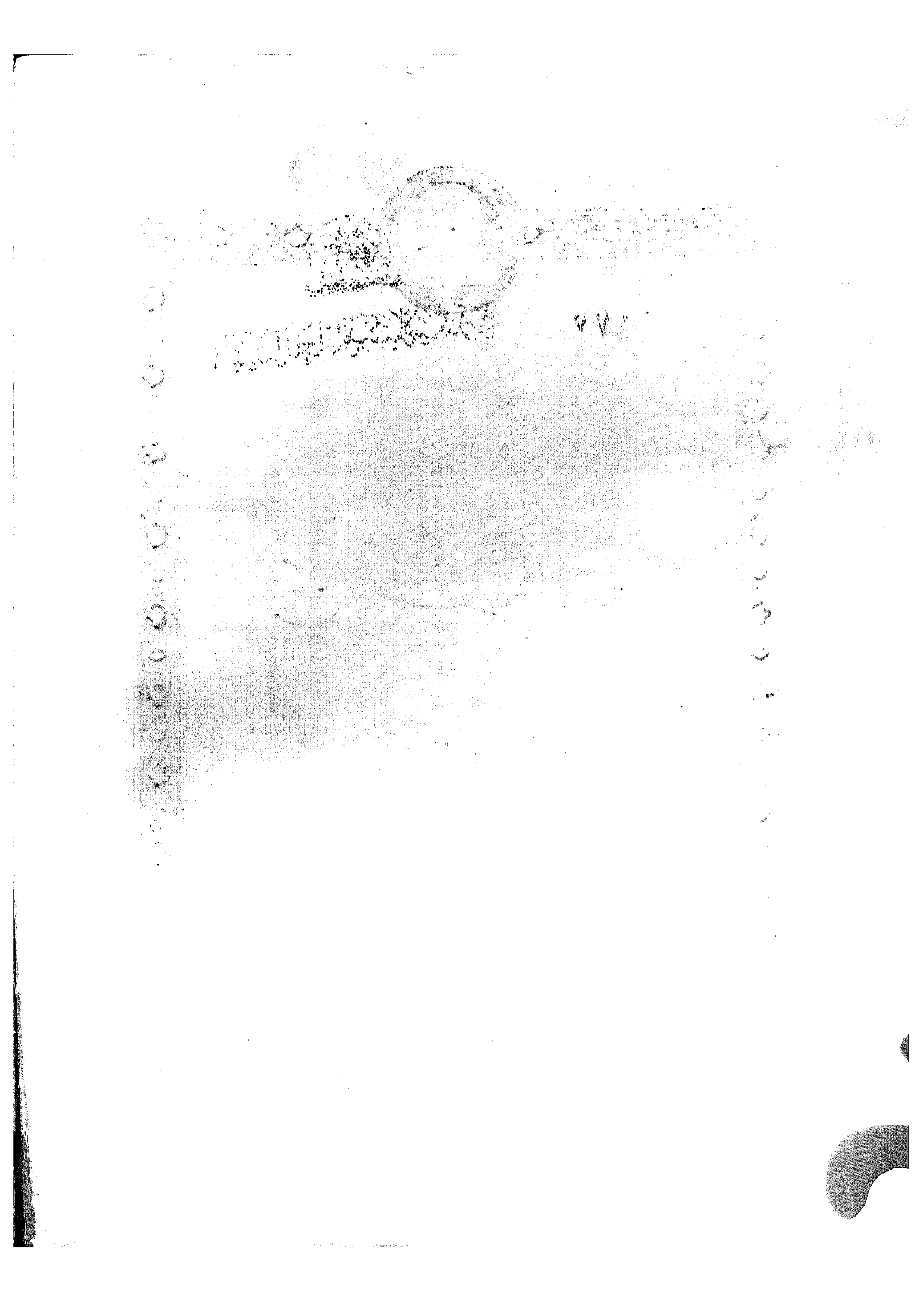
مجمع اللغة العربية في عيده الخمسيني

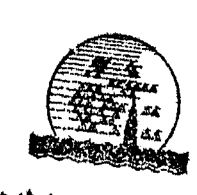
مع الخالدين

إبراهيم مدكور



جمهورية مصر العربية

مجمع اللغة العربية



مجمع اللغة العربية
في عيده الخمسيني

مع الخالدين

ابراهيم مدكور

رئيس المجمع

القاهرة
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية
١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

وفــاء وتقــدير

عشت فى زمرة الخالدين ما يزيد على ثلث قرن ، ودنوْت معهم من عيد المجمع الذهبى ، ونعمت بصحبة عدد غير قليل من الرعيل الأول ، جماعة المؤسسين ، أمثال على الجارم (١٩٤٩) ، وفارس نمر (١٩٥١) ، وأحمد العوامرى (١٩٥٤) ، ومحمد الخضر حسين (١٩٥٨) ومنصور فهمى (١٩٥٩) وإبراهيم حمروش (١٩٦٠) بين المصريين ، ومحمد كرد على (١٩٥٣) وعبد القادر المغربى (١٩٥٦) وحسن حسنى عبد الوهاب (١٩٦٩) بين الأعضاء العرب ، وليتمان (١٩٥٨) ، وجب (١٩٦١) ، وماسنيون (١٩٦١) بين المستعربين .

وزاملت عن قرب شيوخ الرعيل الثانى ، وفى مقدمتهم : مصطفى عبد الرازق (١٩٤٧) وأحمد أمين (١٩٥٤) ، وأحمد لطفى السيد (١٩٦٣) ، وعباس العقاد (١٩٦٤) ، وطه حسين (١٩٧٣) وكنت واحدا من عشرة اختيروا عام (١٩٤٦)لعضوية المجمع فى الفوج الثالث،وقد لقوا ربهم ، وكان آخرهم رحيلا زكى المهندس (١٩٧٦) . وفى عام١٩٦٠ضم إلى المجمع فوجان آخران أحدهما مصرى والآخر عربى . هذا إلى جانب الانتخابات السنوية لمل‍ء الأماكن الشاغرة وقد بلغ من حظوا بعضوية المجمع حتى الآن نحو مائة وثلاثين عضوا .

وهم ولا شك من صفوة الصفوة ، جمعوا بين العلم والتجربة ، وسداد الرأى والحكمة . لاينطقون عن هوى ، ولا يصدرون إلا عن بينة : هدفهم الأول النهوض والإصلاح ، وخدمة اللغة لكى تفى بمتطلبات العصر ، وتسد حاجات العلم والتكنولوجيا . فيهم من يميل إلى المحافظة وفيهم من ينشد التجديد ، وفى هذا ما يحول دون الجمود أو الطفرة ، وما أشبه ذلك بصمام الأمان .

وقدّر لى أن أجمع زمنا بين العمل المجمعى والعمل السياسى ، وكم كان البون شاسعا والفرق كبيرا . وكنت أجد فى الجلسات المجمعية ما يروح عن النفس ، ويعود بها الى القيم الحقة والمبادئ الصحيحة . ومن حسن حظ المجمعيين أنهم سموا برسالتهم عن التعصب والحزبية ، ولم يخلطوها بالميول والتيارات السياسية .

وراعنى منهم الحرص والدأب ،برغم الشيخوخة وتقدم السن،وربما كان الشيوخ أشد حرصا وأكثر مواظبة ممن هم دونهم سنا . سعدوا بالمجمع وسعد المجمع بهم ، فأعطوا فى سخاء ، وأسهموا فى غير ما مطمع أو مغنم ، لا يقعدون عن عملهم إلا لعذر طارئ أو مرض قاهر . وهم أسمى

من أن يحاسبوا على حضور أو غياب ، لأنهم بجهودهم متبرعون ، وفى عملهم عبّاد مخلصون . ولقد ساءهم يوما أن خطر ببال بعض أجهزة الرقابة العليا أن تطبق عليهم نظام الحضور والغياب ولست فى حاجة أن أقول إن هذه الفكرة ماتت فى حينها ، وأصبحت فى خبر كان .

يؤمنون إيماناً جازماً بأن الحقيقة بنت البحث ، وأن من عرف حجة على من لم يعرف . أخذوا أنفسهم بالتأنى والرويّة ، لا يتعجلون فى قرار ، ولا يترددون فى أن يعاودوا النظر إن دعا الأمر . لا يقنعون بخبرتهم الخاصة ، بل يستعينون ما استطاعوا بالخبراء المتخصصين . ولا يعرض موضوع على مجلسهم إلا بعد أن يستوفى بحثا فى لجان خاصة ، وقد تعددت هذه اللجان وتنوعت ، بحيث وصلت إلى درجة عالية من التخصص الدقيق .

والعمل الجماعى بطئ الخطا وطويل النّفس ، فيه تحليل وتعليل ، ولا يخلو من مناقضة ومناقشة ويتطلب صبرا وجلدا ، ومتابعة ومثابرة ، ولا يقوى عليه إلا أولوا العزم من شيوخ عركهم الدهر ، وصقلتهم التجربة . وقد يبقى الموضوع الواحد فى اللجنة المختصة أسابيع وشهورا قبل أن تقول فيه كلمتها الأخيرة ، ولا سبيل لأن تستعجل القرارات مادام الاعتراض قائما ، ومادامت الحجة غير مقبولة . ولأمر ما كان الخالدون فى أغلبهم من الشيوخ والمسنين الذين يحرصون على أن يقولوا خيرا ، وإلا التزموا بالصمت والحكمة .

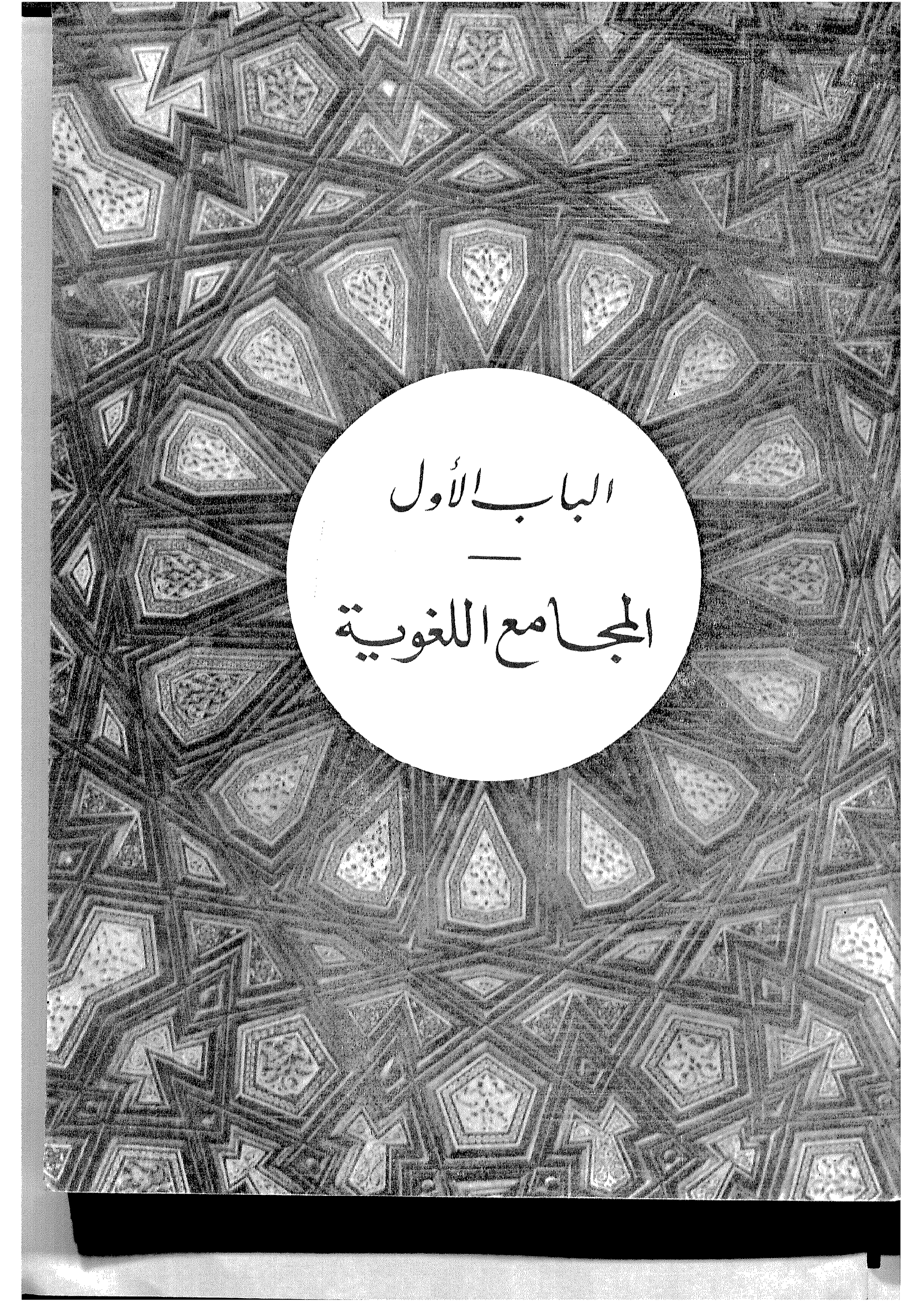
عشت معهم فى جو الكلمة الحلوة ، والتعبير الدقيق . وفى وسع المرء أن يقول كل ما يريد إن أحسن الأداء ، وأحكم التصوير . ومن أولى بهذا من المجمعيين الذين من دأبهم أن يزنوا الكلم وأن يتفادوا مواطن الظنون والريب . ومن ذا الذى يعيش مع مجمعى مثل لطفى السيد أو عبد الحميد بدوى ، ولا يروى قبل أن ينطق ، ولا يتخير لفظه قبل أن يتكلم ، وعثرات اللسان قد تكون أقسى من عثرات السنان .

* * *

لست فى حاجة أن أشير إلى أن درس المجمعين جاد ، وأن بحثهم عميق — واستقرت لديهم مبادئ لها شأنها ، فهم يرون أن اللغة ظاهرة اجتماعية تسير بسير الزمن ، وتتطور بتطور المجتمع وهى ملك لأهلها ، وفى وسعهم أن يغذوها بغذاء لا ينقطع . واستطاعوا أن ييسّروا العربية فى ألفاظها وتراكيبها ، فى كتابتها وإملائها . وبرهنوا على أنها فى مرونتها واستقامتها ليست أقل كفاية من اللغات الحية الكبرى فى مواجهة متطلبات العلم والحضارة ، واجهت ذلك فى الماضى البعيد

ولا تزال أهلا لمواجهة اليوم . وللمجمعيين فى ذلك توصيات وقرارات تملأ صحفهم ومحاضر جلساتهم ، ويضيفون إليها جديدا كل عام ، ويقبل عليها الباحثون والدارسون ، ويفيدون منها ما استطاعوا .

ولست هنا بصدد عرض هذه القرارات وتفصيل القول فيها ، ولها مظانها الخاصة بها . وكل ما قصدت إليه أن أسجل شيئا من آيات الوفاء نحو زملاء قطعت معهم رحلة طويلة . فجمعتُ الكلمات التى أسهمت بها فى استقبال من استقبلتهم ، وفى توديع من ودعتهم . وقسمتها إلى بابين ينصب أحدهما على الاستقبال ، والآخر على التوديع . وصدّرت هذين البابين بباب أول يدور حول المجامع اللغوية بوجه عام ، والمجامع العربية بوجه خاص . وآمل أن أكون قد أديت بعض الواجب نحو من لحقوا بربهم ، ونحو من لا أزال أحظى بزمالتهم ، وليس ثمة مناسبة أولى بهذا التسجيل من العيد الخمسينى لمجمع الخالدين .

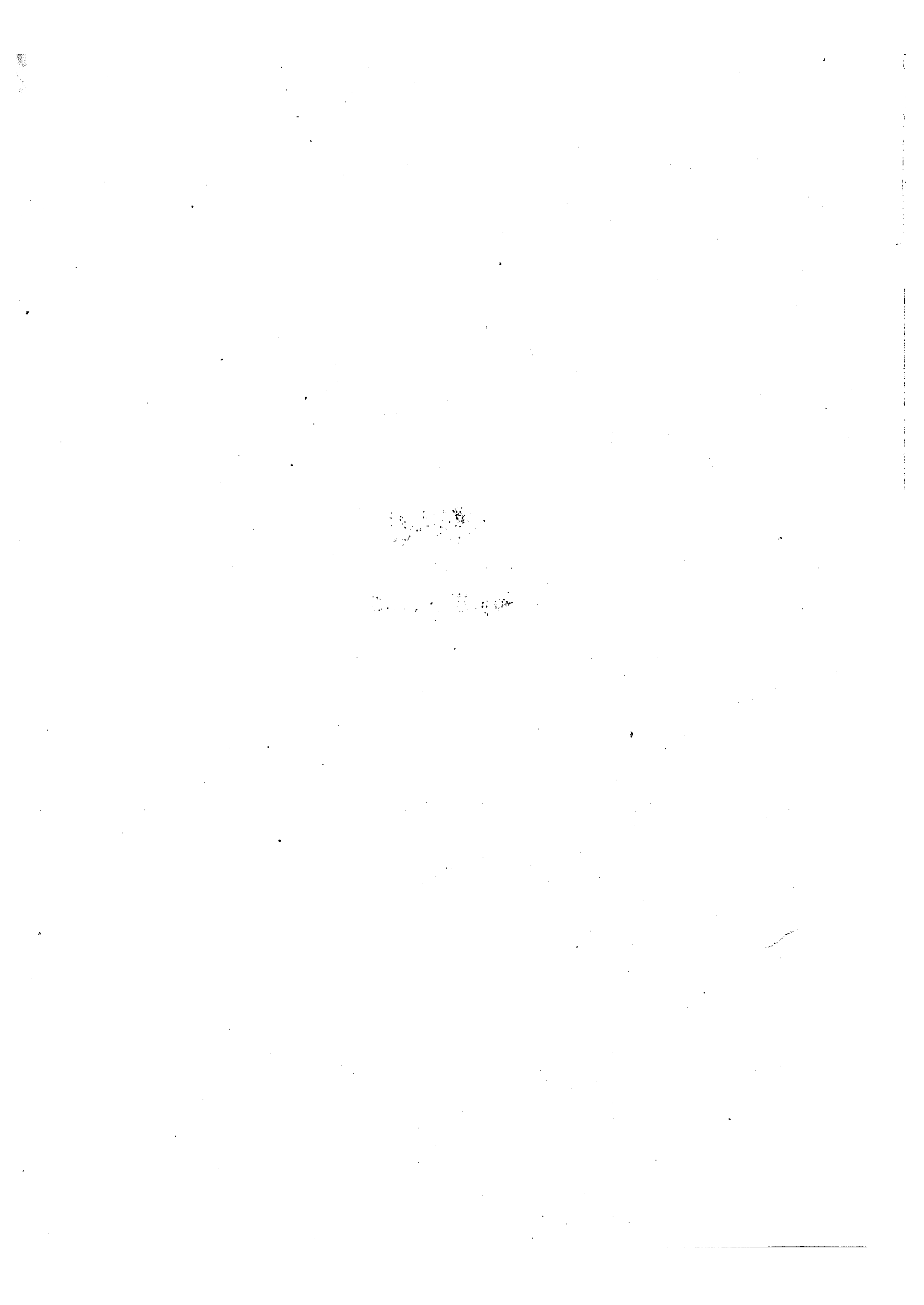


الباب الأول

المجامع اللغوية

الباب الأول

المجامع اللغوية



الفصل الأول

١ — المجامع فى خدمة اللغة

المجامع الأدبية والعلمية قديمة قدم الحضارة والثقافة ، عرفت فى التاريخ القديم والمتوسط ، ونمت نموا ملحوظاً فى التاريخ الحديث . ففى التاريخ القديم يمكن أن نشير إلى مدرسة هيليوبوليس ، وأكاديمية أفلاطون ومدرسة الإسكندرية . وفى التاريخ المتوسط ظهرت هيئات علمية متعددة شرقاً وغرباً ، نذكر من بينها فى الشرق مدارس الرها ، وحران ، ونصيبين ، ومكة ، والمدينة ، والبصرة ، والكوفة ، وبغداد ، ودمشق ، والقاهرة . وفى الغرب القيروان ، وفاس ، وقرطبة ، وأشبيلية ، وجامعات باريس ، وكولونى ، وأكسفورد ، وكمبردج . وفى القرن الثالث عشر تنافست مدن إيطاليا الكبرى فى إقامة الأكاديميات والمعاهد العلمية . ثم جاء عصر النهضة فدفع هذا الحركات الفكرية دفعة قوية ، واطرد سيرها فى التاريخ الحديث ، فتعددت الأكاديميات والجامعات ، وتنوعت وتبودلت بحوثها ومؤلفاتها ، وتردد بينها كبار العلماء .

ولكن المجامع اللغوية بمعناها الدقيق من صنع التاريخ الحديث ، عرفت لأول مرة فى فرنسا ، فظهرت الأكاديمية الفرنسية فى أوائل الثلث الثانى من القرن السابع عشر ، وهى دون نزاع أقدم المجامع اللغوية المعاصرة ، وأنشئت على غرارها أكاديميات وجمعيات علمية مختلفة . وأخصها « الجمعية العلمية الملكية » بإنجلترا التى ظهرت بعدها بنحو ربع قرن ، وتلتها الأكاديميتان الألمانية والروسية ، وإن غلب عليها الطابع العلمى . وفى القرن العشرين تأثر بها العالم العربى تأثراً واضحاً ، فظهرت فيه على التوالى مجامع لغوية أربعة : هى مجمع دمشق (١٩١٩) ومجمع القاهرة (١٩٣٢) ، ومجمع بغداد (١٩٤٧) ، وأخيراً المجمع الأردنى (١٩٧٦) .

(أ) اللغة بين الماضى والحاضر :

وحياة كل لغة فى أمرين هامين : ماض له احترامه وقداسته ، وحاضر له حاجاته ومتطلباته : وإذا وقفت اللغة عند الماضى وحده ، كتب عليها الجمود والركود . وإذا شغلت بالحاضر فقط ، فقدت أخص خصائصها من اطراد واستقرار ، وأصبحت وليدة الهوى والصدفة ، وأدت إلى كثير من البلبلة . واللغات الحية هى تلك التى تعتد بالماضى والحاضر معاً ، فتباهى بتراثها ، وتحرص فى الوقت نفسه على أن تنميه وتغذيه : تمقت الجمود ، وتأبى الطفرة ، وتسلك سبل التجديد كلما دعت إليه حاجة ، دون إفراط أو تفريط .

وتكاد تتلخص رسالة المجامع اللغوية فى الملاءمة بين هذين الجانبين ، والتوفيق بين هذين الطرفين . فتستبقى من الماضى أساسه وأنفسه ، وتتقبل من الحاضر أدقه وأحكمه . ولا بد لها أن تلم بالثروة اللغوية

إلماماً دقيقاً ، وتقف على تفاصيلها. وتكشف عما خفي من كنوزها . ولا بد لها أيضاً أن تتابع التطور الحضارى والثقافى ، فتسد حاجته وتواجه متطلباته . ولا سبيل لها أن تعيش بمعزل عن عصرها وبيئتها ، وإلا فقدت وظيفتها ، ولم تؤد رسالتها .

وماضى اللغة تراث أدبى من نثر ونظم ، وتراث فكرى من علم ودين وفلسفة . وعلى المجامع أن ترعى هذا التراث وتتعهده ، فتوجه النظر إليه ، وتدعو إلى إحيائه . والمهم أن تستخلص منه ما يلائم الحاضر ويتمشى معه ، وعبثاً تحاول إن شاءت أن تحيى الألفاظ الغريبة والمهجورة . وانقضى الزمن الذى كانت تقصر فيه مادة اللغة على المعجمات ، وأصبحنا نؤمن بأنه لابد لنا أن نتلمس هذه المادة فى كتب الأدب والتاريخ ، والعلم والفلسفة ، وهذه فى الواقع هى اللغة الحية المعبرة . وفى الماضى اللغوى عصور ضعف وعصور قوة ، عصور ازدهار وعصور ركود . وقد طال الحديث قديماً حول عصر الاحتجاج ، أنضيقه أو نوسعه ؟ أنقف به عند القرنين الثانى والثالث للهجرة أو نجاوزهما ؟ ولعل من الخير أنا لا نقف اليوم عند هذا الخلاف طويلا ، لأن فى العصور المتأخرة درراً قد لاتقل عما نراه فى العصور المتقدمة . وبذا يسرنا وسائل الاستشهاد ، وأفسحنا مجال الاقتباس .

وحاضر اللغة ما تعيش فيه من مستحدثات العمران والمدنيّة ، ومبتكرات العلم والتكنولوجيا ، وما تواجهه من مشاكل الفرد والمجتمع ، وماتضطلع به من أعباء الحرب والسلم ، وما تعبر عنه من شئون المال والسياسة . وحاضر اللغة فى اختصار هو المجتمع فى شتى مظاهره ، وقد عدّت بحق ظاهرة اجتماعية ، تسير بسير المجتمع ، وتقف بوقوفه ، وتخضع لقوانين التطور . وتمتاز العربية — بين اللغات العالمية الكبرى — بأنها فى آن واحد قديمة وحديثة . عاصرت من اللغات القديمة اليونانية واللاتينية غرباً ، والسنسكريتية والبهلوية شرقاً ، وعمرت إلى اليوم : وبمرونتها واشتقاقها استطاعت أن تيسر فى الماضى حاجة الحضارة الإسلامية الكبرى ، وها هى ذى اليوم تؤدى وظيفتها لمواجهة متطلبات النهضة العربية الحديثة . وفى حاضرها ما يملؤنا ثقة بأنفسنا ، وما يشعرنا بأنا نملك حقاً لغتنا ونستطيع أن نتصرف فيها ، كما كان يملكها قديماً أبناء العروبة فى الجاهلية والإسلام ، ويستخدمونها على حسب ما تقضى به حياتهم وظروفهم . وفى وسعنا اليوم أن نضع ألفاظاً جديدة أو نعرّب ماتدعو إليه الحاجة من لفظ أجنبى ، وأن نقر ما نستسيغه من أسلوب مبتكر .

(ب) العمل المجمعى :

والعمل المجمعى — كما أشرت — شاق ودقيق ، طويل النفس ويتطلب قسطاً غير قليل من الصبر والجلد . والمجمعيون ، كغيرهم ، يعيشون بين تيارين متقابلين : تيار محافظ ، وآخر مجدد ، ويكاد حوارهم ونقاشهم يدور حول هذين الاتجاهين . وفى هذا التقابل ما يضمن الاتزان الضرورى لسير محكم متئد . وقد تقدر الغلبة لأنصار القديم ، ولكن الزمن فى سيره يفرض سلطانه على أشد الناس

محافظة . ولعل فكرة المجامع اللغوية ألصق بالماضي منها بالحاضر ، وأقرب إلى القرن السابع عشر منها إلى القرن العشرين . ولكن قوماً يؤمنون بلغتهم ويعتزون بها لا يرضون لها الجمود والركود ، ويحرصون دائماً على استعادة مجدها وازدهارها . وفي تاريخ المجامع اللغوية المعاصرة ما يثبت تطورها ، ويبرهن على تلاقي المحافظين والمجددين غالباً على كلمة سواء .

ومن الخطأ أن يظن أن المجامع تستأثر وحدها بخدمة اللغة ، ذلك لأن لكل لغة حياة أطول وأعرض وأقوى وأنشط مما يجرى في نطاق مجمع علمي أو لغوي . لها حياتها في البيت والمدرسة ، في الحقل والمصنع ، في السوق والمتجر ، في المكتب والديوان ، في الصحف والمجلات ، في المسرح والسينما . وهنا تحيا وتتطور ، تخلق وتبتكر ، تسير مع الزمن ، وتحاول أن تسد حاجات العصر ومتطلبات الحضارة . وعلى المجامع اللغوية أن تتابع هذا السير وترقب خطاه ، فتلاحظ وتسجل وتقر مااستقام من الألفاظ والتراكيب ، وترفض مااعوج . توحي ولا تأمر ، توصي ولاتلزم ، ولوحيها أثره ، ولتوجيهها فعله . وربما ود بعض المجمعيين أن يكون من حقهم أن يحرموا ويحللوا ، أن يأمروا وينهوا ، أن يمنحوا في اختصار سلطة فعالة ، وأن تكون قراراتهم ملزمة . إلا أن هذه الوصاية اللغوية كانت ممقوتة منذ قيام المجمع الفرنسي في القرن السابع عشر ، وإذا كان لم يؤخذ بها بالأمس ، فلا محل للتفكير فيها اليوم .

(ج) مهمة المجامع اللغوية :

تكاد تدور مهمتها حول الأبواب الآتية :

١ — تيسير اللغة متنا وقواعد وكتابة ورسم حروف .

٢ — تهذيب المعجم اللغوي وصياغته صياغة جديدة في ضوء المنهج العلمي الحديث للتأليف المعجمي .

٣ — إمداد لغة العلم والحضارة بما تحتاج إليه من مصطلحات وألفاظ .

٤ — وضع معجمات متخصصة في شتى العلوم والفنون .

٥ — تشجيع الإنتاج الأدبي .

٦ — إحياء التراث اللغوي والأدبي .

ولكل مجمع أن يخدم لغته على النحو الذي يتراءى له ، فيحيي تراثها ويشيد بأمجادها ، أو يعنى بحاضرها ، ويتتبع مافيه من نتاج أدبي ، ناقدا له وحافزا عليه . وقد يتجه نحو متنها ومفرداتها ، فينقب عن معاجمها القديمة ، أو ينشئ معاجم جديدة بلغة العصر وروحه . وقد يشغل بالنحو والصرف أو بالبيان والبلاغة ، فييسر أمرها ، ويهذب قواعدها ، ويلائم بينها وبين سنن النشوء والارتقاء ولا تفوته مشكلة الكتابة والإملاء ، فيحاول أن يقلل من صعابهما ، وأن يسلك بهما سبلا أقرب إلى الفهم وأيسر في الاستعمال . ومن المجامع اللغوية ما يضطلع بهذا جميعه ، ويعالجه على نحو أو آخر ، فيفتح على الناس أبوابا في البحث ، ويثير أمورا للدراسة .

(د) المجمع الموحد :

والأصل أن يكون لكل لغة مجمع واحد يلم الشعث ، ويقرب اللهجات . وقد لوحظ هذا مجمع القاهرة عند إنشائه ، فقامت فكرته منذ البداية على أساس موضوعى ، وأريد به أن يكون مجمع اللغة لا مجمع فريق من الناطقين بها ، واستبعدت منه ، على عكس الأكاديمية الفرنسية ، فكرة السيادة والجنسية . ومثل فيه العرب والمستعربون بقدر ما مثل المصريون . ولكن هذا لم يمنع من قيام مجامع لغوية عربية أخرى ، وانتهى بها الأمر أن أصبحت اليوم أربعة ، ومن يدرى فقد تضاف إليها مجامع أخرى . واقترح يوما على وزراء المعارف العرب إنشاء مجمع لغوى عربى موحد يحل محل المجامع الإقليمية ، وفى ظروف الوحدة بين سوريا ومصر ضم مجمع دمشق إلى مجمع القاهرة تحت عنوان المجمع الموحد ، وكان توحيدا أقرب إلى السياسة منه إلى الناحية الموضوعية والهدف العلمى . وإذا لم يكن بد من تعدد المجامع اللغوية ، فلا أقل من تكوين اتحاد لها ينسق بينها ، وقد أخذ بهذا منذ بضع سنوات .

وسنحاول فيما يلى إعطاء فكرة عن بعض المجامع اللغوية المعاصرة ، وهى :

الأكاديمية الفرنسية ، ومجمع دمشق ، ومجمع القاهرة ، ومجمع بغداد ، ومجمع عمان ، ونختم بكلمة عن اتحاد المجامع .

الفصل الثانى

٢ ــ الأكاديمية الفرنسية

أقدم المجامع اللغوية المعاصرة ، وأرسخها قدما ، وأثبتها تقاليد ، وعنها أخذت المجامع اللاحقة . دعت إليها الحاجة ، وآذنت بها نهضة أدبية ولغوية . نبتت فكرتها لدى فريق من الكتاب والأدباء فى أوائل القرن السابع عشر ، رأوا أن يلتقوا فيما بينهم ليتدارسوا فى شئون أدبهم ولغتهم ، فكانوا يعقدون جلسة كل أسبوع يستعرضون فيها مقالا أو مؤلفا لأحدهم ، ويتناولونه بالنقد والتحليل ويظهر أنهم كانوا يؤثرون الحرية والاستقلال فى جو لم يخل من الرقابة والتجسس ، فأحاطوا عملهم ماستطاعوا بالكتمان ، ومضوا فى ذلك نحو ثلاثين عاما . وهذه هى النواة الأولى لفكرة الأكاديمية الفرنسية ، وهى نواة حرة وشبه سرية . ولكن لم تلبث أن عرف أمرها ، وأحس بها ريشيليو الأديب والسياسى ، وحرص على أن يتبناها طمعا فى مجد أو زيادة فى سلطان .

(أ) تكوينها الرسمى :

اتصل ريشيليو بهذه الجماعة عام ١٦٣٤ ، وشملها برعايته ، وفى عام ١٦٣٥ استصدر أمرا ملكيا بإنشاء ماسماه «الأكاديمية الفرنسية» . واعتز بها كل الاعتزاز ، وعدها من أجلّ آثاره ، ولعله كان يأمل أن يختار لعضويتها ، وإن تظاهر بإعراضه عن ذلك . وبقى يؤيدها ويرعاها طوال حياته ، وسمى « السيد حامى الأكاديمية » وكثيرا ماتدخل فى شئونها ، فبارك انتخاب أعضاء ، واعترض طريق آخرين . ويظهر أنه كان لايرضى عن كورنى ، ودعا الأكاديميين إلى أن ينقدوا «سيد» ، وهى إحدى روائعه ، ولم يأبه الرأى العام بنقدهم ، فآلوا على أنفسهم بعد هذا ألاينقدوا مؤلفا إلا بناء على طلب صاحبه ، والتزموا بألا ينشروا نقدهم إلا بعد مضى ستة أشهر من إنجازه . وإذا كان كورنى لم يدخل الأكاديمية فى حياة السيد حاميها ، فإنه فاز بعضويتها بعد موته .

ويوم أن صدر الأمر الملكى بإنشاء الأكاديمية ، أخذ أعضاؤها فى وضع لائحتها ، وقضوا فى ذلك عاما كاملا ، وجاءت فى خمسين مادة ، ولم يطرأ عليها تعديل يذكر فيما بعد . ومع هذا لم يقرها البرلمان إلا بعد عامين ، وكأنما كان يخشى على نفوذه من تلك الجمعية الأدبية الشابة التى كان يرعاها الوزير الأول . وسارت الأكاديمية الهوينى نحو ثلاثين عاما — بعد تكوينها — إلى أن بسط لها لويس الرابع عشر يده ، فتبناها ، ودفعها دفعة قوية . ولم يكن لها مقر معروف ، فمنحها جناحا خاصا فى « اللوفر » ، وهو « الكرياتيد » الذى أصبح مقرها الدائم ، ولم تبرحه إلا يوم أن انتزعته الثورة الفرنسية ، وصادرت أملاكها كلها . ثم استعادته ثانية ، واستقرت فيه إلى اليوم .

تدير شئونها وتعقد جلساتها فى الساعة الثالثة بعد ظهر الخميس من كل أسبوع . وانتفعت أيضا بقصر « شانتي » الذى وقف فى أخريات القرن الماضى على أعضاء مجالس الآداب والعلوم والفنون وأرصدت باسمها مبالغ تمنح منها كل عام جوائز لطوائف شتى من الفرنسيين . وحظيت بعصر ذهبي فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، وأصبحت مطمع آمال كبار الساسة والأدباء ولاتزال حتى اليوم دعامة من دعائم الحياة الأدبية والفكرية فى فرنسا ، توفر لها جلال الماضى ومجد الحاضر ، تقاليدها أوضح من أن تناقش ، واستقلالها أسمى من أن يمس .

(ب) أعضاؤها :

بدأت باثنى عشرعضوا ، ثم صدر قانونها فرفعهم إلى أربعين ، وأصبح هذا الرقم مقدسا لايزيد ولاينقص ، وسما بأصحابه إلى مرتبة الخلود . ولم ينص على طريقة ثابتة لاختيارهم ، وترك الأمر لتقدير الأكاديميين أنفسهم واختاروا فى البداية زميلا لهم أبى أن ينضم إليهم ، وهو «أرنو» أحد « بورر ويال » ، فعز الأمر عليهم ، وقرروا ألا يرشحوا أحدا إلا بناء على طلبه ، وأصبحت انتخابات الأكاديمية من الأحداث الأدبية الهامة يقدم الراغب طلبه ، ويسعى لدى الأعضاء جميعا ، وقد يستعين بذوى النفوذ والسلطان . وكان للأندية الأدبية والنسائية خاصة ، شأن فى ذلك ، حتى قيل: « إن الأكاديمية وليدة أندية السيدات». ومع هذا كم بقيت بها مقاعد شاغرة ، وكم أعيد انتخاب بعض الطالبين ، ولم يترددوا فى أن يتقدموا للتصويت غير مرة ، و« كورنى » نفسه لم يحظ بالعضوية إلا فى المرة الثالثة . ومتى مرّ عضو «تحت القبة» احتفظ بعضويته إلى النهاية ، ولم يستقل من أعضاء الأكاديمية إلا واحد طوال القرون الماضية ، ولم يفصل إلا ثلاثة لمسلكهم الشائن . وكان الفوج الأول من الأكاديميين إلى الشباب أقرب ، ومتوسط أعمارهم أدنى مما انتهوا إليه اليوم .

وقد قصرت العضوية على الفرنسيين ، ولم يؤخذ بنظام العضو المراسل . ولم تقف الأكاديمية عند الأدباء واللغويين ، بل انضم إليها العسكريون والسياسيون ، والعلماء والفنيون ، ولرجال الدين فيها نصيب ملحوظ ، حظيت بعدد غير قليل من الأعلام ، وإن فاتها بعض من هو بها جدير ، أو أصاب الاقتراع بعض من لايسمو إلى مستواها . ففى القرن السابع عشر انضم إليها مثلا : راسين ، وكورنى ، ولافونتين ، وبلزاك ، ولم يجد موليير سبيله إليها ، مما دفع الأكاديميين أن يقيموا له نصبا كتب عليه « لم ينقص مجده فى شيء وإنما نقص مجدنا » . وفى القرن الثامن عشر كان من بين أعضائها فولتير ، ومونتسكيو ، وكونديياك ، وفاتها روسو . وفى القرن التاسع عشر حظيت بلامارتين ، وفيكتور هوجو ، وكلود برنار . وفى القرن العشرين انضم إليها مورياك وفاليرى ، وهانوتو ، ولم ينل عضويتها أندريه جيد . ولعل فى هذا ماأثار حولها بعض السخط : فوضعت ملهاة للتهكم بها ، ورمى الأكاديميون بأنهم « واضعو ألفاظ ووزانو مقاطع » ، أو أنهم

«جماعة هازلة تحاول أن تظهر بمظهر الجد » . وأبى شاعر فرنسى إلا أن يكتب على قبره : « هنا يرقد من لم يكن شيئا ، ولاعضوا فى الأكاديمية» . ولأمر ما لم يحضر كليمنصو ، رغم انتخابه ، جلسة من جلسات الأكاديمية .

وينتخب الأكاديميون ، ئيسهم لمدة عام ، ولهم أن يجددوا انتخابه ماشاءوا . أما السكرتير فينتخب مرة لمدى الحياة ، وقد حظيت الأكاديمية بسكرتاريين خالدين ، أمثال ميرانو ، دلمبير . وانشئت منذ عام ١٦٤٠ حفل الاستقبال المشهور الذى يعقد فى صورة جلسة علنية تلقى فيها خطبتان : إحداهما لزميل قديم يستقبل بها زميله الجديد ، والأخرى للعضو الجديد يتحدث فيها عن سلفه الذى حل محله . وتعد هذه الخطب من الآثار الأدبية الخالدة ، ومن أشهرها خطاب لابروبير وبوفون .والأكاديمية حرة فى اختيار أعضائها ،ولايسع الحكومة إلا أن تقر ماانتهت إليه .

ولم يستطع لويس الرابع عشر ، على جلاله وعظمته ، أن يعارض فى انتخاب لافونتين ، وكل ماحدث أنه أخر قليلا إمضاء قراره . وجرت العادة أن يقدم رئيس الأكاديمية وسكرتيرها العضو الجديد إلى رئيس الدولة ، ومنهم من امتنع عن ذلك ، كما صنع شاتوبريان الذى رفض أن يلقى نابليون . ولم تتدخل الحكومة فى اختيار أعضاء الأكاديمية إلا مرة واحدة ، وفى عهد الثورة الفرنسية ، ففصلت منهم أحد عشر ، وعينت تسعة . ومكافأة الأكاديميين — فيما عدا السكرتير — رمزية ، وفى هذا ما عزز استقلالهم ، وحماهم من الخضوع والتبعية .

(ج) اهدافها :

لم يحدد القانون فى وضوح رسالة الأكاديمية ، واكتفى بأن أشار إلى أنها تعنى « بجعل اللغة رشيقة وافية بأغراض العلوم والفنون » ، ولم تزد اللائحة على ذلك كثيرا ، وإن رسمت بعض وسائل التنفيذ ، ولعل هذا هو الذى دفع فينلون فى أوائل القرن الثامن عشر أن يضع «خطاب الأكاديمية الفرنسية» الذى حدد فيه أهدافها وتتلخص فى : (١) إعداد معجم شامل (٢) وضع أجرومية فرنسية (٣) درس أصول البلاغة والبيان (٤) جمع قواعد العروض وأوزان الشعر (٥) معالجة الإملاء ورسم الحروف .

ولم تعالج الأكاديمية الفرنسية شيئا فى العروض وأوزان الشعر ، ولم تعرض مطلقا للبيان والبلاغة واكتفت فى الإملاء بما ذهب إليه أحد أعضائها من تعديل كتابة بعض الكلمات على حسب نطقها دون استصحاب للأصل اليونانى أو اللاتينى . وكأنها رأت أن هذه الأمور لاتعنيها كثيرا ، لأنها أساسا عمل مدرسى ، والأولى أن يترك شأنها للناس يتصرفون فيها كما يشاءون . أما النحو فظهر لها فيه كتاب « الأجرومية الفرنسية » ، وهو أقرب إلى المحافظة منه إلى التجديد .

وعملها المجمعى الحق هو «معجمها» ، بدأت فيه عام ١٦٣٤ ، ولم تفرغ منه إلا عام ١٦٩٤. وخوفا من تلاعب النساخ والمحررين ، واتقاء لإخراج أجزاء منه بغير اسم الأكاديمية ، استصدرت قبل ظهوره بعشر سنوات ، أمرا ملكيا بأن لا يطبع معجم آخر سواه . وقد حاولت أن تستوعب فيه ألفاظ اللغة وتعبيراتها المشهورة ، مع البعد عن الغريب وغير المألوف . وتركت المصطلحات العلمية جانبا ، ولم تعرض من الأعلام التاريخية والجغرافية ، إلا لما يرتبط بعبارة مشهورة : فجاء معجما لغويا خالصا ، وقفت به عند حدود ضيقة . ويظهر أنه لم يفهم فى البداية على وجهه ، ولم يستبن منهجه ، وخلط بالمعاجم المعاصرة . وما إن عرف حتى أقبل عليه القراء ، وأعيد طبعه أربع مرات فى القرن الثامن عشر ، وفى الطبعة الرابعة فقط أخذ بقدر من المصطلحات العلمية والفنية ، لأنها جزء من الحياة العامة . وفى الطبعة الخامسة بلغ عددها ٢٠٠٠ مصطلح ، وهى فى زيادة مطردة ، وفى القرن التاسع عشر أعيد طبع المعجم مرتين ، وفى عام ١٩٣٢ — ١٩٣٥ ظهرت الطبعة الثامنة — ولم تغير الأكاديمية رأيها فى الأعلام ، ولم تجار الاتجاه الموسوعى الذى اتسمت به معاجم القرنين التاسع عشر والعشرين . وفى الأكاديمية جهاز دائم ولجنة خاصة تتابع العمل فى هذا المعجم بانتظام .

وللأكاديمية نشاط بارز فى جانبين آخرين : أولهما حفلات الاستقبال التى تعد من الأحداث الأدبية ، وفى خطبها درس وبحث ، وأدب وبلاغة . وثانيها ما توزعه من عشرات الجوائز كل عام ، وليست مقصورة على الأدب واللغة ، بل امتدت الى النواحى الاجتماعية ، كالتشجيع على الفضيلة ، ومواساة الأسر البائسة . ولم يكن غريبا أن يقال عنها فى عيدها السنوى الثالث أنها « مؤسسة اجتماعية بقدر ما هى هيئة أدبية لغوية » .

* * *

هذه هى الأكاديمية الفرنسية ، وقد حظيت بمنزلة لم يحظ بها كثير من الهيئات الأدبية والعلمية عمت الفرنسية من التدهور والابتذال ، وعدت محكمة الأدب العليا فأكسبته حرمة وقدسية ، وسمت بالأدب الفرنسى إلى مستوى الآداب العالمية فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ولكنها رميت بالبطء والجمود والمحافظة ، وقد أهداها كوليير ساعة كبيرة محل تندر وفكاهة ، فعدت تنبيها للأكاديمية إلى حث الخطا وسرعة الإنجاز . وعيب عليها أيضا نزعتها نحو أرستقراطية فكرية وأدبية تسمو على المجتمع ولا تعتد بمتطلباته وحاجاته العاجلة . غير أن الزمن لم يلبث أن فرض عليها سلطانه ، وبدت بعد الحربين العالميتين الأخيرتين أقرب إلى التجديد والتطور . وأخذ عليها أخيرا قلة إنتاجها فى عمرها الطويل ، ولا يشك فى أن قيام هيئات أدبية وعلمية فرنسية متلاحقة قد حمل عنها بعض أعبائها .

الفصل الثالث

٣ ـ مجمع دمشق

يحق لهذا المجمع أن يباهى بأنه أبو المجامع العربية المعاصرة ، ولد عام ١٩١٩ ، وسار على الدرب يشق الطريق ، ويذلل الصعاب ، شأن كل كائن فى بدء نشأته ، حقا إن فكرة المجامع اللغوية عرفت بمصر فى عهد سابق ، وظهرفيها « مجمع البكرى » فى أخريات القرن الماضى ، وتلاه مجمع دار الكتب عام ١٩١٦ ، ولكن هذين المجمعين لم تقدر لهما حياة طويلة ، وماتا فى مهدهما تقريبا ، وقد دعت إلى مجمع دمشق ظروف قاهرة ومحنة ألمت بالعربية إبان الحكم العثمانى الذى عمر طويلا . فقصر تعليم العربية فى الشام على خاصة الخاصة ، وفى مقدمتهم رجال الدين من المسلمين واكتفى فيها بقدر ضئيل من قواعد النحو والصرف . وزاحمتها اللغتان التركية والفارسية ، وقامت أعمال الدواوين أساسا على التركية ، وقل من يحسن العربية قراءة وكتابة بين موظفى الدولة . وسرت ألفاظ تركية كثيرة إلى الدارجة ، ولا تزال تحتفظ بقدر منها . وما إن استقلت البلاد حتى أخذت تسلك سبل نهضتها ، وتحيى معالم قوميتها ، وفى مقدمتها تعلم العربية ونشرها . وأعان على ذلك جماعة من القادة والمصلحين الذين أتيحت لهم فرصة التمكن من الثقافة العربية وعلومها فى مصر وفى الجامعة الأميريكية والكلية اليسوعية ببيروت . وسنقف قليلا عند نشأة هذا المجمع وتكوينه ، ثم ننتقل إلى رسالته وإنجازاته .

(أ) نشأته وتكوينه :

لم ينشأ مجمع دمشق دفعة واحدة ، بل مهدت له « لجنة الترجمة والتأليف » التى كونت عام ١٩١٨ ، ثم «ديوان المعارف» الذى أنشئ فى بدء العام التالى، ولم يلبث هذا الديوان أن حوّل إلى مجمع علمى فى يونيه عام ١٩١٩ . وقد تكون هذا المجمع فى البداية من ثمانية أعضاء فقط ، ثم نما على مر الزمن، وارتفع عدد أعضائه إلى العشرين . وتوالى على عضويته العاملة حتى اليوم ما يزيد على ٦٠ عضوا ، وإلى جانبهم نحو ٢٠٠ عضو من المراسلين . ونكتفى بأن نشير من بينهم إلى بعض من لقوا ربهم من الأعضاء العاملين ، وفى مقدمتهم كرد على (١٩٥٣) المؤسس الأول، وعبد القادر المغربى (١٩٥٦) الذى كان من مؤسسى مجمعى دمشق والقاهرة ، وخليل مردم (١٩٥٩) الرئيس الثانى لمجمع دمشق ؛ وعز الدين التنوخى (١٩٦٦) نائب الرئيس، والأمير مصطفى الشهابى (١٩٦٨) الرئيس الثالث ، تغمدهم الله جميعا برحمته ، وجزاهم خير الجزاء عما قدموا لأمتهم ولغتهم .

عقد مجمع دمشق أولى جلساته فى قصر الحكومة بساحة المرجة ، ثم انتقل إلى المدرسة العادلية الكبرى بعد إنشائه بشهرين ، ولم يبرحها حتى اليوم ، وبنيت له أخيرا دار حديثة خاصة . وفى بدء حياته حرص على أن يعقد جلستين كل أسبوع ، ولم يلبث هذا النشاط أن اعترضته بعض المعوقات ، فصرف خمسة من الأعضاء عن عملهم ، لضائقة مالية فيما قيل ، ولما يمض على قيام المجمع عام كامل . ثم ردوا ثانية ، وعاد النشاط مرة أخرى فى أواخر عام ١٩٢١ . ولم يسلم مجمع دمشق من الحملات البرلمانية ، ولعل أعنفها تلك التى أثارها مجلس النواب السورى ، وطالب فيها بإلغاء المجمع العلمى ، واستطاع فارس الخورى بحججه الدامغة أن يدفع هذا العدوان . وفى عام ١٩٦٠ أريد بمجمعى دمشق والقاهرة أن يكونا فرعين لمجمع موحد ، ونحن من أعضاء هذا التوحيد باسم اللغة وحمايتها ونشرها ، ولئن كانت السياسة قد فصلتهما ، فإنا نأمل أن يجئ يوم نرى فيه المجامع اللغوية العربية كلها مجتمعة فى صعيد واحد ، ولو مرة كل عام .

(ب) رسالته وانجازاته :

حددت رسالة مجمع دمشق على النحو التالى :

١ — النظر فى اللغة العربية وأوضاعها العصرية ، ونشر آدابها و إحياء مخطوطاتها ، وتعريب ماينقصها من كتب العلوم والصناعات والفنون عن اللغات الأوربية ، وتأليف ما تحتاج إليه من الكتب المختلفة المواضيع على نمط جديد .

٢ — جمع الكتب المخطوطة والمطبوعة ، وتأسيس دار كتب عامة .

٣ — جمع الآثار القديمة العربية وغير العربية وتأسيس متحف لها .

٤ — إصدار مجلة خاصة بالمجمع ينشر فيها أفكاره وأعماله ، وتربطه بالمؤسسات المماثلة .

رسالة واسعة الأطراف ، متعددة الجوانب ، ولعلها جاءت على هذا النحو ، لأن المجمع كان الوريث الوحيد لديوان المعارف ، ولا أدل على هذا من أن قدرا من هذه الأعباء قد رفع فيما بعد عن كاهل المجمع . وسنعرض لكل واحد منها فى اختصار .

١ — قد سلك مجمع دمشق فى خدمة اللغة مسلكا لم تجاره فيه كثير من المجامع اللغوية الأخرى ، فحاول إصلاح لغة الدواوين التى كانت قد طغت عليها التركية ، وطلب إلى دوائر الحكومة أن تقفه على ماتحتاج إليه من ألفاظ وعبارات ، وأرسلت إليه قوائم شتى حرص على مراجعتها مع مندوب الدائرة المختصة ، فعدل ألفاظا ومصطلحات ، وأصلح تعابير واستعمالات ؛ وطلب إلى رؤساء الدواوين ورجال الصحافة أن يستعملوا مقترحاته ، فيقربوها إلى الناس ويزيدوهم بها إلفا . وعنى باللغة ، فى معاهد التعليم ، فحاول أن يطورها ، وأن يجعلها ملائمة للعصر وحاجاته إن فى المدرسة الثانوية أو فى الجامعة ، وراقب لغة الكتب المدرسية ، فلم يكن يسمح بتدريس كتاب إلا إذا وافق عليه . ووضع مشروع كلية الآداب لنشر اللغة الفصحى والآداب العربية ، ولم

يتردد فى أن يسهم فى إعداد طلاب هذه الكلية ، بتزويدهم ببعض الدروس التمهيدية فى علوم الأدب واللغة .

ورأى تفشى الأغلاط اللغوية والنحوية فى الصحف والمطبوعات ، فأراد تداركها ، واستحدث ما سماه « عثرات الأقلام » . وتلك سنّة أخرى تذكرنا بما أخذ به بعض اللغويين المعاصرين فى النصف الأول من هذا القرن ، أمثال ، أحمد العوامرى فى القاهرة ، والدكتور مصطفى جواد فى بغداد . فكان يجمع الأغلاط الشائعة ، دون ذكر لأسماء من وقعوا فيها ، ثم يحاول تصحيحها بعد تثبت ومراجعة . وينشر التصحيح فى الجرائد المحلية تباعا ، وأفسح المجال للتعليق والرد ، فأثار حركة أدبية ولغوية نافعة . وحرص على أن يسجل تصحيحاته فى مجلته ، وتوافر له بذلك نحو ثلاثين مقالة ، فيها درس وبحث ، وتحقيق وتحرير . وقد قاده هذا إلى أن أصبح شبه « دار للفتوى اللغوية » فكانت توجه إليه الأسئلة عن بعض الكلمات الغريبة والمصطلحات الفنية ، وماكان يتردد فى الإجابة عنها .

ولم يقف فى خدمة اللغة والثقافة عند هذا ، بل أبى إلا أن يمتد نشاطه إلى ميادين أخرى . فأعد قاعة للمحاضرات العامة ، دعا إليها الرجال والنساء ، ونظم فيها محاضرات دامت نحو خمسة وعشرين عاما . توقفت حينا ، ونشطت حينا آخر . وفى هذه القاعة العامرة التى بضع مئات من المحاضرات العامة ، اضطلع بها نفر من كبار الباحثين رجالا ونساء ، بين سوريين ، وعرب ومستعربين . فيها أدب ولغة ، أخلاق ودين ، تاريخ وحضارة ، اقتصاد وسياسة ، علم وفلسفة . وقد نشر قدر كبير منها ، ولايزال زادا للباحثين والدارسين .

واستن المجمع سنة حسنة فى تكريم كبار الأدباء والشعراء ، فأقام مهرجانين عظيمين لمرور ألف عام على وفاة المتنبى وأبى العلاء . وقد سارت بهما الأمثال ، وأسهم فيهما عدد غير قليل من الأدباء والشعراء العرب والمستعربين ، ومثلت فيهما البلاد العربية على اختلافها . وإلى جانب هذين المهرجانين الكبيرين أقام عدة حفلات للتأبين أو التكريم ، وكان فى تأبينه وتكريمه سمحا لا يتقيد بجنس أو وطن ، بل لعل نصيب غير السوريين منها أعظم من السوريين أنفسهم فأبن طاهر الجزائرى ، وأحمد كمال المصرى ، ومحمد رشيد رضا ، ومحمود شكرى الألوسى ، ومصطفى لطفى المنفلوطى . وكرّم وأبّن أحمد شوقى ، وحافظ إبراهيم ، وكرّم الشاعر المصرى محمد الهراوى . وامتد هذا التكريم إلى بعض شباب الناشئين من أبناء سوريا ، تشجيعا لهم ، وحثا لغيرهم أن يسيروا على نهجهم ، وقد أضحوا فى مقدمة الشعراء والأدباء ، وأذكر من بينهم زكى المحاسنى وأنور العطار .

٢ ـ حمل مجمع دمشق رسالة لم يحملها مجمع آخر ، واضطلع بها فى صبر وجلد ، ورعاها فى حماس ورغبة ، وكأنما أريد به إلى جانب خدمة اللغة ، أن يقوم على نفائس الماضى جميعها

فى العلوم والآداب والفنون . فطلب إليه أن يجمع الكتب مخطوطة كانت أو مطبوعة ، وأن يؤسس لها دارا عامة .والكتب الإسلامية ، فياعدا ما يقتنيه الأفراد، موزعة من قديم بين دور العلم والمساجد والتكايا، إن فى الشام أو فى غيرها من البلاد العربية .فكانت معرضة للضياع ، وقد تسرب منها ماتسرب. وفى أخريات القرن الماضى أريد جمعها وتركيزها فى مكتبةعامة بالمدرسة الظاهرية ، تحت إشراف لجنة خاصة تابعة لدائرة الأوقاف . وقد غذيت بمكتبات دمشق الفرعية وتوافر لها نحو ٢٥٠٠ مجلد :

وما أن أنشىء المجمع العلمى حتى ضمت هذه المكتبة إليه،وسميت « دار الكتب العربية» محاكاة فى الغالب لدار الكتب المصرية ، ووقف عليها بناء الظاهرية . وأخذ المجمع فى ترتيب شئونها ،وتزويدها بأنفس المطبوعات والمخطوطات فوضع نظاما لدخولها والاستعارة منها ، وحاول ترتيب كتبها وفهرستها . وبعث البعوث شرقا وغربا لجمع الكتب شراء أو استهداء، وعلى رأسها بعثة إلى القاهرة عام ١٩٢٤ ، وقد عادت ومعها نحو ١٦٠٠ مجلد من الكتب النفيسة واستنسخ أو صور الكتب العربية النادرة من مكتبات أوربا . وأشرف على دار الكتب نفر من أعضاء المجمع ممن لهم خبرة واسعة فى المراجع والكتب العربية. وتولى إدارتها بعض من تخصص فى فن المكتبات، فنهضوا بها نهضة ملحوظة .وأصبحت تشتمل على نحو عشرة آلاف مخطوط ومايزيد على مائة ألف كتاب مطبوع ، وهى دون نزاع مكتبة سوريا الكبرى .

٣ — طلب إلى مجمع دمشق أن يجمع الآثار القديمة ، عربية كانت أو غير عربية ، وأن ينشىء لها متحفا خاصا. مهمة ولاشك شاقة ، ولكن المجمع أبى إلا أن يضطلع بها، وقد بذل فى سبيلها ماوسعه ، وجمع لسوريا تراثا يعتد به. وكانت آثار الشام عرضة للسلب والنهب فى العهد التركى ، تواردت عليها فى النصف الثانى من القرن الماضى بعثات أوربية للحفر والتنقيب فأخذت منها ماأخذت ،ونقل منها الحكام الأتراك إلى الآستانة مانقلوا . ولم يتنبه إليها إلا فى عهد الحكومة العربية، فأمر بإنشاء متحف لها مقره « العادلية » .

وقد ألحق هذا المتحف بالمجمع العلمى الذى قضى نحو عشرين عاما يرتب أموره ويسهر عليه ، ولم يتردد فى أن يستعين ببعض الخبراء ، وكون لجنة لدراسة مشكلة الآثار فى سوريا بوجه عام، وأوفد مدير المتحف الأمير جعفر الحسنى أمين المجمع حين ذاك إلى باريس لدراسة نظام المتاحف ، فحمل معه آراء نافعة ، وبعث فى المتحف حياة جديدة . وقد جمعت الآثار المبعثرة فى أماكن متفرقة ، وبذلت عناية خاصة فى حفظها . ونظم أمر الحفر والتنقيب ، وأسهم الانتداب الفرنسى فى ذلك بعض الشىء ، وحاول حماية الآثار السورية من السلب والنهب : ولم يلبث المتحف الشاب أن تحول إلى دار آثار زاخرة بتحفها ونفائسها . وسلم فى عام ١٩٣٧ إلى مديرية الآثار العامة، وأصبح مؤسسة مستقلة ماليا وإداريا :

٤ — ومجلة المجمع من أعماله الخالدة ، بدأ فى إخراجها عام ١٩٢١ ، ثم استمر يتعهدها ويسهر عليها حتى الآن ، توقفت عن الظهور مرتين ، ولكنها استطاعت أن تستعيد نشاطها وقوتها. أريد بها فى البداية أن تكون شهرية ، ثم أخرجت كل شهرين ، وأصبحت أخيراً ربع سنوية واستقرت على هذا الوضع ، وبدت فى مظهر وحجم ثابتين تقريبا . لم تقتصر على المجمعيين ولا على الكتاب والباحثين السوريين ، بل أفسحت صدرها لغيرهم من العرب والمستعربين ، ووقفت بعض أعدادها على أهداف معينة . وتعد اليوم من المصادر التي يرجع إليها ، فيها أدب ولغة ، تاريخ وآثار ، وفيها تعريف بالمخطوطات ونقد لأشهر المؤلفات ، وبخاصة ما اتصل منها بالإسلام وحضارته .

أما فى عالم النشر والتحقيق ، فقد أخرج المجمع نفائس يعتد بها ، عهد بها إلى محققين أعلام ، أغلبهم من أعضائه . فرووا فيها ، وتثبتوا من أصولها ، وحلوا غامضها . ثم أخرجت فى ثوب أنيق جذاب ، فيها أدب ولغة ، علم وفلسفة ، ويدور معظمها حول التاريخ ، وتاريخ دمشق بوجه خاص . فأخرج المجمع ما عثر عليه من أجزاء « نشوار المحاضرة » للتنوخى ، و « الدارس فى تاريخ المدارس » للنعيمى الدمشقى ، و « أمراء دمشق » للصفدى ، و « فضائل الشام ودمشق » للربعى : ويهدى المجمع مطبوعاته إلى المجامع والجامعات والمعاهد العربية ، والمؤسسات الثقافية المعنية باللغة وآدابها ، ولا يبخل بها على كبار المشتغلين بالأدب واللغة من عرب ومستعربين ، وهم يرقبونها دائماً فى شوق ورغبة .

هذا هو مجمع دمشق فى ماضيه وحاضره ، وقد مر بأيام مزدهرة ، وهو جدير بأن تزدهر أيامه دائما . هو بلا شك وسيلة ناجعة من وسائل تطوير اللغة والنهوض بها ، وحلقة هامة من حلقات النهضة الثقافية والعلمية ، وعضو له شأنه فى أسرة المجامع اللغوية العربية . وقد انتهينا منذ بضع سنوات إلى تكوين اتحاد للمجامع اللغوية العلمية ، وهدفه الأول أن يربط بينها ، وينسق عملها ، وربما أدى ذلك إلى المجمع الموحد الذى نحلم به منذ زمن . على أن فى وسع المجامع العربية القائمة أن تسير بالعربية فى طريق الوحدة العلمية والحضارية .

الفصل الرابع

٤ ـ مجمع القاهرة

سبقت فكرته وجوده بزمن غير قصير ، فقد شعرنا منذ أوائل القرن التاسع عشر بأن عربية القرن الثامن عشر أصبحت لا تفى بحاجات النهوض والتقدم ، وحاولنا إقامة نهضة أدبية لغوية إلى جانب النهضة العلمية والاجتماعية . ولرفاعة الطهطاوى (١٨٧٣) شأن يذكر فى النهضة اللغوية : راجع وصحح ، ترجم وألف ، اشتق ألفاظا عربية أو عرّب ألفاظا أعجمية لأداء المعانى الجديدة ، دعا إلى تبسيط النحو العربى وتيسيره على الناشئين . قام بجهود متنوعة تكاد تلخص ماتحاوله المجامع اللغوية ، وتدعو إليه . ثم جاء بعده الأستاذ الإمام محمد عبده (١٩٠٥) الذى دفع النهضة الأدبية واللغوية دفعة قوية ، فطور أدب المقالة ، وجدد أسلوب التأليف ،وأشار بإنشاء مدرسة دار العلوم (١٨٧٢) ، لكى تعد المعلم الصالح وتسهم فى تطوير اللغة، ورأى أن العربية فى حاجة ماسة إلى هيئة شبيهة بالأكادمية الفرنسية ، تضطلع بوضع المعاجم اللغوية الحديثة ، وتدرس تاريخ اللغة، وتتبع ما أنشئ من مصطلحات جديدة اشتقاقا أو تعريبا . وذهب إلى أن هذا الإصلاح ، إن أخذ به فى جد ، آتى أكله بعد خمسين سنة ، وأسهم هو فعلا فى العقد الأخير من القرن الماضى فى تكوين «مجمع البكرى» الذى لم تقدر له حياة طويلة .

إلا أن الفكرة لم تمت ، بل ازداد الداعون إليها حماسا وقوة ،وعولجت فى الربع الأول من القرن العشرين فى صور شتى . فعقد حفنى ناصف عام ١٩٠٨«بنادى دار العلوم»ندوة خاصة دامت نحو أسبوعين ، وعولجت فيها عدة قضايا ،منها«تعريب الأسماء الأعجمية» ،و«الأسماء العربية لمستحدثات الحضارة والمدنية» ،و«العامية والفصحى».ولم يكد يمضى على هذه الندوة عشر سنوات حتى أخذلطفى السيد عام ١٩١٦ فى إنشاء ما سمى«مجمع دار الكتب»، وأريد به أن يكون أهليا على غرار نشأة الأكادمية الفرنسية . ولم يقصر على المصريين والعرب وحدهم ،بل اقترح أن يضم إليهم عضو فارسى وآخر سوريانى، وثالث عبرانى . بيد أن هذا المجمع لم يعمر هو الآخر طويلا، وطغت عليه ثورة سنة ١٩١٩ . وقد حاول استعادة حياته عام ١٩٢٥ ، ولكنه لم يعقد إلا جلسة واحدة .

وفى ضوء هذا نستطيع أن نقرر أننا قضينا نحو أربعين سنة حاولنا فيها تكوين مجمع يقوم على أمر العربية ويرعاها . وبدأت التجربة فى القاهرة على أيدى الأدباء واللغويين أنفسهم ، على نحو ما بدأت فى باريس . وكانت هذه التجارب جادة وصادقة ، وإن لم تعمر طويلا . ولكنها مهدت دون نزاع لقيام المجمع الملكى الذى صدر مرسومه عام ١٩٣٢ ، وربما كان فى الإمكان

أن يصدر قبل ذلك ، لولا الحركات الوطنية وما ترتب عليها من أحداث سياسية . وصلته بتلك التجارب واضحة ، ويكفى أن نشير إلى أن من بين أعضائه من اشترك فى المجامع السابقة .

(ا) تكوينه وأغراضه :

نص مرسوم إنشاء المجمع على أن يتكون من عشرين عضوا عاملا من العلماء المعروفين بتبحرهم فى اللغة العربية من غير تقيد بجنسية معينة وهذا مبدأ لم يسبق إليه ، لا فى المجمع الفرنسى ولا فى المجامع التى جاءت على غراره ، فقد ربط العضوية بمهمة المجمع ورسالته ، وباعد بينها وبين الاعتبارات السياسية والطائفية ، وجاء مجمع اللغة العربية هيئة عالمية لا إقليمية . وفى اختيار أعضائه العاملين الأول احترم هذا المبدأ كل الاحترام ، فكان نصفهم من المصريين ، والنصف الآخر فى قسمة عادلة بين العرب والمستعربين . وروعى فى اختيارهم جميعا مبدأ الكفاءة وكان من العرب العراقى والسورى واللبنانى والتونسى ، ومن المستعربين الألمانى والإنجليزى والفرنسى والإيطالى . وإلى جانب العضو العامل يستطيع المجمع أن يمنح ، من غير تقيد بجنسية ، لقب «عضو فخرى» للأشخاص الذين قاموا بخدمات جليلة فى دراسة اللغة ولهجاتها . وله أيضا أن يمنح لقب « عضو مراسل » لكل من يرى فى معونته فائدة كبرى له ، سواء أكان مصريا أم أجنبيا ، وقد أخذ المجمع بذلك إلى اليوم .

وحدد المرسوم أغراض المجمع ، ووضح سبل تنفيذها ، وبين كيف يسير العمل فيه ، ورسم معالم شخصيته المعنوية . ووضع بذلك الدعائم التى قام عليها المجمع ، والتى لم تنقض فيما بعد بوجه عام ، وبالعكس عززت وأيدت على مر الزمن . وتتلخص أغراضه ، على حسب ما جاء فى هذا المرسوم ، فى أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون فى تقدمها ، ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر . ووسيلته إلى ذلك أن يبين ما ينبغى استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتراكيب ، وأن يبحث كل ما له شأن فى تقدم اللغة ، وأن يتتبع تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها ، وأن يحقق النصوص القديمة المتصلة باللغة وفقهها ، وأن يضع معجما تاريخيا للغة العربية ، وأن يصدر أخيرا مجلة تنشر أبحاثه وقوائم الألفاظ والتراكيب التى يقرها ، وتفسح المجال لمناقشات الجمهور واقتراحاته ، وبقيت هذه الأغراض هدف المجمع باطراد ، ونص عليها فى كل ما أدخل على قانونه من تعديل ، فى شىء من التوسع والتفصيل . وقد حقق المجمع منها ما استطاع ، ولا يزال يتابع السير . وسنشير فى الحديث عن إنتاجه إلى ثمار هذه الجهود وما تحقق منها .

(ب) أعضاؤه :

ولا أظن أن هيئة من هيئاتنا العلمية والأدبية الكبرى حظيت بما حظى به مجمع اللغة العربية من أعضاء : لغويين وعلماء ، قادة ومصلحين . وقد قام اختيارهم على التعيين والانتخاب ، عينوا عند الإنشاء ، وعند كل زيادة فى عددهم . ووكل إليهم فيما عدا ذلك انتخاب من يرون

ضمه إلى صفوفهم من المصريين ، أو من غير المصريين وتحرى ما أمكن فى هذا الاختيار ، سواء أتم عن طريق التعيين أم عن طريق الانتخاب . وحرص المجمعيون على أن يعقد جلسة واحدة فقط كل عام لملء ما تدعو إليه الحاجة من فراغات ، فلم يسرفوا فى الانتخاب ، ولم يسمحوا فيه باستثناء ما . وعرفت انتخاباتهم بأنها شاقة ومحدودة العطاء ، ولم يتمكنوا قط من ملء ما لديهم من كراسىّ شاغرة فى جلسة واحدة . وربما توسعوا فى الترشيح دون جدوى ، لأن الأغلبية المطلوبة ليست يسيرة التحقق ، وكثيرا ما رشح الشخص الواحد غير مرة .

تكون المجمع فى البداية — كما أشرنا — من عشرين عضوا ، وقد حالت الحرب العالمية الثانية دون أعضائه غير المصريين ، وهم النصف ، من الاشتراك فى أعماله ، فلم يتوفر له العدد القانونى اللازم لاتخاذ قرارات صحيحة وألغيت دورة كاملة من دوراته ، هى دورة ١٩٣٩ / ١٩٤٠ . ورؤى فى عام ١٩٤٠ ضرورة رفع عدد الأعضاء إلى ثلاثين ، على أن تهبط نسبة الأعضاء غير المصريين إلى الثلث . وفى عام ١٩٤٦ رفع العدد مرة أخرى إلى أربعين ، وهبطت نسبة غير المصريين إلى الربع . ووقفت الزيادة عند هذا العدد ، ولرقم ٤٠ شأن فى تاريخ الأكاديمية الفرنسية : وأدع جانبا المجمع الموحد الذى كان ثمرة من ثمار الجمهورية العربية المتحدة بين مصر وسوريا ، لأنه لم يغير فى شىء عدد أعضاء مجمع القاهرة ، واكتفى بأن ضم إليهم أعضاء مجمع دمشق ، وعشرين عضوا آخر من البلاد العربية ، ولم يستكمل عدد هؤلاء بحال . واقتصر فى هذا المجمع على المصريين والعرب ، ولم يفتح باب العضوية للمستعربين . وقد روئى العودة إلى ذلك مرة أخرى فيما اقترح أخيرا من تعديل لقانون المجمع .

وتوارد على العضوية العاملة بالمجمع عدد غير قليل من الشيوخ والعلماء الأعلام ، لقى كثير منهم ربه ، وبقى آخرون يحملون الرسالة ، ويؤدون الأمانة . ويطول بنا الحديث إن شئنا أن نقف عندهم جميعا ، ويكفى أن نشير إلى أن أغلبهم كان من اللغويين والأدباء بين كتاب وشعراء وفيهم أيضاً عدد غير قليل من رجال الشريعة الإسلامية والقانون ، ومنهم صحفيون ، وفلاسفة ، وعلماء فى اللغات الشرقية ، وأساتذة فى التاريخ والجغرافيا ، وأطباء وشيوخ فى العلوم الرياضية والطبيعية . ويطيب لى أن أنوه ببعض الراحلين ، كالخضر حسين ، وحسين والى ، وإبراهيم حمروش ، وفيشر ، والإسكندرى ، والعوامرى ، وكرد على ، وعبد القادر المغربى ، وانستاس الكرملى ، وإبراهيم مصطفى ، ومحمد على النجار ، ومحيى الدين عبد الحميد ، وزكى المهندس بين اللغويين ، أو بحسن حسنى عبد الوهاب ، وطه حسين ، والعقاد ،

وأحمد أمين ، وأمين الخولى ، ومحمد فريد أبو حديد ، وأحمد حسن الزيات ، وإبراهيم عبد القادر المازنى ، وتيمور بين الأدباء ، أو بعلي الجارم ، ورضا الشبيبى ، وحسن القاياتى ، وعزيز أباظة بين الشعراء ، أو المراغى ، ومصطفى عبد الرازق ، وأحمد إبراهيم ، والفاضل ابن عاشور ، وعبد الرحمن تاج ، وعبد الوهاب خلاف ، ومحمود شلتوت ، وعلى الخفيف بين رجال الشريعة الإسلامية ، أو بمحمد توفيق رفعت ، ولطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، وعبد الحميد بدوى ، وعلى بدوى ، وعبد الرزاق السنهورى بين رجال القانون ، أو بعبدالحكيم الرفاعى بين الاقتصاديين ، أو بفارس نمر ، ومحمد حسين هيكل ، وحافظ عوض ، وأنطون الجميل ، وتوفيق دياب ، وعبد القادر حمزة بين الصحفيين ، أو بماسنيون ، ومنصور فهمى ، وعثمان أمين بين الفلاسفة ، أو بحاييم ناحوم ، وليتمان ، وحامد عبد القادر ، وعبد الوهاب عزام ، ومراد كامل بين أساتذة اللغات الشرقية ، أو بنللينو ، وعبد الحميد العبادى ، وشفيق غربال ، ومحمد عوض بين المؤرخين والجغرافيين ، أو بعلى إبراهيم ، ومحمد شرف ، وأحمد البطراوى ، وعلى شوشة ، وكامل حسين بين الأطباء ، أو بالأمير الشهابى ، ومصطفى نظيف ، وأحمد زكى بين علماء الطبيعة والكيمياء والأحياء . تغمدهم الله جميعا برحمته ، وجزاهم خيراً الجزاء عما قدموا لأمتهم ولغتهم .

وفى المجمع أعضاء مراسلون من أركان الدنيا الأربعة ، من آسيا وأفريقيا ، من أوربا وأمريكا ، وعددهم فى زيادة مطردة . وقد درج المجمع أخيرا على أن يختار كل ثلاث سنوات عددا منهم ممن يرى الاستعانة بهم فى تحقيق أغراضه . ولهم جميعا الحق فى الاشتراك فى مؤتمر المجمع السنوى ، وتوجه إليهم الدعوة بانتظام . وفى وسعهم أن يقدموا ما يعن لهم من بحوث ومقترحات ، وبينهم من غذى المجمع بغذاء ملحوظ ، وحرص على الاشتراك فى مؤتمره ما وجد إلى ذلك سبيلا . ويرجى أن يستفاد منهم على وجه أتم وأكمل ، وبخاصة فيما يتصل بالتقريب بين اللهجات الإقليمية واللغات المحلية .

ونخطىء إن زعمنا أن المجمعيين يضطلعون بالعبء وحدهم ، بل يعاونهم أساتذة أجلاء وخبراء متخصصون فى اللغة والأدب ، فى العلم والفن والتكنولوجيا . وعليهم نعول فى متابعة الحركة العلمية والفنية الدائبة ، ونأخذ ما استطعنا بمقترحاتهم فى لغة العلم والحضارة . وفى المجمع ما يزيد على عشرين لجنة ، اختصت كل واحدة منها بميدان معين تتعمق فيه ، وتتعرض لمشاكله ، وتنظر فى مصطلحاته . ولكل لجنة أن تستعين بمن تشاء من الخبراء ، ويجيبها المجمع دائما إلى ما تطلبه . وخبراء المجمع فى الواقع جنود مجهولون ، يعطون فى سخاء ، ويحسون بسعادة ، فى انضمامهم إلى الأسرة المجمعية ، ويعز علينا أنا لا نستطيع دائما أن نفيهم حقهم .

(ج) النتاجة :

يوشك مجمع القاهرة أن يبلغ الخمسين من عمره ، وقد قضى فى البداية زمنا يتلمس فيه طريقه ، ويرسم منهج عمله ؛ ونعتقد أنه قد اتضحت أمامه السبل اليوم ، واستبانت طرائق العمل ، واستقرت المبادىء والتقاليد : يبدأ عمله أولا على أيدى محرريه ، ويعنى ما وسعه باختيارهم ، وإعدادهم الإعداد الملائم لمهمته ، ويسوءه أن يحرم من بعضهم بعد أن أعده وهيأه ، ويحرص على ألا تنقطع صلته بالقدامى منهم ، حتى بعد أن تقاعدوا وجاوزوا سن المعاش ؛ والعمل اللغوى والعلمى فى المجمع ذو طبيعة خاصة ، وأولى به من ألفه ودرب عليه ؛ ومن المحررين إلى اللجان ، وهى فى الواقع ، بمن فيها من أعضاء وخبراء ومحررين ، بوتقة الإنتاج الحقيقية فى المجمع ؛ ولكل لجنة مطلق الحرية فى تنظيم اجتماعاتها ، دون أن تتقيد بزمان أو مكان معين ، تجتمع صباحا أو مساء فى مبنى المجمع ، أو فى مكان آخر إن لاءمها ذلك ، تعمل صيفا وشتاء إلى جانب مجلس المجمع أو فى غيبته ، ولا تنقطع عن عملها إلا فى فترة قصيرة من فصل الصيف تاركة لهيئة التحرير أن تعد ما ينبغى إعداده لاستقبال الموسم التالى ، ومن اللجان إلى المجلس ، وقد درج مجلس المجمع على أن يعقد جلسة يوم الاثنين من كل أسبوع طوال أشهر ثمانية من أول أكتوبر إلى آخر مايو ، وهذه هى الجلسة التقليدية الثابتة ، وكثيرا ما قضت متطلبات العمل بعقد جلسات إضافية أخرى ؛ وأخذ المجلس نفسه بأن لا يبت فى أمر لغوى أو علمى إلا بعد أن يستوفى بحثه فى لجنة من لجانه الخاصة ؛ ومن المجلس إلى المؤتمر الذى لا يقف عند الأعضاء المصريين ، بل يضم إليهم زملاءهم غير المصريين ، ولا يقتصر على الأعضاء العاملين ، بل يفسح المجال أيضا للأعضاء المراسلين ، وطالت أدوار انعقاده فى الماضى ، وامتدت إلى شهر ونصف أو يزيد ، وأصبحنا اليوم لا نستطيع أن نعقده أكثر من أسبوعين ؛ وحاولنا تعويضا عن ذلك أن نضع أعمال اللجان والمجلس تحت أنظار الزملاء غير المصريين على مر السنة ؛ والمجمع حريص على أن يكون هؤلاء الزملاء على بينة تامة مما يعرض أثناء المؤتمر ؛

وقد أتاح هذا التعاون والتنسيق الفرصة لمزيد من الأناة والروية ، والأخذ والرد ، وتبادل الآراء وعرض مختلف وجهات النظر ؛ ولم يزعم المجمعيون يوما أنهم معصومون من الخطأ ، ولم يترددوا فى أن يعيدوا النظر فيما سبق لهم أو قرروه ، إن جد ما يقتضى ذلك ؛ وأعان هذا كله على إنتاج متواصل ومتنوع ، وإن دار أساسا حول اللغة فى ماضيها وحاضرها ؛ ويكاد يتلخص هذا الإنتاج فى خمسة أبواب : (١) تيسير اللغة متنا وقواعد وكتابة ورسم حروف ، (٢) وضع معجمات لغوية متطورة تتمشى مع منهج التأليف المعجمى الحديث ، (٣) إثراء لغة العلم والحياة العامة بحيث تفى بمتطلبات العلوم والفنون ، وتلائم حاجات الحضارة والتقدم ، (٤) إحياء التراث القديم فى الأدب واللغة ، (٥) تشجيع الإنتاج الأدبى ؛

٢ – تيسير اللغة :

اللغة ظاهرة اجتماعية ، تسير بسير المجتمع ، وتقف بوقوفه . لها ماض وحاضر ، وحياتها الحقة فى أن تلائم بين هذين الجانبين. فإن طغى ماضيها على حاضرها ، عز عليها أن تؤدى رسالتها على وجهها وإن تناسى حاضرها ماضيها ، فقدت سلطانها وقدرتها وأصبحت مهددة بالبلبلة والاضطراب . ولكل لغة صعابها ، وتقضى سنة النشوء والارتقاء بتذليل هذه الصعاب والتغلب عليها. وفى مقدمة هذه الصعاب متن اللغة ، وهو مفرداتها التى ينبغى أن تفى بمتطلبات الحياة ، وما أشبه هذه المفردات بنقد متداول يبقى منه ما يبقى فى سوق المال والأعمال ، وينقرض منه ما ينقرض ، ومنذ بدء نهضتنا الحديثة استلفت متن العربية نظرنا ، وشعرنا بعدم وفائه بمتطلبات العلم والحضارة . واستوقفتنا هذه الصعوبة زمنا ، وفارقت محافظين ومجددين . فاستمسك الأول بالسماع والنقل ، وتعبدوا بالماضى ، ووقفوا عنده ورددوا كلمة ابن فارس المشهورة : ليس لنا اليوم أن نخترع ، ولا أن نقول غير ما قالوا ولا أن نقيس قياسا لم يقيسوه . ورأى الأخيرون أن قوانين التطور وسنن الحياة تقضى بأن نغذى العربية بغذاء مستمر ، وأن نخترع فيها ونبتكر ، كما اخترع الأدباء والأجداد . وقرروا فى اختصار : أن ما قيس على كلام العرب فهو منه .

واستطاع مجمع القاهرة أن يثبت أن لغتنا ملك لنا ، وفى وسعنا أن نتصرف فيها بقدر حاجتنا مادمنا لا نخرج على الأصول الثابتة ، وهذا مبدأ أساسى استقر عليه العمل فى المجمع منذ نشأته الأولى . فأطلق القياس ليشمل ما قيس وما لم يقس من قبل ، وتوسع فى الاشتقاق ما أمكن . فأجاز مثلا الاشتقاق من أسماء الأعيان ، مثل : ذهّب من الذهب ، وكبْرت من الكبريت وكان هذا من قبل مقصورا على السماع . وتوسع فى المصدر الصناعى ، وعده قياسا مطردا، للدلالة بوجه عام على المذاهب والنظريات العلمية والفلسفية ، فيقال مثلا : المثالية والمادية ، كما قيل قديما القدرية والجبرية . ووضع صيغا قياسية جديدة للدلالة على المرض أو الحرفة أو الآلة . وهالته مشكلة التعريب فى البداية ، فلم يجز استعمال بعض الألفاظ الأجنبية إلا عند الضرورة وهذه الضرورة قد تقف ولا شك عقبة فى سبيل التعريب وبرغم هذا توسع المجمعيون فى تفسير هذه الضرورة ، وبدأ التعريب فى نظرهم أحيانا حاجة ماسة . فأقروا معربات كثيرة فى العلوم والفنون ، وبخاصة فى الكيمياء وعلوم الأحياء ، وقبلوا ما اشتق منها من أسماء وأفعال ، فسلموا بالأكسيد ، وأخذوا منه أكسيد النحاس مثلا . وعززهم فى ذلك استعمال علمى وحضارى ساد واستقر بين المتخصصين طوال ربع قرن أو يزيد . ولم يقف المجمع عند هذا ، بل وضع للتعريب قيودا وضوابط ، وقعّد فيه بعض القواعد ، فرأى أن الأولى أن يعرب ما يدل على أسماء الأعيان وأعلام الجنس ، مثل أكسجين ، وإنزيم ، وأيون ، وإليكترون ، وأن يعرب أيضا ما يدل على تصنيف لأنواع النبات والحيوان ، أو على سلسلة متشابهة فى الكيمياء ، أو على

ما ينسب إليه من اسم شخص أو مكان . وباختصار وضع المجمع نواة دستور للتعريب يفيد منه المترجمون والمؤلفون ، ويستعين به الباحثون والدارسون . وبذا استعادت العربية ثقتها بنفسها ، وبدأت تقبل الألفاظ الأجنبية غير هيابة ولا وجلة . وأصبحنا نؤمن بأن من حقنا أن نجتهد في اللغة كما نجتهد في الفقه والتشريع . وفي المجمع لجان علمية ولغوية متعددة ترعى متن اللغة وتغذيه ، وقد أخرجت عدة مؤلفات تشتمل على ما انتهى إليه المجمع من قرارات ومبادىء في الاشتقاق والوضع والتعريب .

واللغة لفظ وتعبير ، مفردات وتراكيب ، ولا يقف تيسيرها عند اللفظ وحده ، بل يمتد إلى الجملة . وقد شغل المجمع تيسير النحو والصرف منذ ثلث قرن أو يزيد ، وانتهى فيه إلى قرارات تصلح أساسا لنحو وصرف يلائمان شباب المتعلمين ، ويعاونان على نشر تعلم العربية . وتهدف هذه القرارات بخاصة إلى تخليص النحو من فلسفة لا طائل تحتها ولا حاجة إليها ، وتجريد الصرف من فقه لغة لا يعنى النشء ، ولا يدركون كنهه . ولم تأخذ التربية والتعليم بهذا التيسير إلا عام ٦١ ، ولفترة قصيرة . وبقيت المشكلة تردد إلى اليوم ، وترفع الأصوات مطالبة بتيسير النحو على طلاب اللغة من عرب وأعاجم ، أسوة بما تم من تيسير في أجرومية بعض اللغات العالمية الكبرى . وقد عاد المجمع إلى هذا الموضوع أخيرا ، وانتهى فيه إلى اقتراحات عملية سهلة ، ملاحظا أن معلمي العربية قد خطوا في سبيل التيسير شوطا ، متأثرين بما ذهب إليه قديما من قرارات . وهو يعتقد أن هؤلاء المعلمين إن آمنوا جميعا بهذا التيسير وعنوا به ، فهم خير من يتولى تطبيقه وتحقيقه .

وفي الكتابة العربية صعوبات لوحظت من قديم ، فللحرف الواحد صور مختلفة بحسب موضعه من الكلمة . والحركات والسكنات منفصلة عن الحرف الذي تنصب عليه ، وإذا ما أهمل الشكل صعبت القراءة . والعربية ، كأخواتها السامية ، لغة إعراب ، وفي إعرابها ما يحدد مدلول اللفظ في الجملة ، وقد قيل : أنقرأ لنفهم ؟ أم نفهم لنقرأ ؟ ولم تغب هذه الصعاب عن مجمع القاهرة ، بل وقف عليها وقفة طويلة في مؤتمر عام ١٩٤٤ ، وطرح من أجلها جائزة خاصة لمن يتقدم بأحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية . وتقدم إليه نحو ٢٠٠ مقترح قضى المختصون زمنا في بحثها ومراجعتها ، ولم يجدوا فيها ما يحقق الغاية . وبرغم هذا لم ير المجمع بدا من متابعة البحث في تيسير الكتابة العربية وقنع بحروف الطباعة ، وهي أساسا بخط النسخ ، والناس يقرءون اليوم أكثر مما يكتبون . وانتهى إلى اختصار صور الطباعة اختصاراً ملحوظا ، فهبط به من ٤٧٠ صورة إلى ١٢٨ شاملة لجميع الحروف والهمزات ، والشكل ، والترقيم ، والفواصل ، وتساوى بهذا مع صندوق الطباعة في الحروف اللاتينية . وقد وضع هذا المشروع موضع التنفيذ منذ ١٥ سنة ، وأقبل عليه صناع الآلات الكاتبة ، وأخذت به بعض الصحف العربية الكبرى . وفيه قطعا تيسير للطباعة ، وتوفير للوقت والجهد والمال . ولم يبق للكتابة اليدوية إلا خط الرقعة ، وهو أيسر ، وإن قل تجويده ، وكثيرا ما حلت الآلة الكاتبة محل اليد والخط . وترك للفنانين والخطاطين أن يزينوا لوحاتهم

ما شاعوا بالخط الثلث أو الخط الكوفى . وتيسيراً للقراءة على الناشئين ، أوصى المجمع بالتزام الشكل فى الكتب المدرسية فى مراحل التعليم العام ، وما أحوجنا أن نتعهد ذلك فى عناية كى يتعود الأطفال على النطق السليم .

ويدخل الإملاء ورسم الحروف فى صعوبات الكتابة العربية ، وكم عانى صغار التلاميذ من عقدة كتابة الهمزة المتوسطة والمتطرفة ، ورسم الألف اللينة ، هل واوية أو يائية . وقد فصل المجمع فى قدر كبير من ذلك ، وما أجدره أن يتم ما بدأ ، وعُنى المجمع بكتابة الأعلام الأجنبية ، وقرر أن تكتب على النحو الذى ينطقها به أهلها ، اللهم إلا ما شاع واستقر على نطق معين . وتحقيقا لهذه الغاية سلم بثلاثة حروف هى الجاف الفارسية ، والپاء والڤاء الثقيلتان .

٢ — المعجم اللغوى :

العربية غنية غنى ملحوظا بمعجماتها اللغوية ، ولا يكاد يضارعها فى ذلك إلا اللغة الصينية . وقد بدىء فى وضع المعجم العربى بمعناه الدقيق فى القرن الثانى للهجرة ، وتوالى وضعها على مر الزمن . وربما وضع فى القرن الواحد عدة معاجم ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك القرن الرابع للهجرة الذى يعد بحق العصر الذهبى للمعجم العربى . فقد ظهر فيه « الجمهرة » لابن دريد ، و « ديوان الأدب » للفارابى ، و«التهذيب » للأزهرى ، و « المحيط » للصاحب بن عباد ، و«المقاييس»لابن فارس ، و« الصحاح » للجوهرى ، وهى أهم المعجمات الأولى التى وصلت إلينا ، وعنها تصدر وعليها نعوّل ، ومنها استمدت المعجمات التالية . ومعجماتنا العربية غزيرة المادة ، وذات قيمة تاريخية أكيدة ، إلا أنها لم تسلم من عيوب مشتركة ، فتخطىء فى ضبط الكلمات ، وتسرف فى سرد المفردات ، وفى تبويبها عسر ، وفى تعريفاتها غموض ، وفى معلوماتها خلط ، لا سيما إذا عرضت للتاريخ والجغرافيا ، أو للعلم والفلسفة ، ولابد من تطويرها ، وتصحيح أخطائها ، وتدارك نقصها .

وقد تطور فن التأليف المعجمى على مر الزمن ، وجوّد وأحكم ، وبلغ قمته فى القرن التاسع عشر الذى ظهر فيه بعض المعجمات الأوربية الكبرى ، «كلاروس» فى الفرنسية ، و«أكسفورد» و«وبستر» فى الإنجليزية . ويقوم هذا الفن الآن على دعائم أهمها : عناية فائقة بالوضوح والتبويب ، وأخذ بالمنهج التاريخى ، وحرص على الطابع الموسوعى . والوضوح والترتيب أهم هذه الدعائم ، فتكتب المعاجم بلغة سهلة واضحة ، وتشرح التعاريف بعبارات دقيقة جلية . أما جودة الترتيب والتبويب فهى خير عون لمن يرجع إلى المعجم ويحاول الاستعانة به ، وأسهل سبل التبويب أن ترتب الكلمات على حسب نطقها ، لا على حسب تصريفها . وقد مر تبويب المعجم العربى بصور معقدة وغامضة ، وآن الأوان لتيسيرها وتهذيبها . والألفاظ والأساليب ، كالأشياء

لها تاريخ يمكن تتبعه ، فيبين كيف تدرج مدلولها وتبدل استعمالها ، ومن هنا نشأت فكرة المعاجم التاريخية ، وعلى رأسها « معجم أكسفورد » . ولا يقف المعجم عند المادة اللغوية ، بل يضيف إليها معلومات فى التاريخ والجغرافيا ، والعلم والفلسفة ، وأغلب الظن أن هذا الطابع الموسوعى ثمرة من ثمار دوائر المعارف التى انتشرت منذ القرن الماضى :

نص مرسوم إنشاء المجمع على أن من أهم أغراضه «أن يقوم بوضع معجم تاريخى للغة العربية» وقد أخذ المجمعيون أنفسهم بذلك ، وكونوا منذ الدورة الأولى من كبار لغويهم العرب والمستعربين « لجنة المعجم » : وبدأت هذه اللجنة فعلا فى رسم منهج المعجم ، وتحديد وسائل التنفيذ . وشاءت الأقدار أن يكون بين أعضاء المجمع المستشرق الألمانى فيشر ، الذى سبق له أن عنى عناية خاصة بالمعجمات العربية منذ أخريات القرن الماضى ، وكان يعتزم أن يخرج معجما تاريخيا ، على غرار معجم أكسفورد فى الغالب . ورحب المجمع بذلك ، وتعاقد معه على إخراج معجمه تحت كنفه فى ست سنوات أو سبع . جاءت الحرب العالمية الثانية ، فوقفت حجر عثرة فى سبيل ذلك ، ولم يعمر فيشر بعدها طويلا ، وضاعت جزازاته بين مصر وألمانيا ، ولم يبق لدينا منها إلا قدر ضئيل.

واتخذ المجمع فى شأن التأليف المعجمى وجهة أخرى ، فشغل أولا « بالمعجم الوسيط » الذى قضى فى إعداده نحو عشرين عاما ، وأخرج طبعته الأولى عام ١٩٦٠ : وقد عبر عن اللغة العربية فى قديمها وحديثها ، فَعَوَّل على المعاجم القديمة ، وأخذ بما استقر من ألفاظ الحياة العامة المعاصرة ، وأعطى قدرا غير قليل من المصطلحات العلمية الشائعة ، وشدد فى هجر الحوشى والغريب ، وأقر كثيرا من الألفاظ المولدة والمعربة الحديثة ، وسلك فى التبويب مسلكا سهلا يقوم على الترتيب الهجائى مع حصر كل مادة لغوية فى بابها . كتب بلغة العصر وروحه ، أفاد من فن التأليف المعجمى الحديث . ولم تكد تمضى إحدى عشرة سنة على ظهور الطبعة الأولى ، حتى أخرجت الطبعة الثانية عام ١٩٧٢ بعد تهذيب وتنقيح : ويعد المجمع العدة لإخراج الطبعة الثالثة ، سالكا فيها ما سلكه فى الطبعة السابقة من الإضافة والتعديل :

وإلى جانب « المعجم الوسيط » حرص المجمع على أن يخرج معجما آخر يستوعب اللغة فى مختلف عصورها ، وسماه « المعجم الكبير » تفاديا لما يقتضيه المعجم التاريخى من أعمال تمهيدية لم تستكمل بعد . وهو عمل طويل النفس لا يقاس بالشهور ولا بالسنين ، وقد أخرج المجمع جزأه الأول عام ١٩٧٠ ، وينصب على حرف « الهمزة » وحده ، وقدم للمطبعة أخيراً الجزء الثانى الذى لم يتجاوز حرف الباء وهو ، كما قيل ، « خزانة العربية ، وجامع لأشتاتها ، ومعرض لألوان كثيرة من معارفها وثقافتها» . حرص على ذكر الأصول السامية ، لكى يربط العربية بأخواتها ، وبين المعانى الكلية لكل مادة ، مستأنسا بابن فارس فى « مقاييسه » ، أو مكملا له . واستشهد بالشعر والنثر فى مختلف العصور معتمدا ما أمكن على المصادر الأصلية ، ومرتبا للشواهد ترتيبا

زمنيا ، واستشهد من الحديث بالكتب الستة ومسند أحمد لا غير وتوسع فى المصطلحات العلمية إيرادا وشرحا ، بالقدر الذى يتناسب مع معجم كبير ، ويعرض بهذا طائفة من المعارف الإنسانية فى دقة ووضوح ، ومن أخص خصائص المعجم الحديث طابعه الموسوعى . وكان لابد له أن يقف عند بعض أعلام الأشخاص والأماكن ، وبخاصة لما له صلة بالثقافة والأدب العربى ، وإن حرمت الأكاديمية الفرنسية ذلك على نفسها فى معجمها ، ولا يعد معجمنا مع هذا معجم أعلام بحال . أما الترتيب والتبويب فقد ضبطهما وأحكمهما ، على نحو ما سار عليه « المعجم الوسيط » ، بالرغم من غزارة المادة وكثرة الفروع والمشتقات .

و « معجم ألفاظ القرآن » من أعمال المجمع الخالدة ، وهو أقرب إلى المعاجم اللغوية . أريد به أن يقف عند الدلالة اللغوية وحدها ، فلم يدخل فى تأويلات المفسرين ، ولا خلافات الفقهاء والمتكلمين . ولم يعرض للأصول الأجنبية ، ولا لما جاء فى الكتب المقدسة ، ولا لتحقيق الأعلام التاريخية والجغرافية ، وبعد كل البعد عن الإسرائيليات والأقاصيص القديمة . يعرض المدلولات اللغوية المختلفة للألفاظ القرآنية ، يشرحها شرحا كافيا ، ويربط كل مدلول بالآيات التى تتصل به ، فهو أشبه ما يكون بمعجم مفهرس ييسر الأمر والفهم على الباحث والدارس ، وقد صادف رواجا ملحوظا ، ولا أدل على هذا من أنه أعيد طبعه حتى الآن مرتين ، وإن حرم تماما من وسائل الإعلام والدعاية ، وفى الطريق إلى القراء طبعة ثالثة .

وفى ختام هذه السلسلة نشير إلى « المعجم الوجيز » الذى فرغنا منه أخيرا ، ويتم — كما يبدو — سلسلة التدرج المنطقى للمعجمات اللغوية : وجيز ، ووسيط ، وكبير : وتأمل أن يحقق الهدف الذى صوب إليه المعجم الوسيط من قبل ، وإن كان قد جاوزه وسما عليه ، وأريد به فعلا أن يكون مدرسيا حقا ، يلائم أبناء المدارس الإعدادية والثانوية ، فحددت مادته ، ورتبت فى وضوح ، وشرحت فى يسر . وبهذا يستطيع أن يقدم للتلاميذ لغة هينة لينة ، تكشف عن معنى ما يتداولونه بينهم من ألفاظ وعبارات فى قراءتهم وكتابتهم وحديثهم . ويخيل إلينا أن تلميذ المدرسة الثانوية لن يستغنى عن هذا المعجم ، فضلا عن القارئ العادى ، ومن يدرى فقد يضم يوما إلى قائمة الكتب المدرسية التى ينبغى أن تتوفر لتلميذ المدرسة الثانوية .

٣ — لغة العلم :

لغة خاصة ، وأهلها أحق الناس بها ، لأنهم أقدر على تذوقها ، والحكم على مدى صدقها فى أداء المعنى الذى وضعت له . اللهم إلا إن كانوا غير متمكنين من علمهم ، أو غير ملمين إلماما دقيقا بلغتهم الوطنية ، أو كانوا مولعين بالمخالفة والتغيير لمجرد التغيير . وقد بليت لغة العلم على مر التاريخ بعيوب ومفارقات ترجع إلى ذلك ، ولكن الزمن يصلح ما أفسد ، ولكم من مصطلحات ماتت ولم يعمر منها إلا ما قبله الرأى العام العلمى واطمأن إليه . وقيمة لغة العلم فى استعمالها وأخذ الناس بها ،

وحياة المصطلح فى شيوعه وتوحيده ، وإن لم يقبله أهله ؛ فمن العسير أن يقبله الآخرون وتحيا اللغة العلمية كلها بحياة العلم نفسه . وحيث لا علم لا سبيل إلى التحدث عن لغة علمية .

وحظيت العربية قديما بعلم ، وعلم أصيل ، أخذت وأعطت ، وكان لعلمها شأن فى النهضة الأوربية الحديثة . ولم يبق اليوم محل لإنكار ذلك . ولهذا العلم لغته ومصطلحاته ، وقد عول واضعوها على النقل والاشتقاق ولم يبالوا بأن يكون المصطلح عربيا أصيلا ، أو معربا دخيلا ، وربما آثروا المعرب إن كان أدخل فى المعنى وأكمل فى الأداء . وما إن حل القرن الرابع الهجرى حتى اكتملت لغة العلوم الإسلامية ، واستقرت مصطلحاتها ، وتداولها فى العالم الإسلامى جميعه . ويوم أن ركد البحث العلمى فى العالم العربى ، ركدت لغته معه ، ثم جاءت النهضة العربية الحديثة فى القرن الماضى ، فحاولت فى شىء من التردد والتلكؤ أن تستعيد مجدها ، وأن تحيى علومها . وقد نشطت الحركة العلمية فى القرن العشرين ، وأخذت تكون من جديد لغتها ، مستعينة بالدراسات الجامعية ، والمجامع اللغوية ، والهيئات العلمية بوجه عام .

ولمجمع القاهرة إسهام ملحوظ فى تحرير لغة العلم المعاصرة ، وضبطها ونشرها وتوحيدها ، ولا يباريه فى هذا هيئة علمية أخرى . كوّن منذ نشأته لجانا علمية متخصصة ، تعنى بلغة العلم ، وتقول كلمتها فيها . وقد رسم لها المنهج وحدد الهدف ، وبالتطبيق المستمر طوال السنين ازداد هذا المنهج دقة ووضوحا . ونمت هذه اللجان على مر الزمن ، وأصبحت اليوم نحو عشرين لجنة ، لكل مادة لجنتها المتخصصة ، وتتكون من أعضاء المجمع وخبرائه ومحرريه . ومن الخطأ أن يظن أن لجان المجمع تنشئ المصطلح العلمى إنشاء ، وتبتكره ابتكارا ، وبالعكس يقوم عملها أساسا على تسجيل ما شاع منه واستقر ، ولا يصبح المصطلح نهائيا إلا يوم أن يقره مجلس المجمع ومؤتمره . وفى هذه المصطلحات ما يعين دون نزاع على حل مشكلة تعريب التعليم العالى والجامعى الذى أصبح الشغل الشاغل . ولدى المجمع ذخيرة كبيرة من هذه المصطلحات ينشرها فى مجموعات متلاحقة عاما بعد عام ، أو فى معجمات متخصصة . وقد توفر له حتى الآن اثنان وعشرون مجموعة من مجموعات المصطلحات ، ووضع معجمات متخصصة فى الجيولوجيا ، والطبيعة النووية ، والجغرافيا ، والفلسفة ، ومن مجموعات مصطلحاته ما يشتمل على نحو عشر آلاف مصطلح ، وفى كل معجم أيضا عدة آلاف ، وقيد البحث الآن معجمات أخرى يرجى أن تأخذ طريقها قريبا إلى النشر . ويسعد المجمع ما يلحظه من إقبال الباحثين والدارسين على ما يقره من مصطلحات ، ففى ذلك نشر لها ووسيلة ناجعة لتوحيد المصطلح العلمى . ولا نغلو إن قلنا إن معظم ما ظهر من معجمات علمية فى ربع القرن الأخير يعول على المصطلح المجمعى ، ويشير إلى ذلك أحيانا .

وقد عنى المجمع بتوحيد المصطلح العلمى منذ البداية ، فلوحظ فى تكوينه أن يشتمل على أعضاء عرب ومستعربين إلى جانب أعضائه المصريين ، رغبة فى أن يكون القرار جماعيا ، وأن تكون الموافقة تامة : وحرص على أن ينشر ما يقره من مصطلحات فى مجلته ، قبل أن يقف عليها بمجموعات خاصة . وكان يرحب دائما بكل ما يوجه إليها من ملاحظات ، ولا يتردد فى أن يعيد النظر فيها ، وأن يبحثها ويدرسها : وربما أدى تعدد الخبراء واللجان إلى شىء من الخلاف والفرقة ، ولكن مجلس المجمع ومؤتمره يحرصان على أن يلتقى المختصون عند مصطلح واحد . وأصبح من المبادئ المقررة ألا يؤدى المصطلح الأجنبى إلا بلفظ عربى واحد .

وسعيا وراء هذا التوحيد كونت المجامع اللغوية أخيرا اتحادا لها ، ومن أهم أهدافه توحيد المصطلح العلمى فى العالم العربى بأسره : وقد عقد هذا الاتحاد فى بعض العواصم العربية لقاءات عرض فيها لطائفة من المصطلحات القانونية والنفطية ، وعالج بعض القضايا اللغوية . وهو حريص الحرص كله على أن يتعاون مع كل الهيئات التى تعنى بتوحيد المصطلح العلمى .

وللمستحدثات الحضارة والحياة العامة لغة خاصة بها وألفاظ تدل عليها ، والفرقة فيها بين الأقطار العربية واضحة ، وما أحوجها إلى الضبط والتجديد . وما أشبهها بلغة العلم فى تجددها وتنوعها ، وما دام المدلول واحدا ، فمن الأولى أن يتحدد الدال عليه فى العالم العربى بأسره ؛ وقد عنى المجمع بألفاظ الحياة العامة منذ عهد مبكر ، فجند جنودا لجمعها فى مظانها ، من السوق والحانوت ، من المصنع والمتجر . ورأى فى هذا الجمع مفتاحا لدرس اللغة الدارجة ، وبينها وبين الفصحى وشائج لا تنكر ، هذا إلى أنه يعين على توحيد المصطلح الحضارى فى القرية والمدينة . وكون لألفاظ الحضارة لجنة تعمل منذ سنين . فتتابع لغة السينما والمسرح والإذاعة والتليفزيون ، معولة فى ذلك كله على أهل الصنعة وما شاع لديهم من استعمال . وتوفر لها بذلك مادة جديرة بأن تنشر فى معجم خاص . على أن المجمع يتريث ما وسعه فى شأن ألفاظ الحياة العامة ، فلا يقبل منها إلا ما استقر استقرارا ملحوظا ، وشاع شيوعا ظاهرا . وهو يدرك ما للإلف والعادة من شأن فى هذه الألفاظ ، ويقدر ما فيها من فرقة فى استعمال البلاد العربية المختلفة ، ويجتهد فى التوفيق والتقريب ، ويأخذ دائما بالاستعمال الغالب . ويعتقد أن الصحافة والإذاعة المسموعة والمرئية ونشر التعليم ستضيق مسافة الخلف فى هذا الباب لا محالة .

٤ ـ احياء التراث :

للحضارة الإسلامية تراث واسع عريض ، فقد امتد الإسلام إلى قارات العالم القديم الثلاث : آسيا ، وأفريقيا ، وأوربا . وبعث حركة ثقافية نشيطة ودائبة ، كتبت بعدة لغات : عربية ، وعبرية ، وسوريانية ، أو فارسية ، وتركية ، وأوردية . ويعنينا بوجه خاص أن نقف عند التراث الثقافى العربى ، وهو دون نزاع أفسح أفقاً ، وأشد أثراً ، وأعظم ثراء . ولا غرابة

فهو ثمرة جهود بلاد كثيرة ، ووليد أربعة عشر قرناً . تعددت ألوانه ، وتنوعت أبوابه ، فيه شرعيات ، ولغويات ، وأدب وتاريخ ، وعلم وفلسفة . وتحت كل شعبة من هذه أقسام وفروع ، وضعت فيها كتب مختلفة ، مختصرة ومطولة ، متون وشروح . وهذا التراث باختصار من أغنى أنواع التراث الإنساني . وقد طغى عليه الزمن طغيانه على ثقافات أخرى ، فقضت الحرائق والحروب على قسط كبير منه ، وبخاصة غزو التتار الذى أهلك الحرث والنسل ، ومع هذا احتفظ الزمن لنا منه بنصيب ملحوظ تعمر به المكتبات العامة والخاصة فى العالم القديم والحديث . ويتنافس المتنافسون اليوم فى إحيائه ، بجمعه وتحقيقه ونشره .

ولم يفت مجمع القاهرة أن يسهم فى هذا المضمار ، لاسيما وقد نص مرسوم إنشائه على أن من واجبه أن «ينشر على الطريقة العلمية من النصوص القديمة ما يراه لازماً لأعمال المجامع وفقه اللغة» . وقد التزم بهذا ، وإن عز عليه فى البداية تدبير الموارد اللازمة له . فأنشأ فى دورته السابعة «لجنة إحياء التراث» التى سارت على الدرب دون تردد ، فأوصت بنشر كتب لغوية وأدبية ، منها : « سر صناعة الإعراب » لابن جنى ، و « أنيس الجليس » لابن المعافى ، و « كتاب التهذيب » للأزهرى ، وحال نقص الموارد المالية دونها وماتريد ، وأصبح المجمع أشبه ما يكون بهيئة استشارية تقترح النصوص ، تاركة لغيرها التحقيق والنشر . ولكنه استطاع فى السنوات العشر الأخيرة أن يحصل على اعتمادات لإحياء التراث ، ووقوفاً عند رسالته الأساسية ، اتجه أولا نحو كتب اللغة ، وخطا فى نشرها خطوات ملحوظة . فأخرج :

(١) «كتاب التكملة والذيل» للصاغانى من رجال القرن السادس الهجرى وهو معجم غزير المادة يقع فى ستة أجزاء .

(٢) كتاب « ديوان الأدب » للفارابى من رجال القرن الرابع ، وهو دون سابقه حجماً ، ويقع فى أربعة أجزاء .

(٣) و « كتاب الجيم » للشيبانى من رجال القرن الثانى ، وهو من أقدم المعاجم العربية ويقع فى ثلاثة أجزاء .

(٤) « كتاب الأفعال للسرقسطى » من رجال القرن الرابع ، وهو فى مقدمة كتب الأفعال فى العربية .

وسبق للمجمع أن نشر كتاب « عجالة المبتدى وفضالة المنتهى » لأبى بكر الخوارزمى من رجال القرن السادس ، وقد قام بتحقيقه الزميل الأستاذ عبد الله كنون . ولست فى حاجة أن أشير إلى أن كتب التراث هذه لها سوق رائجة فى العالم العربى بأسره . وفى وسعنا أن نقول إنه أصبح للمجمع اليوم مكتبة خاصة ، وعامرة بما أخرج من إعداد مجلته ، ومحاضر جلساته ،

ومجموعات مصطلحاته ، هذا إلى ما ألف من معجمات لغوية بين وجيز ، ووسيط ، وكبير ، ومعجم ألفاظ القرآن ، وما أخرج من معجمات علمية متخصصة وقد نفد قدر من هذه المطبوعات ولن نألوا جهداً فى إعادة طبع ماتدعو إليه الحاجة .

٥ ــ تشجيع الانتاج الأدبى :

سبق أن أشرنا إلى أن الجوائز الأدبية باب هام من أبواب نشاط الأكاديمية الفرنسية . ولم يأخذ بها مجمع القاهرة إلا بعد مضى عشر سنوات على إنشائه ، وعول فيها أولا على أريحية بعض الأفراد وتبرعاتهم ، ثم التزمت بها الدولة ، ورصدت لها فى ميزانية المجمع السنوية مبلغاً تراوح بين النقص والزيادة . ولا يزال حتى اليوم رمزياً ، وما أحوجه إلى التعزيز ، لاسيما بعد أن استحدثت الدولة جوائز أخرى أسخى عطاء . وبرغم هذا أقبل على جوائز المجمع اللغويون والأدباء من كُتّاب ، وشعراء ، وقصاصين ، وهم ولا شك يصوبون جميعاً إلى قيمتها المعنوية . وفتح بابها لأبناء مصر وغيرهم ، وفاز بها نفر ممن بلغوا القمة فيما بعد ، ويمكن أن نشير منهم بين الكتاب إلى شوقى ضيف ، وسهير القلماوى ، وعائشة عبد الرحمن ، وبين الشعراء إلى محمود حسن إسماعيل ، محمود غنيم ، ومحمد الأسمر ، وبين القصاصين إلى نجيب محفوظ ، وسعيد العريان ، وجاذبية صدقى .

وقد درج المجمع على أن يعلن كل عام عن موضوع تنصب عليه المنافسة ، وكم تعددت هذه الموضوعات وتنوعت ، ففيها تراث ولغة ، وشعر ونثر ، وقصص وترجمات شخصية . ونشر قدر غير قليل مما حظى بالجائزة ، ولا يزال تحت يد المجمع منها ذخيرة نرجو أن ترى النور قريباً .

ولم يقف المجمع عند الجوائز المادية ، بل استحدث ما سماه التتويج الأدبى ، سنة أستنها وأخذ بها ، وهى تنصب على الإنتاج لا على المنتج . فتوج لأول مرة شعر خليل مطران ، وتوج بعده قصص تيمور ، وتوج عام ١٩٥١ شعر الكاظمى ، ووقف عند هذا ، ولا أدرى لماذا ، ولعل من الخير أن يستعيد سنته ، وبخاصة نحو من أتموا المطاف من شعراء العالم العربى وأدبائه .

هذا هو مجمع القاهرة فى عامه التاسع والأربعين ، من تاريخ إنشائه ، ونحن نعد العدة للاحتفال بعيده الذهبى .

الفصل الخامس

٥ — مجمع بغداد

ثالث المجامع اللغوية العربية إنشاء ، أخذ عن سابقيه ما أخذ ، وإن كان إلى مجمع دمشق أقرب ؛ جاراه شكلا وموضوعاً ، فسمى باسمه ، قصر عضويته العاملة على العراقيين ، واختصر عدد أعضائه فى البداية اختصاراً ملحوظاً . وانصب نشاطه على أبواب شبيهة بتلك التى عرفت فى مجمع دمشق ، فعنى بالتحقيق والنشر ، وإحياء التراث القديم ، ولم يقف إحياؤه عند جانب معين من جوانب الثقافة العربية ، ودعا إلى محاضرات عامة لم تقتصر على أدباء العراق ومفكريه ، بل أفسحت صدرها لبعض الأجانب من عرب ومستعربين . ولم يغفل الترجمة عن بعض اللغات الحية ، فشجع عليها ، وأسهم فى نشر بعض الترجمات النافعة ، وربما فاق فى هذا المجمعين السابقين . ولا غرابة ، فهو وريث لجنة أنشأتها وزارة المعارف العراقية قبله بعامين وهى « لجنة التأليف والنشر والترجمة » ، وما أشبهها بلجنة أخرى قاهرية تحمل الاسم نفسه ، وقد سبقتها بنحو ١٥ عاماً ، ولها شأنها فى حياة مصر الفكرية والثقافية فى نصف القرن الأخير . ولا يكاد يوجد فروق بين اللجنتين ، اللهم إلا أن العراقية أميرية ، والقاهرية قامت على جهود بعض الأدباء والمفكرين ، ولم تخضع قط لسلطان حكومى . ولم تعمر لجنة العراق طويلا ، وحل المجمع العلمى محلها .

وقد أنشىء هذا المجمع عام ١٩٤٧ ، وبدأ بعشرة أعضاء فقط ، ثم نما عددهم شيئاً فشيئاً على مر الزمن . وعقد أول جلسة فى فجر عام ١٩٤٨ ، ودرج على أن يعقد جلستين كل شهر ؛ وقام على أمره شيوخ كرام ، أذكر من بينهم ثلاثة كانوا همزة وصل بين مجمعى القاهرة وبغداد وهم المرحوم رضا الشبيبى ، والزميلان الفاضلان : الأستاذ محمد بهجة الأثرى والدكتور عبد الرزاق محيى الدين — ولم يأخذ المجمع العراقى ، فيما يظهر ، بما استنه مجمع القاهرة من تكوين لجان دائمة لمعالجة المشاكل اللغوية ، كلجنة الأصول ، ولجان المعجمات والمصطلحات العلمية المختلفة . واستطاع أعضاؤه أن يمدوه دون انقطاع ببحوثهم ومحاضراتهم التى كانت الغذاء الأول لمجلتهم . وكان فى البداية مجمع العراق الوحيد الذى يعنى أساساً بالعربية ولا يهمل السريانية ولا الكردية ، وعمل أعضاؤه متكاتفين ومتعاونين ، دون تحزب أو تعصب ؛

ولأمر ما أريد فى أول السبعينات أن يقسم هذا المجمع إلى فروع شبه مستقلة ، أكبرها المجمع العربى ، وإلى جانبه مجمعان آخران ، هما المجمع الكردى (١٩٧٠) والمجمع السريانى (١٩٧٢) ؛ ولكل مجمع نظمه واختصاصاته ، وتكوينه وأعضاؤه ، وإن اجتمعت كلها فى مكان واحد . وشاء الفرعان الجديدان أن يثبتا وجودهما ، فدعيا إلى لقاءات ، ونظما بعض المؤتمرات . فأقام المجمع

السرياني مهرجاناً باسم القديس أفرام (٣٧٩ م) وحنين بن إسحق (٨٧٣)، ولهذا الأخير شأن كبير في تاريخ الحركة العلمية والثقافية في الإسلام ثم روئي منذ عامين جمع الشمل مرة أخرى وضم هذه الفروع بعضها إلى بعض في مجمع عراقي موحد تمثل فيه اللغات الثلاث بنسب متفاوتة في عدد الأعضاء فكان للعربية نحو ثلثي الأعضاء ووزع الباقي بين الكردية والسريانية. وصلة العربية بهاتين اللغتين واضحة، ولا تزالان تعيشان إلى جانبها في العراق.

* * *

ونشاط المجمع العلمي العراقي متعدد ومتنوع، ويكاد يدور حول أبواب ثلاثة: محاضرات، مصطلحات، تحقيق ونشر. وكانت محاضراته خصبة وشاملة، وجهت الأنظار إليه واجتذبت نحوه جمهوراً خاصاً. ولا شك في أنها كانت في سني المجمع الأولى أبرز أبواب نشاطه. عرضت للفكر واللغة، وعالجت بعض قضايا العلم والفلسفة، وأمدت مجلة المجمع بغذاء متواصل ولكنها لم تلبث أن نفدت، وحل محلها ألوان أخرى من النشاط المجمعي.

وكان لابد لمجمع بغداد أن يعرض للغة العلم وألفاظ الحضارة، لأنه حريص على أن ينهض بالعربية، وأن يستكمل نقصاً ويسد حاجة. وكانت دور العلم ودواوين الحكومة تلجأ إليه، سائلة عن مقابل عربي للفظ أجنبي. وقد حاول أن ينقب في تراثنا اللغوي والحضاري باحثاً عن هذه المقابلات، وربما عثر على مقابلات لا تلائم العصر ولا تتفق مع روحه، وقد سبقه إلى ذلك مجمع القاهرة، ولكنه تبين أن هذا وحده لا يفي بما تتطلبه حياة القرن العشرين، وليس فيه ما ينقع الغلة. وفي حياتنا واستعمالاتنا من ألفاظ وعبارات ما يفرض نفسه، ولا ضير في أن نأخذ به ونسجله مادام لا يتعارض مع أصل من أصول اللغة. واجتهد المجمع العراقي ما وسعه في وضع مصطلحات في العلوم الإنسانية كعلم التربية، والتربية البدنية، أو في العلوم الطبيعية، كعلوم المياه، والكيمياء، والبتروليات، والطب والجراحة، واستعان بمجلته في نشر مايقره. واكتفى في مصطلحاته هذه، كما كان يصنع مجمع القاهرة قديماً، بتقديم قوائم لمصطلحات أجنبية، وبوجه خاص إنجليزية، مع مايقابلها من ألفاظ عربية — وقيمة المصطلح في تحديد مدلوله وشرح معناه وفي هذا التعريف ما يؤيده ويقربه من العامة والخاصة على السواء وما أجدر المجامع اللغوية جميعها أن تتبادل مصطلحاتها، رغبة في توحيد لغة العلم ونشرها. وإن اختلفت حول بعض المصطلحات، فسبيلها أن تواجه ذلك في لقاءاتها ومؤتمراتها، وتلك رسالة اتحاد المجامع الأولى، وإلا وقعنا في بلبلة ربما عز الخروج منها. ويستطيع مكتب تنسيق التعريب بالرباط أن يسهم في ذلك إسهاماً ملحوظاً إن وثق صلته بالمجامع اللغوية واتحادها.

ولمجمع بغداد إسهام واضح في مجال إحياء التراث ونشره، فتخير طائفة من المؤلفات الطويلة وأمهات الكتب، واضطلع بإخراجها. وقد بذل جهداً ملحوظاً في جمع المخطوطات

القيمة من الشرق والغرب ، وبعث البحوث للكشف عنها وطلبها ، وفي مكتبته قدر منها يحاول أن ينميه باطراد . ولم يتردد بعض شيوخه في أن يضطلعوا بعبء التحقيق ، وما أشقه ، فتولى الدكتور جواد علي أمر كتاب « تاريخ العرب قبل الإسلام » في أجزائه المتلاحقة . واضطلع الأستاذ محمد بهجة الأثري بكتاب « خريدة القصر وجريدة العصر » ، وما أطول نفسه في متابعته واستيفاء تحقيقه . وأفسح المجمع العراقي صدره لبعض المترجمات القيمة ، « كمقدمة الرياضيات » لهوايتهد الذي ترجمه محيي الدين يوسف ، « ومنازع الفكر الحديث » الذي ترجمه عباس فضلي ولم يقف عند نشر ما اضطلع أعضاؤه بتحقيقه ، بل ساعد على طبع مؤلفات أخرى قام بها باحثون آخرون ، « كاليزيدية » تأليف صديق الدملوجي ، والعلوم الطبيعية للدكتور نوري جعفر . وأعانه على ذلك أنه استطاع منذ عهد مبكر أن تكون له مطبعة خاصة ، وهذا ما لم يتيسر لمجامع أخرى .

ومجلته أصدق عنوان لعمله وإنتاجه ، سجلت فيها محاضراته ، ونشرت مصطلحاته ، وعرضت بحوثه ودراساته ، وختمت عادة بتقرير سنوي عن أعماله فيها لغة وأدب ، وعلم وفلسفة ، ونقد وتعليق . واكتفى منذ البداية بإخراجها مرة كل عام ، وما أشبهها بالحوليات ، وظهر منها حتى الآن نحو ٣٠ مجلداً .

واستكمالا لرسالته حاول المجمع العلمي العراقي ما وسعه أن يشجع على البحث والدرس فمنح جوائز للمبرزين والمجيدين ، وكان بين من حصلوا على جوائزه نفر ممن يعدون اليوم في مقدمة الباحثين والدارسين العراقيين .

الفصل السادس

٦ ــ مجمع عمــان

مهد له منذ زمن ، بإنشاء « لجنة التعريب والترجمة والنشر » بوزارة التربية والتعليم الأردنية عام ١٩٦١ . ويظهر أن فكرته كانت أسبق من ذلك بنحو ثلث قرن ، فقد فكر فيه عام ١٩٢٤ فى الوقت الذى كانت تعد فيه العدة لإنشاء مجمع القاهرة ، وقد أدت « لجنة التعريب » طوال ١٥ عاما ، وظيفة المجمع قبل قيامه ، فأسهمت بجد فى الجهود المبذولة لتطوير اللغة والنهوض بها ، وكانت على صلة بالمجامع القائمة . واضطلعت بعبء الإعداد لإنشاء المجمع الأردنى ، ورسم نظمه واقتراح مشروع قانونه . وفى عام ١٩٧٣ أرسلت منها وفود إلى دمشق ، والقاهرة ، وبغداد ، لدراسة نظم المجامع القائمة وأساليب العمل فيها . وكان من حظّى أن أستقبل وفد القاهرة وأن أضع تحت نظره قانون مجمعنا ولوائحه ، وصورة كاملة لما يجرى فيه ، وسعدنا بأن يشترك معنا فى جلسة من جلساتنا . وصلة مجمع القاهرة بالأردن قديمة ووثيقة ، فكان بين الرعيل الأول من أعضائه المرحوم قدرى طوقان ، وخلفه زميل كريم أفدنا من درسه وبحثه ، هو الدكتور ناصر الدين الأسد .

وفى عام ١٩٧٦ صدر القانون الخاص بإنشاء مجمع اللغة العربية الأردنى ، وكون فى البداية من خمسة أعضاء عدوا مؤسسين ، ثم نما العدد شيئا فشيئا على ألا يجاوز العشرين . وعقد المجمع أول جلسة له فى الشهر العاشر من العام نفسه . وهو يهدف ، مثل المجامع الأخرى ، إلى الحفاظ على سلامة اللغة ، والنهوض بها لكى تواكب متطلبات الآداب ، والعلوم ، والفنون الحديثة ، ويحرص على توحيد المصطلح العلمى والفنى ، وعلى إحياء التراث العربى والإسلامى . ويضطلع بتشجيع التأليف والترجمة والنشر ، ويدعو إلى ترجمة الروائع الأدبية والكتب العلمية ، ويتولى نشر ما استقامت ترجمته ودعت الحاجة إليه ، ويعقد المؤتمرات اللغوية فى الأردن وخارجها .

ولم يبدأ عمله بانتظام إلا فى منتصف عام ١٩٧٧ ، وقد رحبت به المجامع العربية ترحيبا حارا . ولم يتردد فى أن ينضم إلى اتحاد المجامع اللغوية العربية ، وقرر الاتحاد بدوره أن يعقد ندوته المقبلة فى كنفه وتحت رعايته . وفى عام ١٩٧٨ عقدت هذه الندوة التى دارت حول : « تعليم اللغة العربية فى ربع القرن الأخير» . وقد أسهم فيها باحثون كرام من المغرب وتونس ، من السودان

ومصر ، من الأردن ولبنان ، من سوريا والعراق ، من السعودية والكويت . وأمدوها ببحوث ممتعة وضافية ، تكشف عن الماضى ، وتعالج الحاضر ، وتعد للمستقبل .وقد انتهت إلى قرارات وتوصيات لها وزنها .

وعاون المجمع الأردنى فى هذه الندوة بصدق وسخاء ، ووفر لها وسائل الدرس والبحث فظهرت كراستها أخيرا ، وهى تشهد بما كان له فيها من نشاط وجهد . باكورة قيمة فعلا لمجمع شاب ، وهى تؤذن بمستقبل ملىء بالآمال . وجدير بنا أن ندع الآن هذا المجمع الشاب يسير فى طريقه متمنين له السداد والتوفيق ، ومن الملائم ألا نعرض لنشاطه قبل أن يمضى عليه عقد أو عقدان من السنين .

الفصل السابع

٧ ـ اتحاد المجامع العربية

فكرة نبتت منذ ربع قرن تقريبا ، فقد اتجه إليها المؤتمر الأول للمجامع اللغوية العلمية الذى عقد بدمشق تحت كنف الجامعة العربية ، عام ١٩٥٦ . وأوصى هذا المؤتمر ، فيما أوصى بتأسيس اتحاد لهذه المجامع ، وأقر مجلس الجامعة هذه التوصية فى العام نفسه ، وحدد معالمها ، ورسم سبل تنفيذها . ولكنها بقيت حبرا على ورق زمنا طويلا ، برغم عودة المجمعين إليها غير مرة ورغبتهم فيها .

ولم تخرج إلى حيز الوجود إلا عام ١٩٧٢ ، حين كوّن هذا الاتحاد ، ووضع نظامه الأساسى وقد تألف من المجامع الثلاثة القائمة ، وهى مجمع دمشق ، ومجمع القاهرة ، ومجمع بغداد . واتخذ مدينة القاهرة مقرا له . وفتح بابه لكل مجمع لغوى علمى تنشئه دولة عربية ، ويرغب فى الانضمام إليه . وحددت أهدافه بوضوح ، وأخصها تنظيم الاتصال بين المجامع اللغوية العلمية ، وتنسيق جهودها فى الأمور المتصلة باللغة العربية وتراثها ، ويهدف أيضا إلى توحيد المصطلحات العلمية والفنية وألفاظ الحضارة فى العالم العربى بأسره ، وييسر أمر نشرها ، ويدعو إلى استعمالها والأخذ بها .

* * *

وماإن تكوّن هذا الاتحاد ، حتى أخذ يؤدى رسالته . وحاول أن يقيم فى العواصم العربية الكبرى ندوات متلاحقة تعالج مشاكل لغتنا المعاصرة وترسم سُبُل حلها . وتشترك المجامع المؤسسة فى هذه الندوات وتعدّ لها ، ويدعى إليها بعض المختصين والمعنيين بأمرها ، وحرصت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم على متابعتها والإسهام فيها . ودرج الاتحاد على أن يضع لهذه الندوات ورقة عمل تحدد الهدف ، وتبين الغاية .

وأولها ندوة دمشق التى عقدت فى مايو عام ١٩٧٢ ، ودارت حول المصطلحات القانونية ، فعرض فيها قدر من مصطلحات القانون المدنى والتأمينات ، والقانون الإدارى والتجارى والبحرى . وأسهم فيها إلى جانب المجمعيين ، مايزيد على عشرين من رجال الفقه والقانون السوريين ، وانضم إليهم عدد من العراق والأردن ، ولبنان ومصر . وقضى هؤلاء جميعا بضعة أيام فى درس وبحث صباح مساء ، والتقوا فى أغلب ماعرض ، ولم تصل نسبة الخلاف إلى ٥ ٪ منه . وأخذ الاتحاد نفسه بأن يسجل محاضر هذه الجلسات ، وأن يخرج لكل ندوة كراسة توضح الموقف وتنوه بالقرارات .

وفى العام التالى (١٩٧٣) اتجه الاتحاد نحو بغداد ، لكى يعقد فيها ندوة حول المصطلحات البترولية . ولم يكن غريبا أن تربط المصطلحات النفطية بالعاصمة العراقية ، فللعراق سبق فى مواجهة الكشف عن النفط وتكريره وتصديره ، وهو فى مركز وسط بين البلاد البترولية الشرقية كالسعودية ، والكويت ، والإمارات العربية . على أن الاتحاد لم يقف عند هذه البلاد وحدها ، بل وجه الدعوة إلى المعنيين بالنفط فى البلاد العربية جميعها شرقا وغربا . وعمرت ندوته بجمع كبير منهم . درسوا وبحثوا ، وأقروا قدرا غير قليل مما عرض عليهم . وقد اشتملت كراسة العمل على نحو ١٠٠٠ مصطلح ، نصفها فى الجيولوجيا ، والنصف الآخر فى الكيمياء . ولم يدخل عليها تعديل يذكر ، وسجلت كلها فى الكراسة النهائية لهذه الندوة .

وعقدت الندوة الثالثة عام ٧٦ بالجزائر ، تقديرا لما بذلته خلال السنوات العشر السابقة من جهود متصلة فى سبيل نشر العربية ، وتثبيت أقدامها . ورأى الاتحاد أن يكون موضوع هذه الندوة : « تيسير تعليم اللغة العربية » ، آملا أن يكون فى ذلك إسهام فيما يضطلع به القطر الشقيق ، فيفتح آفاقا جديدة ، ويوجهه نحو تطبيقات وتجارب سابقة .

وقد أشارت الندوة فى وضوح إلى ما للبيت من شأن فى كسب اللغة وتعلمها ، إلى جانب ما تضطلع به المدرسة . وللقراءة شأن كبير فى تنمية الثروة اللغوية ، ودعت الندوة إلى العناية بمكتبة الطفل بوجه عام ، وإمدادها بما يتلاءم مع مراحل السن المختلفة ، ونوّهت بمكتبة الفصل خاصة ، وهى سُنَّة أخذت بها مدارس مختلفة فى الشرق والغرب ، وما أجدرنا أن نعممها ونلتزم بها .

ووقفت الندوة طويلا عند علم النحو ، وما ينبغى أن يقدم منه للناشئين . وقديما ظن خطأ أن الأجرومية هى السبيل الوحيد لتعلم اللغة ، وتَفَنَّن فيها المختصون إلى حد أنها أصبحت عبئا ثقيلا على الطلاب والدارسين . ونشأت عقدة النحو الذى أصبح شبحا يرهبه التلاميذ . وقد بدأنا منذ أوائل هذا القرن فى مطاردة هذا الشبح ، وتيسير تعليم النحو على الناشئين ، وخطونا فى ذلك خطوات ملحوظة :

وتمهيدا لهذه الندوة ، رأى الاتحاد أن يضع هذه المشكلة أمام المجامع الثلاثة ، وأدلى فيها كلٌّ بدلوه . وحرص أيضا على أن يسهم فى حلها القائمون على أمر تعليم اللغة العربية فى العالم العربى بأسره ، ولبى الدعوة منهم نفر كريم . وعقدت الندوة ست جلسات ، وعمرت بالدرس والبحث ، وانتهت إلى طائفة من القرارات والتوصيات وفصلت القول فى مشكلة النحو ، وقدمت فيها حلولا لانشك فى أنه سيفيد منها الدارسون والمربُّون .

وفى عام ١٩٧٦ أنشىء مجمع اللغة العربية الأردنى ، ورحبت به المجامع العربية الثلاثة . وفى عام ١٩٧٧ انضم إلى اتحاد المجامع اللغوية العلمية ، وقرر الاتحاد أن يعقد ندوته الرابعة فى كنفه وتحت رعايته .

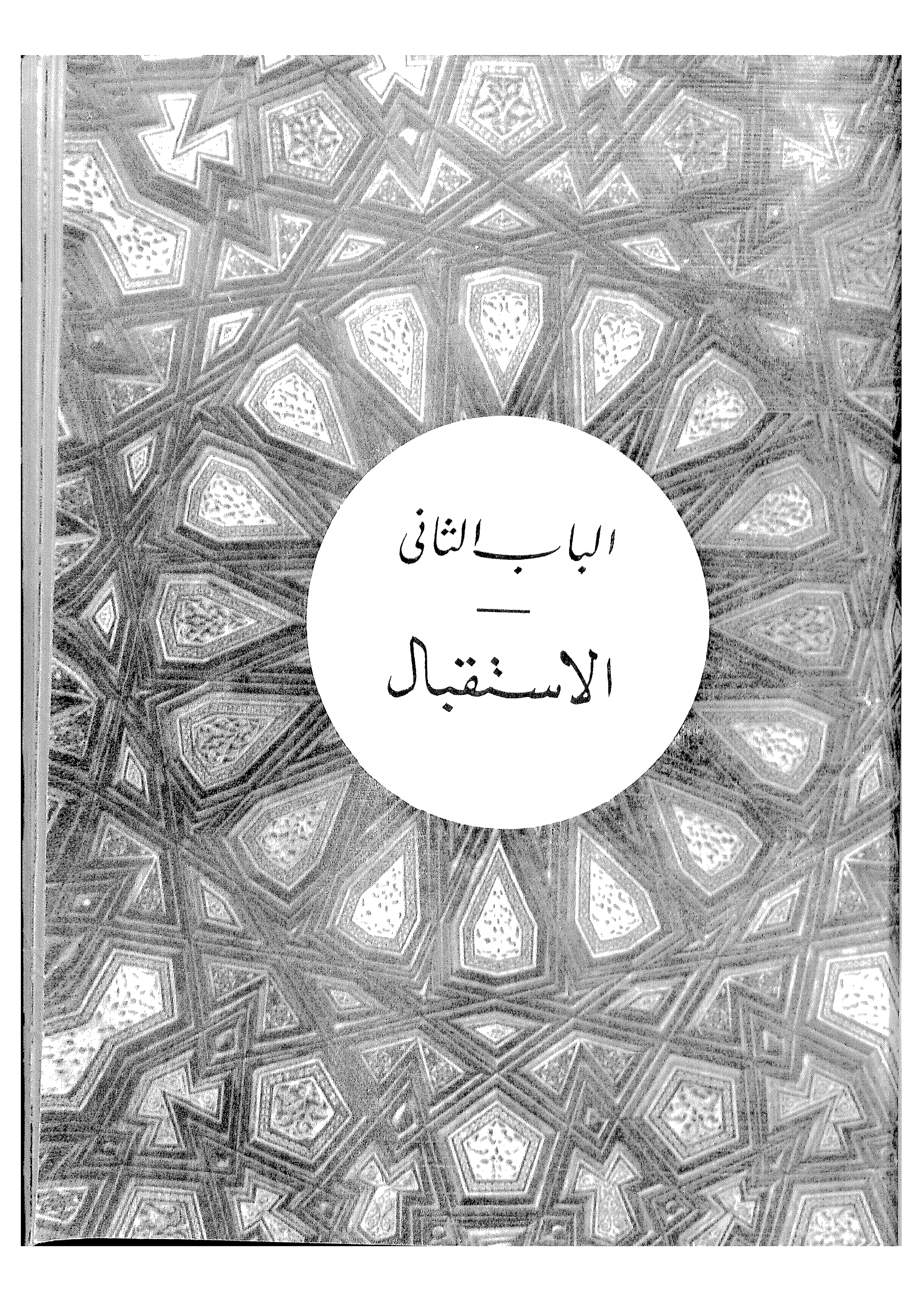
وفى عام ١٩٧٨ عقدت هذه الندوة، ودارت حول : « تعليم اللغة العربية فى ربع القرن الأخير »، وقد أسهم فيها باحثون كرام من المغرب وتونس، من السودان ومصر ، من الأردن ولبنان ، ومن سوريا والعراق ، من السعودية والكويت . وأمدّوها ببحوث ضافية تكشف عن الماضى ، وتعالج الحاضر وتعد للمستقبل ، وتقدم فى اختصار صورة كاملة للجهود التى بذلت فى تعليم العربية فى ربع القرن الأخير .

ومن هذه البحوث تغذت ندوتنا ، وفى ضوئها سارت ، فعالجت جوانب تعليم اللغة المختلفة من بيت ومدرسة، وكتاب ومعلم ، ودرس ومحاضرة ، وصحيفة ومجلة ، ومسرح وسينما ، وإذاعة وتليفزيون . وكشفت عما فى هذه الجوانب من نقص ، ورسمت سبل العلاج ، شخّصت الداء ووصفت له الدواء. وانتهت إلى توصيات شاملة، وليس الأمر فى الواقع مجرد اقتراحات وتوصيات، بل الأمر أمر عمل وتنفيذ ، وهذا مانرجوه من السادة القائمين على أمر التعليم فى عالمنا العربى .

وقد تفضل جلالة الملك الحسين ، فتوّج هذه الندوة برعايته ، وافتتحها بنفسه ، وأنعم على رؤساء المجامع الثلاثة الضيوف بوسام الاستقلال من الدرجة الأولى . وكل هذا إسهام وتقدير للجهود المبذولة فى خدمة اللغة ، وظهرت كراسة هذه الندوة شاهدة بذلك .

* * *

هذه نماذج من نشاط اتحاد المجامع العربية ، ولما يبلغ العاشرة من عمره . وقد توقف نشاطه بعض الشئ فى العامين الأخيرين ، وما أجدرنا ألا ندع السياسة تعدو على العلم والثقافة وكلنا رجاء أن يتابع الاتحاد سيره ، وأن يستعيد جهوده المثمرة . ورسالته ، ولاشك ، قيّمة ونافعة، ويحرص شيوخنا المجمعيون عليها حرصا أكيداً ، ويرغبون أن يؤدوها دائما فى صدق وأمانة .

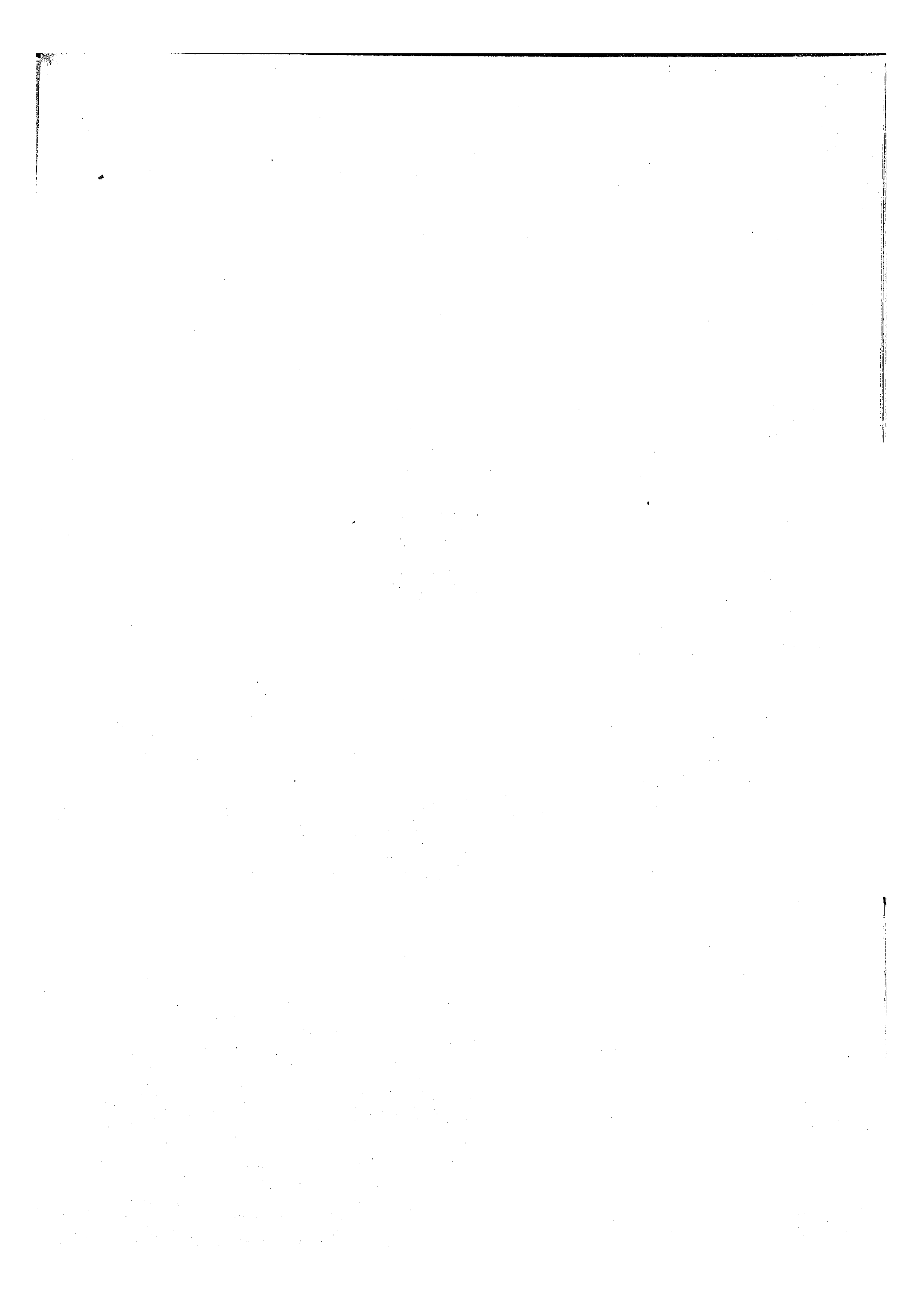


الباب الثانى

الاستقبال

الباب الثاني

الاستقبال



مقدمة

سُنَّة استنتها الأكاديمية الفرنسية منذ عدة قرون ، وأخذنا بها بعد أن مضى على قيام مجمعنا بضع سنوات ، وأصبحت تقليدا مستقرا نستمسك به ولا نخرج عليه ، سواء أكان المستقبلون أفراداً أم جماعات . فدرج المجمعيون على أن يستقبلوا زملاءهم الجدد ، فيعرّفون بهم ، ويكشفون عن علمهم وإنتاجهم . وعلى العضو المستقبل أن يتحدث بدوره عن العضو الذى حل محله ، فيحيى ذكراه ، وينوه بجهوده وعطائه داخل المجمع وخارجه .

وفى هذا الاستقبال درس وبحث ، وكشف عن مثل تحتذى ، وقيم إنسانية لها وزنها . وفيه أيضا تاريخ معاصر يسجل عن خبرة حقة ، وصلات مباشرة ، ونزاهة تامة ، وما أحوجنا إلى أمثال هذا التسجيل . وفيه أخيرا توجيه وإرشاد ، وبيان لمشكلات وصعاب قائمة ، لغوية كانت أو ثقافية ، ومحاولات جادة لحلها وتذليلها .

وقد قدر لى فى عشرتى الطويلة للخالدين ، أن أستقبل منهم عددا غير قليل . استقبلتهم جماعات ووحدانا ، باسم المجمع أو باسم رئيسه ، وسأقتصر هنا على من كلفنى المجمع باستقبالهم . ومما يؤسف له أن هذا الاستقبال يكاد يقف عند المجمعيين وحدهم ، مع أن جلسته علنية ، وبابها مفتوح للجميع ، ولا تعير وسائل الإعلام هذه الجلسات كل ما تستحق من عناية ، ونأمل أن يكون فى نشرها مايوجه الأنظار إليها .

الفصل الأول

١ ــ العشرة الطيبة

تكوّن مجمع القاهرة أول ما أنشئ من عشرين عضوا ، ثم أضيف إليهم عشرة آخرون عام ١٩٤٠ . ولم يكد يمضى على ذلك ست سنوات حتى رؤى زيادة العدد مرة أخرى ، فرفع عام ١٩٤٦ إلى أربعين عضوا كنت واحدا منهم ، وهم على حسب نص المرسوم الصادر بهم كما يلى :

١ ــ الدكتور عبد الرزاق أحمد السنهورى .

٢ ــ الدكتور إبراهيم بيومى مدكور .

٣ ــ الدكتور عبد الوهاب عزام .

٤ ــ الأستاذ زكى المهندس .

٥ ــ الدكتور أحمد زكى .

٦ ــ الشيخ محمود شلتوت .

٧ ــ الدكتور محمد شرف .

٨ ــ الدكتور مصطفى نظيف .

٩ ــ الأستاذ محمد فريد أبو حديد .

١٠ ــ الشيخ عبد الوهاب خلاف .

وتولى المرحوم أحمد أمين ، باسم المجمع ، استقبالهم ، وقد سماهم « العشرة الطيبة » . وأريد بى أن أتحدث باسمهم ، وأن أرد على كلمته الكريمة ، فقلت :

إن هذه المؤسسة التى يرعاها المجمعيون وليدة حاجة شعر بها العامة ، ولمسها الخاصة ، ومبعث أمل ترجيه مصر والشرق معها ، بل البلاد الإسلامية على اختلافها . وهى سبيل نهوض وتجديد يفتح على الناطقين بالضاد ألواناً من الألفاظ المستساغة والعبارات السليمة ، وييسر لهم وسائل التفاهم فى حياتهم العلمية والعملية وهى أيضا منار هداية يجمع الناس على اصطلاحات مشتركة ، ودوا متفق عليها ، وليس شئ أبعث على الاضطراب والبلبلة فى أمة من أن تختلف فيها الألسنة والأقلام : والمجمع أخيراً رمز خلود وأبدية ، فهو ليس ابن الأمس واليوم فحسب ، بل هو ملك الغد الدائم المستمر . يعمل فيه المجمعيون باسم الحاضر وتحت سلطانه ، ويحرصون أيضا على أن يلائموا بينه وبين الماضى ، ويحاولون أن يتخذوا منهما عدة للمستقبل .

ولقد قام الخالدون على مجمعهم هذا ثلاث عشرة سنة أو يزيد ، فى رعاية صادقة وحرص أكيد ، آمنوا برسالتهم إيمانا حازما ، فلم تقعد بهم عن السير هوجاء السياسة ولا أعاصير الحروب ، ولم يصرفهم عنها اعتراض ولا نقد غير نزيه . واستطاعوا فى هذه الفترة القصيرة أن يرسموا معالم عملهم، وأن يحددوا منهجه، ويذلوا كثيرا من صعابه . وأصبحوا ولهم تقاليد لا نملك إلا أن نأخذ بها ونسير عليها :

ويسعدنى أن أشكرهم الشكر كله باسمى واسم زملائى على تلك الكلمات الطيبة التى تفضل بها السيد الرئيس والأستاذ أحمد أمين . كلمات شرفنا بها ، وأسبغت علينا ما نرجو أن نكون أهلا له . ونقدر حقا حفاوتهم بنا ، وكرم استقبالهم لنا . وليس شئ أحب إلينا من أن نضع يدنا فى أيديهم ، وأن نحمل العبء معهم . وسنفيد لا محالة من درسهم وبحثهم . وقد غرسوا فى مجمعهم معانى كريمة أحرص على أن أنوه بها ، وأخصُّها أمور ثلاثة هى :

عمل فى صمت ، وتعاون صادق ، واعتدال وحكمة :

فأما صمتهم فقد ضربوا فيه مثلا لا يبارى ، وبدا وكأنه نغمة مريحة فى موسيقانا اليومية الملأى بالجلبة والضوضاء . يعملون فى هدوء ، وينتجون فى سكون ، وإنتاجهم الهادئ نسخة وحيدة فى جونا الذى أفسدته الدعاية والإعلان . ويملأ هذا الإنتاج محاضر وملفات لم تر النور بعد ، على ما فيها من درس عميق وبحث مستوف ، لم تتوافر لهم وسائل نشرها ، ولم تطب نفسهم للإعلان عنها . وكأن أجهزة الإعلام لا تراهم ولا تسمع عنهم ، وهى فيما يبدو لا تكاد تعنى بهم ؛ ولا يفل هذا من عزمهم فى شئ ، ويتابعون فى صمت عملهم الهادئ الرصين .

وأما تعاونهم فصادق وأكيد ، مبعثه شعور عميق بالواجب وتفان فى أدائه ، واتفاق تام عليه يتعاونون باسم العربية والنهوض بها ، ويتسابقون فى إحيائها ورفع شأنها . وكم بهرنا منظرهم فى مؤتمرهم وهم جلوس جنبا إلى جنب : المصرى إلى جانب العراقى ، والسورى يفسح للفرنسى ، والألمانى يؤازر الإنجليزى . صفاء وود ، وتشاور وتفاهم ، لا يباعد بينهم تعدد الوطن ، ولا يفرقهم اختلاف الدين ، وأنّى لهذه الاختلافات أن تجد سبيلها إلى تلك القيادات الفكرية والثقافية ، وأولئك العلماء الأعلام . وقد ربطتهم الفصحى برباط وثيق ، يعملون باسمها ، فيعقدون لحانا متعددة ، وتتشعب أبحاثهم ، وتتعارض آراؤهم ثم لا يلبثون أن يلتقوا عند رأى واحد وكلمة سواء . وليس ثمة شئ أعون على عظائم الأمور من التعاون الصادق والتضافر الأكيد :

وأما حكمتهم فى آرائهم واعتدالهم فى قراراتهم فذلك واضح كل الوضوح ، يأبون الطفرة ، ويؤمنون بالتدرج ، لاسيما فى أمر يمس عامة الناس وجماهيرهم ، وليس شئ ألصق بهم من لغتهم : يعرفون للقديم قدره ، ويزنون الجديد بميزانه الصحيح ، ويقفون بين هذا وذاك وسطا :

فلا يطغى جديد هزيل على قديم حى سليم ، ولا يقف العتيق البالى فى سبيل النهوض والتجديد ، وما ذاك إلا لأنهم يؤمنون فعلا بأن اللغات فى حركة مستمرة وتطوّر دائم ، وواجبهم يقضى بأن يتعهدوا العربية لكي تتحرك فى اعتدال وتتطوّر فى أمان وطمأنينة .

* * *

والفيلولوجيا المقارنة تقرر حقا أن اللغات جميعها تخضع لقانون السير والحركة ، والتغير والتبدل ، شأنها فى ذلك شأن الظواهر الاجتماعية المختلفة ، وتاريخ اللغات خير شاهد على ذلك . فاليونانية مثلا بدأت ، أول ما بدأت ، فى صورة لهجات متعددة ورطانات متباينة . ثم تصارعت هذه اللهجات فيما بينها ، وتولدت عنها اللغة اليونانية الغزيرة المادة ، السهلة التراكيب ، الواضحة النطق . وقد بلغت هذه اللهجات أوجها فى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد ، وهذا هو العصر الذهبي للأدب اليونانى . وفيه ظهرت تراجيديا سوفوكل ، وكوميديا أرسطوفان ، وفلسفة أفلاطون وأرسطو . ثم أخذت اليونانية تضعف شيئا فشيئا ، وأخذت تطغى عليها اللاتينية ، واقتصر تعلمها فى القرون الوسطى على بعض الخاصة ، كما هو الشأن اليوم . ولم تبعث من مرقدها إلا فى بلاد اليونان حديثا ، على أن يونانيتهم تختلف عن اليونانية الكلاسيكية ، وهى يونانية تلائم عصرها وبيئتها .

ولم تصل العربية إلى ما وصلت إليه فى عصر المعلقات من غزل امرئ القيس ، وحماس مهلهل وفخر ابن كلثوم ، إلا بعد أن مرت بأدوار ومراحل إعداد وتكوين طويل . ثم جاء الإسلام فهذب حواشيها ، وصقل ألفاظها ، ورقق عباراتها . واستمرت تنمو وتغزر لفظا ومعنى ، وتقوى وتزدهر فى عهد الدولة الأموية والصدر العباسى ، وبلغت الذروة شعرا ونثرا ، خطابة وكتابة ، حوارا وحديثا . ولكن الزمن يهدم ما بنى ، ومنذ القرن السادس الهجرى أخذت اللغة بل الثقافة العربية كلها تنحدر وتتضاءل . فدخل اللغة الغريب والفاسد ، وجمدت ألفاظها ، وتعقدت تراكيبها ، وسرت فى تعبيراتها صنعة بغيضة وعقيمة ، من سجع وجناس ، وترادف وتكرار وركدت الحركات الفكرية يوم أن ركد القائمون عليها ، ويوم أن يركد الفكر تركد اللغة معه . وفى أوائل القرن الماضى بدت بواكير وعى ويقظة فى التفكير والتعبير ، وأخذت العربية تنهض مرة أخرى بنهوض المتخاطبين بها . وأصبحنا فى القرن العشرين نباهى بنثر لا يقل عن نثر الجاحظ ، وشعر يسمو إلى مرتبة شعر البحترى والمتنبى ، وتستأنف العربية حياة جديدة لها خصائصها ومميزاتها .

والفرنسية لغة الوضوح والدقة وليست فى أصلها إلا ضربا من اللاتينية الدارجة ، وقد اختلطت بعناصر جرمانية ، وتأثرت ببيئة وظروف خاصة ، ثم أخذت تنمو وتتكوّن على مر الزمن . ومضت القرون العشرة الأولى للميلاد فى مرحلة هذه النشأة . وكان لابد أن ننتظر إلى القرن الحادى عشر لنرى الفرنسية القديمة فى مميزاتها وخصائصها . وكأنما كانت تنمو بنمو الأمة الفرنسية نفسها وعظمة مجدها ، وقد وصلت إلى قمتها فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، حين ظهر كبار

الفلاسفة والكتاب والشعراء ، أمثال ديكارت وراسين ، وروسو وڤولتير . وفى القرن التاسع عشر ظهرت فى الفرنسية ألوان جديدة من النظم والنثر ، ومذاهب مستحدثة فى الأدب ، كالرومنسية ، والرمزية . ولاتزال تسير فى طريقها إلى اليوم ، بين تنوع وتجدد ، وتحول وتغير .

* * *

وضحت أمامنا إذن حركة اللغات فى قوتها وضعفها ، فى سرعتها وبطئها . ويحق لنا أن نتساءل هل لهذه الحركة أهداف ترمى إليها ، وإن كانت فما هى ؟ يزعم بعض اللغويين أن للغات فى تطورها هدفا أسمى تنشده ، ومثلا أعلى تسعى إليه ، وهذا المثل هو غاية الغايات . فلكل لغة مثلها الأعلى ، وهو الذى ينبغى أن يحاكى ويحتذى ، بل هو اللغة بمعناها الكامل . ويتحقق دائما فى عصور الازدهار وحدها ، فليس ثمة لغة يونانية إلا تلك التى جرت على لسان أفلاطون وأرسطوفان ولا عربية إلا تلك التى عرفت فى الجاهلية والإسلام حتى صدر الدولة العباسية ، وهى لغة الاستشهاد كما يقولون . وليس ثمة فرنسية إلا تلك التى أنتجها القرنان السابع عشر والثامن عشر ، وعلى الخلق أن يحاكوا السلف فيما قالوا به ، ولا يملكون أن يخرجوا عليه . وعلى هذا إن لم يراع العربى ابن القرن العشرين ، أوصاف طرفة وتشبيهات بشار بن برد ، فليس بفصيح .

تلك قضية سادت فى أخريات القرن الماضى ، وأوائل هذا القرن ، واستمسك بها كثيرون من لغويينا وأدبائنا . ولكن ظهر اليوم زيفها ، واستبان للناس أنها تخلط بين اللغة والأدب ، واللغة شئ والأدب شئ آخر ، وقد يضعف الأدب ، وتبقى اللغة وسيلة للتعبير والتفاهم . وليس ثمة لغة مثالية يقدسها الناس ويستمسكون بها ، ويعدونها الكمال المطلق ، بل بالعكس أكمل اللغات أقدرها على محاكاة العصر والتمشى معه ، وأوفاها بالتعبير عن حاجات المجتمع ومتطلباته .

* * *

إن اللغات فى حركة مستمرة ، ومن العبث أن نعترض طريقها ، أو أن نفرض عليها قوالب جامدة لا تلبث أن تخرج عليها . ولا محل لأن نلزم الناس بلغة مثلى يجب أن يقفوا عندها وحدها واللغة الحية هى تلك التى تصدر عن روح العصر ، وتتمشى مع مطالبه . إنا نعيش فى عصر السرعة ، وأصبحنا لا نطيق الكلمات الطنانة الرنّانة ، ولا التكرار الممل .

ونعيش فى عصر الحرية ، ولا يلائمنا إلا الجلاء والوضوح .

هذا ما نريده للغتنا ، وهذا ما ينبغى أن نأخذ أنفسنا به .

الفصل الثاني

٢ — محمد كامل حسين (١٩٥٢)

منذ ربع قرن أو يزيد ، كنا نتسابق إلى صحيفة أسبوعية ، لما عرفت به من دقة النقد ، وعمق التحليل . وقد لفت نظرى مقالات نشرت فى تلك الصحيفة تحت اسم مستعار ، هو « ابن سينا » . وحاولت أن أتعرف « ابن سينا القرن العشرين » فتبينت أنه طبيب شاب ، حصل على دبلوم الطب ، ولما يجاوز الثانية والعشرين من عمره . ثم أمضى سنتى الامتياز فى قصر العينى ، وأوفد فى بعثة إلى إنجلترا عام ١٩٢٥ ، ومن هناك كان يراسل صحيفتنا الأسبوعية . وقد عالج موضوعات شتى ، من بينها : « مهمة الجامعة المصرية » ، « الصحة العامة لدى الفلاحين » ، « اللغة العربية » ، « البحوث العلمية : نقصها ووسائل علاجها » ، إلى غير ذلك من مقالات لم تخل من نقد جرئ ، وتحليل عميق . ذلكم الكاتب والطبيب الشاب هو الدكتور محمد كامل حسين الذى أسعدنى المجمع بأن استقبله اليوم .

أمضى طبيبنا خمس سنوات فى إنجلترا جادا محصلا ، ونال ألقابا علمية ممتازة فحصل على زمالة الجراحين الملكية ، وعلى ماجستير جراحة العظام من جامعة ليفربول . وفى سنة ١٩٣٠ عاد إلى مصر ، فتلقفته كليته التى نشأ فيها ، وانضم إلى هيئة التدريس بها ، مدرسا ، فأستاذا مساعدا ، ثم أستاذا : وقد قضى فى هذه الكلية نحو تسع سنوات يشغل كرسى « أستاذ جراحة العظام » ، إلى أن دعى عميدا لجامعة إبراهيم عام ١٩٥٠ . حياة وقفت كلها على العلم والدرس . وفى الواقع قل أن نجد من يقبل على العلم إقبال كامل حسين ، وقل أن نجد من يحب القراءة حبه . فلا تذهب إلى محاضرة هامة ، فى العلم أو فى الأدب أو فى الفلسفة ، إلا وتراه فى مقدمة المستمعين ، ولايكاد يظهر كتاب قيم ، فى العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية ، إلا ويسارع إلى اقتنائه وقراءته . وكم ساءلت نفسى ، حين ألقاه فى بعض تلك المحاضرات ، كيف استطاع أن يوفق بين هذا وبين أعبائه المتعددة والمتنوعة . فهو إلى جانب أستاذيته ، له عيادته الخاصة ، ومستشفياته ، وجراحاته الدقيقة ، ومرضاه الذين يعودهم فى بيوتهم . وقف نفسه على العلم والطب ، وتعهد المرضى ، ومجاملة الأصدقاء . وتقاسمته هيئات علمية متعددة ، بين مصرية وأجنبية ، فهو عضو فى المجمع المصرى ، وفى أكاديمية الجراحة بباريس ، وعضو مراسل فى الجمعية البريطانية لجراحة العظام :

هذا هو كامل حسين فى نشأته ، وتكوينه ومؤهلاته ، ودرسه ونشاطه ، وله نواح أخرى فسيحة . ولن أحدثكم عن كامل حسين الإنسان ، إشفاقا على حيائه وتواضعه ، ولا عن كامل حسين الصديق ، لأنى أخشى أن يمتد حديثى إلى كثيرين من الحاضرين ، ممن يسعدون بصداقته ، ويعتزون بها . وليس لى أن أتحدث عن كامل حسين الطبيب ، فهناك من هو أحرى بذلك منى ،

وأشهد فقط أنه قام بعملية جراحية لابنة صديق عزيز دامت بضع ساعات ، وجاء بالمعجزات ، وحقق ما لم يحققه أحد كبار الأطباء العالميين . وكل ما أريد أن أتحدث عنه جانبان : كامل حسين العالم ، وكامل حسين الأديب :

* * *

وكامل حسين عالم حقا ، وبأدق معنى لهذه الصفة ، فهو يؤمن بالتجربة إيمانا لا يقل عن إيمانه بالعقل . يؤمن بالتجربة ، لأنها سبيل كسب المعلومات والكشف عن الحقيقة . ويلاحظ بحق أن ميزة الطب الحديث هي أنه طب التجربة والمشاهدة ، في حين أن الطب القديم ، أو بعبارة أدق طب اليونان ، اعتمد على الوصفات الشائعة والقضايا المسلمة . وكان يرى أن الاتصال المباشر بالطبيعة ، عن طريق الملاحظة والتجربة ، يربطنا بها ، ويقفنا على سيرها ، ويمكننا من أن نستنتج ونستنبط ونكشف عن قوانينها ، وينتهى بنا إلى أن نجاريها فى نسقها . لهذا كله عنى كامل حسين بالتجربة ، ودعا إليها فى مناسبات شتى . دعا إليها مبكرا فى رسائله التى بعث بها من أوربا إلى « السياسة الأسبوعية » ، فنى حديثه عن مهمة الجامعة المصرية يعلن عن حاجتنا الماسة إلى العلوم التجريبية والتوسع فيها . وطالب بمعامل أتم وأكمل من تلك التى عرفناها فى مدارسنا القديمة ، لأن المعمل هو منبت العلم الحديث . وسمعته أخيرا فى محاضرة ألقاها على طلبته فى كلية الطب ، وفرق فيها بين صناعة الطب وعلم الطب . ولاحظ أن صناعة الطب تقنع بطائفة من المعلومات والحقائق التى تعيش على تشخيص الداء وكشف الدواء ، أما علم الطب فيقوم على التحليل والبحث ، والكشف والاختراع ، والحركة المستمرة المجددة . وهو لا يرضى لأطبائنا أن يكونوا صناعا ، بل يناشدهم أن يحرصوا على أن يكونوا علماء .

ويؤمن كامل حسين بالعقل إيمانا جازما ، لأن التجربة تنصب على الجزئيات ، والعلم ينشد الأحكام الكلية والمبادىء العامة ، وسبيلها العقل وهو يريد ذلك العقل الذى يحلل ويعلل ، وينقد ويناقش ، ويخترع ويبتكر ، لا عقل القرون الوسطى الذى كان يخضع ويسلم ، ويحاكى ويقلد : وبالعقل السليم الذى يقوم بتفكير مستقيم ، ويحكم فى غير هوى ، ويلتزم بالصدق والنزاهة . وهو فى ربطه العلم بالعقل ذلك الربط الوثيق ، يدرك فى وضوح الصلة بين الطب والفلسفة ، ويأخذ على بعض الأطباء إغفالهم لهذه الصلة . ولا غرابة فهو نفسه فيلسوف بقدر ماهو عالم وطبيب : والعلم عنده عقلية ومنهج ، وفى الفلسفة ما يعين على كسبهما كسبا حقيقيا . وإذا كان الطب المصرى لم يخط فى رأيه خطوات فسيحة فى الخمسين سنة الأخيرة ، فما ذلك إلا لأنه لم يعالج منهجيا علاجا مستقيما :

كامل حسين مولع بالمنهج والدراسة المنهجية ، ويؤثر منهجين واضحين فى دراساته ، وهما : المقارنة ، والتحليل . فيقارن الظواهر بعضها ببعض . ويقارن الفكرة بالأخرى . يقارن ليكشف عن مواطن الضعف والقوة ، ويتبين جوانب الكمال والنقص . وتعتمد دراساته التاريخية

بوجه عام على الموازنة والمقارنة ، فيقارن بين طب قدماء المصريين وطب اليونان ، بين الكيمياء القديمة والكيمياء الحديثة ، بين محنة خلق القرآن لدى المسلمين ، ومحنة تجسد المسيح عند المسيحيين. عول باختصار على المنهج المقارن ، وأفاد منه ما وسعه ، أما التحليل فهوسبيل من سبل الكشف والابتكار ، والغوص على الحقائق ، والتعمق فى الدرس . وإذا كانت النهضة الأوربية قد جاءت بجديد فى رأيه ، فما ذاك الجديد إلا تجربة بيكون ، وتحليل ديكارت . ولا يقنع عالمنا بتطبيق التحليل على العلم وحده ، بل يطبقه على الأدب أيضاً ، ويقدم فى ذلك أمثلة رائعة .

* * *

وكامل حسين أديب من طراز خاص ، وأدبه دون نزاع ثمرة قراءته المستفيضة ، وحسه المرهف ، واطلاعه الواسع . وقد اختلط أدبه بالعلم والفلسفة ، بالاجتماع والتاريخ . ويظهر أنه لم يتح له فى صباه أن يغترف كثيراً من بحار الأدب ، فقد مرّ بمراحل التعليم العام العادية فى المدرسة الابتدائية ، والثانوية ،ومن هذه إلى كلية الطب ، وليس فى ذلك كله زاد أدبى يذكر . حقاً إنه حاول أن يقول الشعر فى صباه ، على غرار كثير من الشبان ، ولكنى لم أقف من شعره على شىء يعتد به ، ووقعت على قصيدة له بعنوان : « لقمان والمريض » ، فى نحو مائة بيت ، وليس فيها ماينوه به ، وكأنى به فى عقليته المنطقية والعملية كان أميل إلى النثر منه إلى الشعر .

وأستطيع أن أقرر أن علمه نمّى ميوله الأدبية ، لأنه كان يرى أن الحقائق العلمية فى مسيس الحاجة إلى تعبير سليم يكشف عنها ، ولغة سهلة تقربها إلى الأذهان . والعلم والأدب متصلان ومتعاونان وما أعذب لغة كامل حسين وأسسها . وكان يشعر بأن العربية المعاصرة لا تواجه دائماً متطلبات العلم والفن ، وهو يريد أن يطوعها لذلك ، وأن يجعل منها لغةحية متحركة ، سهلة سائغة . ويكفى أن أشير إلى تعليق له عام ١٩٤٢ على « دعاء الكروان » يخاطب به صاحب الكتاب : « آمل أن أرى يوماً هذه اللغة الشعرية تنحدر دون ابتذال ، ودون أن تفقد من رونقها شيئاً إلى أن تصبح أداة فعالة لمجرد رواية حادثة ، وشرح موقف ،وأنت على هذا قدير ، فهى فى يديك طيعة سلسة القياد » . وقد أسهم كامل حسين مع صديقه طه حسين فى هذا المضمار ، فطوّع اللغة ما وسعه ، وأدى أدق المعانى وأعقدها أحسن أداء . و « متنوعاته» التى ظهرت أخيراً أصدق شاهد على ذلك فيها علم وأدب ، وسهولة ووضوح ،يعرض الحقائق العلمية عرضاً طلياً يقربها للأذهان وييسر فهمها على القراء . ينحو بالأدب منحى علمياً ، فيحلل فيه ويجرب ، ويناقش ، ويعلل .

وسبق لنا أن أشرنا إلى ولوع كامل حسين بالتحليل وحرصه عليه ، وقد استخدمه فى أدبه كما استخدمه فى بحوثه العلمية . فيستعين بنظرية التحليل النفسى التى قال به « فرويد » و « يانج » — برغم عدم تسليمه بها سيكلوجيا — فى توضيح بعض الظواهر الأدبية . فيلاحظ

مثلا أن مافى شعر المتنبى من تعقيد لم يجىء عفواً ، وإنما كان وليد عقدة نفسية ، ذلك لأن هذا الشاعر الذى شغل الدنيا وملأ الأسماع قد خاب أمله ، وأخفق فى محاولات شتى ، وفى هذا ما دفعه إلى أن يضع أمامه صعوبات يخدع بها نفسه ، ويقتنع بأنه يستطيع أن يفعل مايريد . وعلى نحو من ذلك يمكن أن يوضح إنتاج شعراء وأدباء آخرين ، وفى وسعنا ، فى ضوء التحليل أيضاً ، أن نوضح بعض الظواهر الاجتماعية ، فالحرمان والكبت قد يؤديان إلى انفجار لايقل خطرا عما يترتب على الشدة والبطش ، والثورات الفكرية ترجع غالباً إلى محاربة الأقلام وكبت الأذهان .

ويذهب كامل حسين إلى أن الدولة العثمانية ، مثلا انهارت بسبب الحرمان أكثر مما أثر فيها البطش والاستبداد . ويرى أيضاً أن الكيمياء القديمة ، أو علم الصنعة الذى كان يهدف إلى تحويل معادن خسيسة إلى معدن نفيس ، إنما ساد فى القرون الوسطى ، لأنه كان ضرباً من الأحلام التى تحقق للناس فى الخيال ما لم يجدوا السبيل إلى تحقيقه فى الواقع . ولسنا هنا بصدد مناقشة هذه الآراء ، وإنما أوردناها فقط لنبين مدى تأثر أدب كامل حسين بالتحليل ، فهو أدب تحليلى يقاس فيه اللفظ بمقياس المعنى ، فإن لم يلائمه عدل عنه إلى لفظ آخر أكثر ملاءمة ، وما يقال عن اللفظ يمكن أن يقال عن الجملة سواء بسواء .

ويعنى كامل حسين العناية كلها بالسهولة والوضوح ، فلا يرتضى اللفظ الغامض ، ولا تطيب نفسه للتعبير المعقد ، وبذا يسير قارئه معه فى يسر وسلامة ، وقد هانت عليه الأفكار البعيدة الغور ، واستساغ البرهنة المحكمة الحلقات — ولا يسعنى إلا أن أقدم نموذجاً وحيداً لهذا الأسلوب فى حديث كامل حسين عن « بردية أوين سمث » ، وهى رسالة قديمة فى الطب خلفها أحد قدماء المصريين ، فيقول : « منذ نيف وخمسة آلاف سنة ، ذهب رسل فرعون إلى قرية من قرى مصر ، يخرجون طائفة من شبابها إلى حيث يريد فرعون أن يبنى هرمه الأكبر . وكان أصغرهم لم يتجاوز العشرين من عمره ، ولا يختلف فى قليل أو كثير عن أقرانه ، فكلهم لا يعلمون من أمور الدنيا إلا ما دلتهم عليه خبرتهم الطويلة بحرث الأرض وزرعها ، ولا يعلمون من أمور دينهم إلا أنه يفرض عليهم الطاعة لأولى الأمر منهم ، وأن لهذا الدين سراً لا يعرفه إلا الكهنة ، ولا يمكن لمثلهم السمو إلى إدراكه . وكان أصغرهم هذا لا يدرى ما يخبىء له الدهر ، وكان لا يشك فى أنه سيعمل فى البناء كما عمل غيره من قبل . ولم يكن هناك ما يدل على أن له مواهب خاصة ستجعل عمله خالداً ، ولو كشف له الغيب فرأى أن عمله سيكون موضع دراسة دقيقة مستعصاة بعد موته بخمسين قرناً ، لدهش غاية الدهشة ، فهو على ثقته بنفسه — بعد أن كملت خبرته — لم يكن به من الزهو شىء . والواقع أن

صاحبنا هذا أوتى ثلاث مواهب : التفكير السليم ، ودقة الملاحظة ، والذاكرة القوية التى تعى كل ما يرى . والناس صنفان : أحدهما يتعلم عن طريق البصر ، والآخر عن طريق السمع ، وصاحبنا علمه كله عن طريق البصر ، وكأنى به لم ينس شيئاً مما رآه فى حياته الحافلة الطويلة » :

ثم يقول كامل حسين فى وصف وعرض دقيق : « هذه الرسالة — رسالة هذا العالم المصرى القديم — رسالة فذة ، لأنها أول رسالة فى العالم ، ولأنها أول رسالة فيها مصطلحات علمية تخفى على غير المختصين . وهى فذة فى تبويبها ، فقد جعل صاحبها وصفه للحالات مرتباً من قمة الرأس ، إلى الوجه ، إلى الصدر ، إلى الرقبة ، ثم الترقوة والعضد . ولا شك أنه استمر على هذا التبويب ، ووصف الحالات ، مبتدئاً بأبسطها وأسهلها علاجاً » . تلك الرسالة الفرعونية القديمة التى تعرض لطب العظام ، حرص كامل حسين الطبيب والزميل على أن يترجمها فى « متنوعاته » ، فكان سهلا فى ترجمته ، كما كان سهلا فى وصفه للرسالة والتعليق عليها .

* * *

على هذا النحو يريد كامل حسين أن يقدم العلم للقراء وجمهور المثقفين : وأشهد أنى فى كلمتى هذه لم أتحدث عنه إلا باسم العلم والأدب ، ويقينى أنى لم أوف هذا الحديث حقه وها هو ذا كامل حسين يأخذ مكانه فى الصومعة الخالدة بين زملائه من الخالدين الذين ألفوا — كما ألف — أن يعملوا فى صمت وسكون . وإن العلم والأدب واللغة لتنتظر منهم جميعاً الشىء الكثير .

الفصل الثالث

٣ ــ محمد الفاسى (١٩٥٩)

لم يكن مقدراً لى حقيقة أن أشرف بالحديث اليوم ، ولكن طارئاً خفيفاً ألم بالدكتور طه حسين ، فحال دونه وأداء هذا الواجب ، وأريد بى أن أنوب عنه وقد كان يحق لى أن أتردد فى قبول هذه المهمة ، لا سيما وصلتى بالزميل الكريم تقف عند لقاء فى جلسة من جلسات المجمع . إلا أن هذه الجلسة نفسها هى التى شجعتنى على أن أضطلع بهذا الواجب على ضيق وقتى ، فلم أستطع أن أقرأ للزميل فيما كتب وألف ، وأن أتتبع آثاره على اختلافها . واكتفيت بما لمست فيه من روح وثابة ومنهج سليم فى جلسة الأسبوع الماضى . وأنا واثق كل الثقة من أنه سيغفر لى إذا لم أوفه حقه :

* * *

لم يفت مجمع اللغة العربية منذ البداية أن يتجه نحو شمال أفريقيا ، لكى يكون ممثلا فى بنيانه وعاملا فى تكوينه ، ومنذ النشأة الأولى حظينا بعضو بارز من تونس هو السيد حسن حسنى عبد الوهاب الذى صاحب المجمع نحو ربع قرن يساهم فى رسالته ، ويخدم اللغة ما وسعه : واليوم ينضم إلينا عضو كريم آخر ، هو السيد محمد الفاسى ليضطلع بالأمانة ويعاون المجمع بعلمه ونشاطه :

ولم يكن غريباً أن يتجه المجمع هذا الاتجاه ، فإن سكان شمال أفريقيا يمثلون اليوم تقريباً ثلث الناطقين بالضاد ، ولهم إنتاجهم العلمى واللغوى الواسع ، وأثرهم فى النهضة العربية المعاصرة واضح : وبذا تتصل السلسلة ، وتتوالى الحلقات ، وترتبط نهضة اليوم بنهضة الأمس ، ويبدو العالم العربى فى مظهره الكامل :

ولا نزاع فى أن الثقافة الإسلامية كل متصل الأجزاء ، إن كانت نبتت فى الشرق فقد نمت وترعرعت فى الغرب ، ومؤرخها لا يستطيع أن يعطى عنها صورة صادقة إلا إذا ألم بأطرافها المختلفة : وإذا كنا نتحدث عن أدب مشرقى وآخر مغربى ، فهما معاً يكونان الأدب العربى : والعلوم الإسلامية على اختلافها مدينة لجهود رجال المغرب والمشرق معاً ، فالفقه المالكى الذى نبت أول ما نبت فى المدينة غذى بغذاء صالح فى المغرب ، بحيث لا يستطيع متحدث عنه أن يستوعب تاريخه ويلم بمصادره ، إلا فى ضوء مؤلفين وباحثين من سكان المغرب أدناه وأوسطه وأقصاه :

والنقد الأدبى نشأ أول ما نشأ فى المشرق ، ثم ما لبث أن وجد نقاداً ، ونقاداً ممتازين فى شمال أفريقيا . ويكفى أن نشير إلى ابن رشيق القيروانى صاحب العمدة الذى استكمل درسه ، وخرج به من بحوث فرعية تتصل بشاعر وخطيب إلى بحوث مكتملة تدور حول عصر بعينه ، وبعبارة أخرى نخرج به من البحث الجزئى إلى الدراسة العلمية الشاملة . ونحاة المشرق ، وعلى رأسهم سيبويه والكسائى ، وضعوا دعائم الأجرومية العربية ، ثم أسلموها إلى إخوانهم المغاربة ، فهذبوها ، ونقحوها ، وأضافوا إليها الجديد والطريف ، ودراسة النحو فى القرون الأخيرة مدينة لابن مالك المغربى بدرجة لا تقل عن أعلام المشرق الأول .

وإذا كنا نتحدث عن فلسفة شرقية وأخرى غربية ، عن فلسفة الكندى والفارابى وابن سينا ، فإنا نتحدث أيضا عن فلسفة ابن ماجة وابن طفيل وابن رشد . وهاتان المدرستان الفلسفيتان ، وإن تعارضتا أحياناً ، تعبران عن مذهب فلسفى واحد ، وتصوران الفلسفة الإسلامية فى شقيها المتقابلين .

والإسماعيلية بما اشتملت عليه من دراسات ونظريات نبتت بذورها فى المشرق ، ثم امتدت إلى المغرب ، ووجدت فيها أعواناً نهضوا بها ، وبسطوا نفوذها ، واستولوا على مصر ، فكانت الدولة الفاطمية بما لها من علوم وحضارة .

فالثقافة الإسلامية إذن فى ظواهرها اللغوية والفكرية وحدة متصلة الأجزاء ، اتصلت فى الماضى ، ولا بد لها أن تتصل اليوم ، ولم تمنعها الفواصل الجغرافية ولا السياسية من أن تتعاون وتتضافر ، وستبقى على هذا التعاون لتستعيد مجدها الغابر ، وتؤدى رسالتها إلى جانب الثقافات الإنسانية الأخرى .

ولا أظننى فى حاجة أن أشير إلى مراكش أو المغرب الأقصى أو دولة المغرب كما تسمى اليوم ، وما كان لها من شأن فى تاريخ الحضارة الإسلامية ، فقد كانت ركناً حصيناً من أركان الإسلام فى شمال أفريقيا وبلاد الأندلس ، ولا تزال حتى اليوم علم الاستقلال والسيادة والدعوة القوية فى بلاد المغرب عامة . ويكفى أن نذكر أنها — تمثل الآن الطرف الأقصى للعالم الإسلامى نحو الغرب وكانت ملجأ التراث العظيم الذى كونته بلاد الأندلس، فإن كثيرين ممن جنت عليهم أحداث الأندلس لجأوا إليها،ولا تزال أسر أندلسية قديمة تسكن مراكش الآن وتعرف بأصولها الأولى .

ومما يلفت النظر أن دولة المغرب تلتقى مع مصر فى أكثر من موضع ، فهما معاً ملتقى حضارات وأجناس مختلفة ، ففى مصر تلاقى اليونانى والرومانى والفارسى مع الفرعونى ، وفى مراكش تلاقى الفينيقى واليونانى والرومانى مع سكان البلاد الأصليين . ويحاول البلدان كلاهما فى جد الجمع بين القديم والجديد ، وربط الثقافة الإسلامية بالثقافة الغربية . وانظروا إلى جامعة القرويين من جانب ، والجامعة الأزهرية من جانب آخر وتطورهما فى نصف القرن الأخير ، لتدركوا مدى سعى البلدين

إلى الملاءمة بين القديم والجديد ، وفى هذه التطورات كثير من الحلقات المتشابهة والمتقاربة . ولم يقنع المغرب بجامعته القديمة ، بل حرص على أن يضم إليها جامعة حديثة لا يساورنى شك فى أنها تلتقى مع جامعاتنا المصرية فى نواح شتى .

ومرت مراكش ، ومصر ، أثناء القرن العشرين ، بمحن وأحداث سياسية كثيراً ما تشابكت وترابطت ، بل قامت على ضرب من المساومات والمقايسات . إلا أن البلدين أخذا طريقهما إلى الاستقلال والحرية ، ولن يعترض سبيل يقظتهما معترض . وتواجه مراكش ومصر مشكلة حيوية نقدرها جميعاً قدرها ، وهى مشكلة تزايد السكان فى اطّراد ، وهذه الزيادة ملحوظة فيهما عامة ، وبنسبة تكاد تكون متقاربة ، ولا بد لها من أن يأخذا أنفسهما بنهضة اقتصادية حثيثة كى يواجها حاجة السكان التى لا تقف .

كل تلك ظروف جعلت التلاقى والتجاوب بين البلدين قديماً وحديثا متصلا ومستمراً .

وها نحن أولاء نستقبل اليوم علماً من أعلام المغرب ، هو الزميل الفاضل السيد محمد الفاسى ، وما أظننى سأقف طويلا عند حياته بقدر ما أقف عند ما نعلقه عليه من آمال وما نرتقبه منه من جهد ومساهمة .

ولد الزميل الكريم فى أوائل العقد الأول من هذا القرن ، سنة ثمان وتسعمائة وألف ، ومن الطريف أن يضم مجمع الخالدين إليه شاباً فتياً وما أحوجه اليوم إلى هذا الشباب وتلك الفتوة . ولد السيد محمد الفاسى فى مدينة فاس ، وتابع دراسته على النحو الذى يتابع به أمثاله الدراسة هناك ، فالتحق بالمدرسة الثانوية ، وانتقل إلى جامعةالقرويين ، ثم رحل بعد ذلك إلى فرنسا ليضم تعاليم الغرب إلى تعاليم الشرق . وفى فرنسا قضى ثمانى سنوات دارساً ومدرساً ، متعلماً ومعلماً ، فحصل على شهادة الليسانس ، وعلى دبلوم الدراسات العليا ، وشاء أن يتم إعداده العلمى برحلات فى عواصم أوروبا المختلفة قضى فيها نحو عامين ، وبعد ذلك عاد إلى وطنه الذى كان فى شوق إلى أمثاله ليرفعوا الراية ويحملوا العبء فى تنشئة الجيل الجديد . فعين مدرساً فى المدارس الثانوية ، ومنها إلى المعاهد العالية ، ثم شغل بعد ذلك وظيفة مدير جامعة القرويين التى تربى فيها من قبل . واجتذبته السياسة ، فاختير وزيراً غير مرة ، وهو الآن على رأس الجامعة المراكشية الحديثة يوجهها ويرسم سياستها .

وفى أثناء الدرس والمحاضرة ، اتجه نحو التأليف والكتابة ، فوضع كتاباً عن تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ، وترجم لشاعرين من شعراء الموحدين . وأعد طائفة من المحاضرات والتقارير ، واشترك فى كثير من الحلقات والمؤتمرات العلمية والثقافية فى الشرق والغرب .

ولم يقف نشاط السيد الفاسى الباحث الدارس عند العلم وحده ، بل امتد كما قدمنا إلى السياسة ، فكان على رأس زملائه من لجان الطلبة الأفريقيين فى باريس ، اشترك معهم ، وقاد حركتهم ،

وحرر فى صحيفتهم : وانضم إلى حزب الاستقلال الذى قاد الحركة حتى وصل بها بر السلامة وانتهى بالبلاد إلى الاستقلال . وكان طبيعياً أن يدعى بعد الاستقلال إلى الوزارة ، فكان عضواً فى الوزارتين الوطنيتين الأوليين :

تلك باختصار حياة الزميل الجديد ، ويبدو من ملامح هذه الصورة السريعة التى عرضتها عليكم أمور يعنينى أن أقف عندها قليلا :

فنحن أولا أمام زميل استكمل وسائل البحث والدرس وتمكن من الثقافة الشرقية فى دراسته الأولى ، وتابعها فى بحوثه ودراساته التالية .

وضم إليها الثقافة الغربية دارساً وباحثاً أيضاً ، ومكّنه من ذلك إلمامه بعدد من اللغات ، فهو يعرف الفرنسية كأحد أبنائها ، كما يعرف الأسبانية . ويعرف فوق هذا لغتين تعتبران بالنسبة له لغة المواطن والمولد ، وهما العربية والمغربية وإلى جانب هذا استكمل منهج البحث فى دراساته المختلفة ، فجعله يعرف كيف يلائم بين القديم والجديد ، وكيف يسلك سبل الإصلاح من نواحيها الجدية والعملية ، وروحه الإصلاحية ناحية من النواحى التى قد لا أستطيع أن أطيل فيها ، ولكنى أحب أن أبين فقط أنه ما كاد يوكل إليه أمر المعهد الذى تربى فيه من قبل وهو جامعة القرويين حتى شاء وهو عميد ورئيس أن يعدل تلك النظم القديمة ، وأن يربطه بعجلة الزمن ، ويدخل عليه الدراسات الحديثة ويتوسع فيها من رياضيات وعلوم .

وإذا كنت أذكر هذه الأمثلة بعينها ، فإنما أذكرها لأنها تثير فى نفوسنا ضرباً من تداعى المعانى ، والشىء بالشىء يذكر ، وفى إصلاحات جامعة القرويين الأخيرة ما يشبه محاولات الإصلاح التى مرت بها الجامعة الأزهرية فى نصف القرن الماضى .

وقد لا يدهشكم أن تسمعوا أن من بين المقترحات المراكشية ، التى لا أدرى إن كانت قد نفذت فعلا أم لا ، أن تنشأ فى جامعة القرويين كليات تقترب كل القرب من كليات الأزهر كأصول الدين ، والشريعة ، واللغة العربية .

والزميل الجليل مصلح أيضاً فى وزارة التربية والتعليم ، يحاول أن يسلك بالتعليم المراكشى مسلكاً يتمشى مع حاجة العصر وظروفه ، ذلك لأن نظام التعليم فى بلاد المغرب شبيه بما كان عليه أخوه فى مصر فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن ، فيقوم على المساجد التى يحفظ فيها القرآن وبعض مبادىء القراءة والكتابة والحساب ، ومن شاء توسعاً اتجه نحو جامع القرويين . وما أشبه هذه المساجد بكتاتيبنا القديمة التى يأبى المغرب إلا أن يحل محلها اليوم مدارس ابتدائية وثانوية تهيىء لأبناء الشعب وسائل التعليم والثقافة الكاملة ، وتمهد للدراسات العالية والجامعية ، والشرق الذى وقفت عقبات كثيرة فى سبيل نهوضه العلمى والثقافى يرغب رغبة أكيدة فى أن يستعيد ما فاته ، ويخطو إلى مصاف الأمم التى سبقته . وما أحوجه إلى مصلحين ومجددين يلائمون

بين القديم والحديث ، ويقيسون الأمور بمقياس الحكمة والاعتدال، ويخرجون منها بحلول تتفق مع البيئة والظروف التي يعيشون فيها ، فلا يطفرون فى إسراف ، ولا يجمدون فى قصور . والزميل الكريم فى مقدمة من اكتملت فيهم هذه الصفات بين قادة المغرب والمصلحين .

ويرجو المجمع اللغوى منه أمراً آخر له أهميته يعول عليه فيه التعويل كله، لأنه يتصل بمهمته ورسالته . وأعنى به حماية اللغة متناً وأسلوباً، ودراسة قواعدها وآدابها . وفى المغرب حقل فسيح لهذه الدراسة، ومعالجة ألوان شتى من الموازنة والمقارنة ، ذلك لأن فيه ضرباً من التقابل والتعارض بين العربية والبربرية ، واللغوى الباحث يخرج من ذلك بدروس نافعة. وأستطيع أن أقول فى اطمئنان إن مسافة الخلف بين العربية والبربرية ليست أفسح منها بين العربية والفارسية ، وقد جاء وقت على أقاليم فارسية خالصة تعربت جميعها وظهر فيها بعض أعلام الأدب العربى ؛ والبرابرة أنفسهم نشأ من بينهم عدد غير قليل من أئمة البحث الإسلامى . لهذا أعتقد أن الخصومة بين البربرية والعربية فى مراكش ليست أعنف مما كانت عليه الخصومة بين العامية والعربية فى مصر، وقد أصبحنا هنا ونحن لا نكاد نأبه بهذه الخصومة ، ولن يختلف شأنها عن ذلك لدى إخواننا المغاربة. وإنا لننتظر من الزميل على كل حال وهو يجيد العربية والبربرية معاً — أن يوافينا بدراساته الممتعة — فيهما ، وأن يخطو الخطوة المرجوة للتوفيق والملاءمة بينهما .

* * *

وقد انقضى الزمن الذى كانت تثار فيه أسباب الفرقة ، وأصبحنا ننظر الأمور نظرة أبناء البلد الواحد والأمة الواحدة ، ومتى توفرت هذه الروح فلن يفرق بيننا اختلاف بربرية وعربية ، ولا بُعد عامية عن عربية . وستتآخى البربرية مع العربية فى مراكش بحيث تصبح العربية لغة الشعب بأسره ، كما تآخت العامية مع العربية فى مصر ، وأصبحنا نتحدث عن تيسير العربية للناس جميعاً ، تيسيرها فى كتابتها وقراءتها ، فى نحوها وصرفها ، فى ألفاظها ، ومصطلحاتها .

سواء فى مصر أم فى مراكش ، بل وفى بلاد العالم العربى جميعاً ، نحن متفقون على أن ننهض بالعربية نهوضاً يربط حاضرها بماضيها ويعيد إليها مجدها الغابر ، فتصبح لغة العلم والحضارة ، وتعبر عن عصرنا فى كشوفه ومخترعاته ، فى عدده وآلاته ، فى نظمه وقوانينه ، فى مشاعره وأحاسيسه ، وتغذى الآداب والثقافات الأخرى كما غذيت بها وأخذت عنها .

لهذا جئت معنا ، أيها الزميل الكريم ، و هذا نعول عليك كل التعويل ، وإنى لسعيد أن أرحب بك اليوم باسم أعضاء المجمع عامة ، وأن ألقى هذه الأمانة الكبرى على عاتقك ، وأنك لها خير كفيل .

الفصل الرابع

٤ ـ عشرة أعضاء مصريين (١٩٦١)

صدر القرار رقم ٥٧ لسنة ١٩٦٢ بتعيين عشرة أعضاء مصريين وهم :

١ ـ الدكتور إبراهيم أنيس .

٢ ـ الأستاذ إبراهيم عبد المجيد اللبان .

٣ ـ الأستاذ إسماعيل مظهر .

٤ ـ الأستاذ أمين الخولى .

٥ ـ الأستاذ عبد الحميد حسن .

٦ ـ الأستاذ عبد الفتاح الصعيدى .

٧ ـ الدكتور على بدوى .

٨ ـ الدكتور مراد كامل .

٩ ـ الدكتور محمد عوض .

١٠ ـ الدكتور محمد مهدى علام .

وقد استقبلتهم بالكلمة التالية :

إن كسبنا اليوم لعظيم ، وإن تعويلنا على زملائنا الجدد لكبير ، فلكل منهم ماضيه الحافل فى خدمة الأدب واللغة ، والعلم والثقافة . فيهم النحوى والصرفى ، الأديب واللغوى ، العالم والفيلسوف العربى والسيكلوجى ، الفقيه والمشرع .

فالدكتور إبراهيم أنيس تخرج فى دار العلوم سنة ١٩٣٠ ، واشتغل بالتدريس فى المدارس الثانوية ، ثم سافر إلى إنجلترا فتخصص فى الدراسات اللغوية . ولما عاد اشتغل بالتدريس فى دار العلوم وآداب الإسكندرية ، ورجع إلى دار العلوم حيث أضحى عميدا لها منذ سنة ١٩٥٥ إلى اليوم . ومنذ عودته من أوربا تفرغ لدراساته الفيلولوجية ووضع عدة كتب فى الأصوات واللهجات والألفاظ ، نذكر من بينها « الأصوات اللغوية » الذى أعيد طبعه للمرة الثالثة هذا العام ، وكم أعان الدكتور أنيس المجمع بدرسه وبحثه ، وهو خبير به منذ سنة ١٩٤٨ .

والأستاذ إبراهيم اللبان زميل أسن وعميد أسبق لكلية دار العلوم ، سلك مسلكا مشابها فى النشأة والتكوين . تخرج فى دار العلوم سنة ١٩١٨ ، وقام بالتدريس فى المدارس الثانوية ثم أوفد إلى إنجلترا حيث تخصص فى التربية وعلم النفس والفلسفة . وما إن عاد من بعثته حتى

عهد إليه بالتدريس فى دار العلوم وآداب الإسكندرية ومعاهد التربية العالية ،وكان مفتشا عاما للفلسفة خمس سنوات وعميدا لدار العلوم أربع سنوات وله بحوث لم تنشر جميعها ومن بين ما نشر « الفلسفة والمجتمع الإسلامى » ، و « طرق تجديد المجتمع » .

والأستاذ إسماعيل مظهر وثيق الصلة بالمجمع من قديم اتصل بخبرته زمنا عنى فيه خاصة بتجديد المصطلحات وجمع ألفاظ الحياة العامة . وثقافته خصبة متنوعة ، وله فى فن المعاجم خبرة تامة ، ويكفى أن أشير إلى معجمه المشهور « قاموس النهضة » وفيه جهد واضح ويقع فى جزأين كبيرين .

وأستاذنا أمين الخولى تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى عام ١٩٢٠ ، ولم يكد يتخرج فيها حتى دعى للتدريس بها ، وعين إماما للمفوضية المصرية بروما وبرلين عام ١٩٢٣ ، ثم صاحب كلية الآداب بجامعة القاهرة منذ سنة ١٩٢٨ إلى سنة ١٩٥٣ ، أستاذا للبلاغة وعلوم القرآن ، ورئيسا لقسم اللغة العربية ووكيلا ، وقبل تقاعده عين مديرا عاما للثقافة بوزارة التربية والتعليم ،وله نواحى نشاط أخرى أدبية وصحافية ، وأخصها اشتراكه فى عدد غير قليل من مؤتمرات المستشرقين ، وإنتاجه غزير متنوع : أدب ولغة ، دين وفلسفة ، علم نفس وأخلاق ومن أخصه « مالك بن أنس » و « مشكلات حياتنا اللغوية » ، وهو فى الجملة صاحب مدرسة يلتف حوله فيها الأمناء .

وأستاذنا عبد الحميد حسن شيخ من شيوخ دار العلوم ، تربى فيها وتخرج سنة ١٩١١ ثم أوفد إلى إنجلترا حيث درس التربية وعلم النفس والأدب . ولما عاد قام بالتدريس فى المدارس الثانوية والعالية ، وانضم إلى تفتيش اللغة العربية ، وكان حظ معهده منه عظيما ، لقد قضى فيه نحو ١٧ عاما . وكان يضرب لتلاميذه دائما خير مثل فى الترتيب الدقيق ، والعمل المحكم ، والنشاط المتصل . وله بحوث ومقالات فى الأدب والتربية ، ومن بين كتبه « الأصول الفنية للأدب » « والقواعد النحوية مادتها وطريقتها » .

والأستاذ عبد الفتاح الصعيدى مراقب سابق لمجمعنا هذا ، قضى فيه نحو عشرين عاما بعد أن مر بالمدارس الأميرية المختلفة مدرساً للغة العربية . وله مشاركة بينة فى الشعر والأدب ، وعنى خاصة بفقه اللغة ، ووضع مع زميل له كتاب « الإفصاح » الذى رتب فيه المخصص وبوبه ونقحه وزاد عليه .

والدكتور على بدوى القانونى الضليع ، أستاذ القانون الجنائى وعميد سابق للحقوق ، تخرج فيها سنة ١٩١٧ على رأس فرقته ، واشتغل بالنيابة العامة زمنا ثم أوفد إلى فرنسا حيث تخصص فى القانون الجنائى ، واختير للسلك السياسى قبل تقديم رسالته . وفى سنه ١٩٢٨ نقل إلى كلية

الحقوق ، وبقى بها أستاذا وعميدا إلى سنة ١٩٤٢ ، تفرغ بعدها لنصرة العدالة عن طريق المحاماة واشترك فى الوزارة عام ١٩٥٢ وساهم فى ألوان شتى من النشاط الفقهى والثقافى ، فهو عضو بالمجلس الأعلى للجامعات ومجلس جامعة القاهرة ورئيس للجنتى توحيد قانون العقوبات وقانون الإجراءات الجنائية . تطمئن النفوس إلى حكمه ، ويباهى زملاؤه بشجاعته واعتداده برأيه له عدة مؤلفات فى القانون الجنائى وتاريخ التشريع ، بعضها بالعربية ، وبعضها بالفرنسية ، نذكر من بينها « مبادئ القانون الرومانى » ، و « الأحكام العامة فى القانون الجنائى » .

والدكتور مراد كامل من أبناء كلية الآداب ، تخرج فى قسم اللغة العربية واللغات الشرقية عام ١٩٣٠ ، وأوفد إلى ألمانيا حيث قضى بضع سنوات متخصصا فى اللغات الشرقية . وما إن عاد حتى اشتغل بالتدريس فى كليته ، ثم اختير عضوا فى المجمع العلمى المصرى ، ومعهد الدراسات الشرقية ، والأكاديمية الألمانية للآثار وله بحوث متفرقة أغلبها مقالات كتبت بالعربية أو لغات أجنبية قديمة أو حديثة ، وتدور حول الأدب العربى والمصرى واللغات السودانية والحبشية والترجمة لبعض المستشرقين واشترك مع الدكتور البكرى فى وضع « تاريخ الأدب السريانى من نشأته إلى الفتح الإسلامى » ، ومع الدكتور عبد الحليم النجار فى ترجمة « تاريخ الأدب العربى » لكارل بروكلمان ، وهو خبير بالمجمع منذ زمن ، يعد للمعجم الكبير منذ البدء فيه .

والدكتور محمد عوض محمد أديب شاعر ، جغرافى واجتماعى . التحق بمدرسة المعلمين العليا عام ١٩١٤ ، واعتقل سياسيا — وهو فى السنة النهائية ، فتعطلت دراسته أربع سنوات ، ولم يحصل على الدبلوم إلا سنه ١٩٢٠ . ثم أوفد إلى إنجلترا للتخصص فى الجغرافيا وهناك حصل على البكالوريوس والماجيستير والدكتوراه . وما إن عاد حتى قام بالتدريس فى كلية الآداب بجامعة القاهرة وبقى بها ما يزيد على عشرين عاما (١٩٢٦—١٩٤٨) ، مدرسا وأستاذا للجغرافيا ورئيسا لقسمها ولمعهد الدراسات السودانية الذى ساعد فى إنشائه . وانتقل بعد ذلك إلى الإدارة الثقافية بوزارة المعارف مديرا عاما لها ، ثم مديرا لجامعة الاسكندرية . ثم وزيرا للمعارف . هذا إلى نشاط متنوع فى الإذاعة والصحافة والجمعيات المختلفة كالجمعية الجغرافية ، والجمعية التاريخية ، والجمعية المصرية للدراسات الاجتماعية . اشترك فى عدة مؤتمرات ، أخصها المؤتمرات العامة لليونسكو حيث رأس وفد مصر غير مرة ، وانتخب أخيرا رئيسا للمجلس التنفيذى . حصل على جائزة الدولة للعلوم الاجتماعية عام ١٩٥٢ . له عدة مؤلفات فى الجغرافيا والأدب والسياسة بعضها بالعربية وبعضها بالإنجليزية ، ومن أهمها كتاباه عن نهر النيل ، والسودان الشمالى ويعدان بحق فى مقدمة ما كتب فى هذا الباب فى نصف القرن الأخير .

واختم هذه السلسلة الذهبية بالصديق والزميل الدكتور محمد مهدى علام الذى تخرج فى دار العلوم عام ١٩٢٢، ثم أوفد فى بعثة إلى إنجلترا حيث درس الأدب الإنجليزى والتربية واللغتين الفارسية والعبرية . ويوم أن عاد عهد إليه بالتدريس فى دار العلوم ، ثم بالتفتيش فى وزارة المعارف . وفى عام ١٩٣٦ دعى للتدريس بجامعة مانشستر ، ومكث بها ١٢ سنة ولما عاد ثانية اختير عميدا لتفتيش اللغة العربية بوزارة المعارف ، ثم أستاذا ورئيسا لقسم اللغة العربية بكلية الآداب ـ جامعة عين شمس ، ثم عميدا لها من سنة ١٩٥٤ حتى اليوم . وإلى جانب التفتيش والتدريس له نشاط ثقافى وأدبى واسع ، فهو عضو فى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية ، والمقرر العام للجنة النثر به ، وعضو فى المجلس الأعلى لدار الكتب ، ومستشار المؤتمر الإسلامى . وضع بحوثا ومقالات وكتبا مختلفة فى الأدب والأخلاق أغلبها بالعربية وبعضها بالإنجليزية نذكر من بينها «فن المقصورة فى الأدب العربى»، و«نظرية الوسط بين فلاسفة اليونان وفلاسفة المسلمين» .

أيها الزملاء :

أخشى ما أخشاه أن أكون قد أسأت إليكم بهذا العرض الخاطف والتعريف الناقص، ومما يهون علىّ أنكم فى غنى عن التعريف ، وكل ما حاولت إنما هو مجرد تدوين وتسجيل ، ولو اتسع لنا الوقت لكان لنا عن كل واحد منهم حديث نفيد به ونستفيد ، ونكشف فى جلاء عن بعض آثاركم الفكرية والأدبية ، وهى جانب هام من جوانب حياتنا الثقافية المعاصرة .

إن علينا أن نساير الزمن ، وإذا كانت مجامع القرن السابع عشر أميل إلى الحفاظ والمحافظة ، فإن مجامع القرن العشرين أحوج إلى التجديد والمسايرة . وفى العالم العربى اليوم وعى قوى يقظ يريد أن يخلق ويبتكر ، أن ينهض ويتقدم ، أن يستكمل كل أسباب الحياة والرفعة . وفى مقدمتها أن تكون له لغة تعبر عن كل مايصادفه أو يجول بخاطره فى الشعر والنثر ، فى العلم والفن ، فى الاقتصاد والسياسة . وهو يثق كل الثقة بمجمعكم هذا ، ويؤمن بأنه خير من يطوع العربية لحاجات العصر ومقتضياته ، فأجيبوا سؤله ، وحققوا طلبته ، وإنكم لفاعلون .

الفصل الخامس

٥ ــ أحد عشر عضوا عربيا (١٩٦٢)

صدر القرار الجمهورى رقم ٥٧ لسنة ١٩٦١ بتعيين أحد عشر عضوا عربيا، وهم :

١ ــ الأستاذ أحمد عقبات.
٢ ــ الأستاذ الدكتور اسحق الحسينى .
٣ ــ الأستاذ أنيس المقدسى .
٤ ــ الأستاذ الدكتور عبد الله الطيب .
٥ ــ الأستاذ عبد الله كنون .
٦ ــ الأستاذ على الفقيه حسن .
٧ ــ الأستاذ الدكتور عمر فروخ .
٨ ــ الأستاذ قدرى حافظ طوقان .
٩ ــ الأستاذ محمد البشير الإبراهيمى .
١٠ ــ الأستاذ محمد بهجة الأثرى .
١١ ــ الأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور .

وقد استقبلتهم بالكلمة التالية :

نجتمع اليوم باسم الفصحى وفى سبيلها ، وإنها لتراث الماضى ومجد الحاضر ، بقيت على الدهر وسارت مع الزمن ، بحيث أضحت لغة قديمة وحديثة ، تجمع بين التليد والطارف ، وتربط الناطقين بها بأوثق رباط ، وقل أن تلتقى معها فى هذا لغة أخرى . أقول نجتمع ، وأعنى أنكم تمثلون هنا الوطن العربى الكبير فى آماله وأمانيه ،فى رغبته الأكيدة فى أنيستعيد مجده ويرفع ألوية حضارته ، وأعتقد أن العالم الإسلامى بأسره يرقب خطاكم ، ويتتبع قراراتكم ، لما لها من صلة أكيدة بالثقافة الإسلامية جميعها :

* * *

(أ) العربية بين اليوم والغد :

ولست فى حاجة أن أتحدث عن العربية فى ماضيها ، ولا أن أعرض لتراثها ، وإنما أود أن أقف قليلا عند حاضرها ، وأربط يومها بغدها . وحاضرها ولا شك زاهر ، وإن عارض فى ذلك قوم أو أنكره آخرون . فهى لغة العلم والأدب ، والخطابة والصحافة ، وإلى مدى بعيد لغة المسرح والسينما ، والإذاعة والتليفزيون . مفرداتها فى صقل وتهذيب ، وإحكام ودقة ، ونمو وتكاثر ، وجملها فى تنوع وتجديد ،ويسر وسهولة ، وظرف ورشاقة، فى شعرها خيال بديع ونسيج محكم ، ووحدة متصلة ، وتصوير خلاب لخلجات النفس وآيات الطبيعة وظواهر المجتمع ،

وبين الشعراء المعاصرين فحول لايقلون عن شعراء العصر العباسى الأول . وفى نثرها تحرر وانطلاق ولين ورقة، وتعليل ومنطق ، وأفكار ومعان لا مجرد صيغ وعبارات ، وفيه أيضا ألوان جديدة كالقصة والرواية والمقالة والبحث وبين كتاب اليوم من يذكرنا بعبد الحميد وابن المقفع ، أو بالجاحظ ومحمد بن عبد الملك الزيات . وانتاجها فى جملته غزير ومتنوع ، قومى وإنسانى ، تضافرت عليه بيئات ثقافية متعددة فى أفريقيا وآسيا ، وآزرها نفر من العرب والمستعربين فى أوربا وأمريكا . ويمكن أن يقال إن أدبنا المعاصر سما إلى مرتبة الآداب العالمية الكبرى ، وبدىء فى ترجمته والأخذ عنه كما يأخذ عن غيره . وبذا صحت نبوءة الأستاذ الإمام من أن دراسة جادة طوال خمسين سنة كفيلة بأن يبلغ الأدب العربى شأو الآداب الأوربية .

على أنا نعتقد أن هذا الأدب فى حاجة إلى تعهد دائم ورعاية مستمرة ، وتجديد وتطوير : ولا ننكر أن هناك شكوى تردد من متن اللغة ونحوها ، ومن تعقد المعاجم وصعوبة الرجوع إليها ومن فن الإملاء والكتابة العربية بوجه عام وعدم مطابقتها للنطق أو القراءة . ولا تزال الفصحى تصطدم بالعامية ، ويقع الناس فى حيرة من أمر هذه الثنائية . ولكن هذه الشكوى لا تخلو من غلو وإسراف ، فصدر العربية فسيح يتسع كل يوم لمصطلحات العلم ومقتضيات الحضارة . وتيسير النحو يشغلنا منذ عهد بعيد ، وقد بذلت فيه جهود متلاحقة ، ساهم مجمعكم فى قسط منها ، وأصبحنا نؤمن بأن ملكة اللغة تكتسب بالحفظ والسماع أكثر مما تكتسب بالضابط والقاعدة . وظهرت معاجم عربية حديثة فيها وضوح ويسر ، وترتيب وإحكام ، ولابد أن تليها معاجم أخرى أكثر وضوحا وأعظم دقة . ولا نألوا جهدا فى أن نيسر الإملاء والكتابة ، وقد وضعت فى ذلك مقترحات شتى وأخذ ببعضها ، وفى برنامج هذا المؤتمر عرض لما سبق إقراره فى تيسير الكتابة العربية واختصار صندوق الطباعة اختصارا كبيرا . ونظرة إلى الوراء ترينا كيف ضاقت مسافة الخلف بين الفصحى والعامية ، ولغتنا الحاضرة تكاد تكون مزيجا منهما ، فيها فصاحة الأولى وجزالتها ، وسهولة الثانية وقربها من الأفهام وقديما ذهب حفنى ناصف إلى أنه فى بيئة خاصة وبضرب من المران والدربة يمكن القضاء على العامية فى نحو عشرين سنة ، وحاول عاطف بركات أن يطبق شيئا من ذلك فى مدرسة القضاء الشرعى .

ومع هذا فالغد كفيل بتدارك ما فات ، واستكمال ما نقص ، وإنا لنعول عليه كثيرا ، ونرقب أن تقترب ما أمكن لغة التخاطب من لغة الكتابة ، وأن تتوثق الوشائج بين الناطقين بالضاد فى مختلف الأقطار ، وتتضاءل الفوارق بين اللهجات . ذلك لأنا نعيش فى عصر التعليم والثقافة الشعبية ، فى عصر الصحافة والسينما ، فى عصر الإذاعة والتليفزيون . فتكافح الأمية وينشر التعليم فى مختلف البلاد العربية ، ويقرأ الأطفال والشبان ويكتبون فى لغة سهلة وأسلوب هين . وتنفذ العربية إلى الفصل والملعب ، والمنزل والحقل ، والمصنع والمتجر ، وتنشر الكتب الشعبية وسلاسل

القراءة المبسطة ويطبع منها عشرات بل مئات الآلاف . وتتبادل الصحافة اليومية والأسبوعية والشهرية بين المدن والعواصم ، فتوحد طرائق التعبير ، وتقدم ألوانا من الأدب الرفيع . وبيننا كتاب وأدباء ينتمون إلى العالم العربي ، بقدر ما ينتسبون إلى وطن خاص. وهناك صحف أسبوعية وشهرية عربية تكاد توزع فى الخارج بقدر ما توزع فى الداخل . والفلم العربي أصبح ذا رسالة أدبية ولغوية إلى جانب رسالته الفنية والاجتماعية ، وكثيرا ما يحاكى أسلوب الحوار والغناء المصرى فى شمال أفريقية أو فى الكويت والمحميات العربية . وللإذاعة والتليفزيون شأنهما فى تقويم النطق وتقريب بعضه من بعض ، وفيهما يتلى القرآن ويرتل غير مرة ومن أكثر من محطة فى اليوم الواحد ، وهو خير مقوم للألسن ، وربما أذيع حفلنا هذا فى البلاد العربية على اختلافها ، وهاتان الوسيلتان تخاطبان الأمى ، كما تخاطبان القارئ والكاتب ، وتصلان إلى القرية كما ترسلان فى المدينة . وهناك أمم تحاول أن تنشر لغتها وتعلمها للناس عن طريق الإذاعة وما أجدرنا أن نوجه إذاعتنا العربية — فيما نوجهها — إلى هذه الغاية ، لاسيما وهناك إذاعات أجنبية تحرص على النطق والأسلوب العربى السليم أكثر مما تحرص بعض الإذاعات العربية .

ويكتب العلم والفلسفة والفن والتكنولوجيا الآن بلغة عربية واضحة ، وتدرس بها فى الجامعات والمعاهد العليا ، فضلا عن المدارس الإعدادية والثانوية ونتوقع تبادلا أتم واتصالا أوثق بين الأدب العربى والآداب الأخرى ، وها نحن أولاء نرى القصة أو الرواية تترجم اليوم إلى العربية ولم يمض بضعة أشهر على تأليفها فى لغتها الأصلية ، ولن يستبعد مثل هذا على بعض إنتاجنا الأدبى ، وبين دور النشر الأجنبية ما يسعى جاهدا إلى ترجمة بعض نفائسنا الأدبية المعاصرة . ولاشك فى أن المؤتمرات الأدبية والعلمية تزيد هذا الاتصال وثوقا وتأكيدا ، وما أحوجنا أن نكثر منها ، ونجعلها عربية ومختلطة ، كى تفتح النوافذ على مصراعيها ، ويجدد الهواء والفكر من حين لآخر .

هذه هى العربية التى نجتمع اليوم من أجلها ونلتقى عندها ، وهى التى وقف مجمع اللغة نفسه على خدمتها ، وسأحاول أن أعرض عليكم صورة مختصرة لنشاطه فى الدورة الماضية .

(ب) المجمع ملتقى الناطقين بالضاد :

أنشىء مجمع اللغة العربية عام ١٩٣٢ ، وقام على عشرين عضوا عاملا ، نصفهم من المصريين والنصف الآخر من العرب والمستعربين ، ومثل فيه حين ذاك أكثر من بلد عربى . ثم رفع العدد عام ١٩٤٦ إلى أربعين ، على ألا يجاوز الأعضاء غير المصريين العشرة . وفى العام الماضى صدر تشريع شامل يحدد شخصية المجمع ويدعم استقلاله ويقصر عضويته العاملة على أبناء الجمهورية العربية المتحدة وممثلى البلاد العربية ، ويفتح باب العضو المراسل للمستعربين من علماء الشرق

والغرب ، وفيه منهم الآن أربعون عضواً ،وبتوسع هذا التشريع فى تمثيل البلاد العربية ، فيقف عليها عشرين مقعداً ،وبذا هيأ لنا الفرصة أن نستقبل اليوم أحد عشر زميلا كريما من عشرة بلاد عربية ، هى : الأردن ، والجزائر ، والسودان ، والعراق ، والمغرب ، واليمن ، وتونس ، وفلسطين ، ولبنان ، وليبيا ،إلى جانب زملاء قدامى من العراق ، والعربية السعودية ، والمغرب وتونس ؛ فاللغة العربية موكولة هنا إلى أهلها ، يضطلعون بعبء نهوضها ،ويساهمون جميعا فى تطويرها .

* * *

وزملاؤنا الجدد بين أديب ولغوى ، وفقيه وقانونى ، وعالم ومؤرخ ، وصحفى وسياسى ، فى غنى عن التعريف . ولا سبيل لى لأن أوفيهم حقهم فى هذا الاستقبال الجماعى فعذرة حقا وكل ما أملك هو أن أرسم الخطوط الكبرى لنشاطهم الأدبى والفكرى .

فالأستاذ أحمد عقبات رب السيف والقلم ،نشأ نشأة شرقية ،ونهل فى اليمن من حياض الثقافة الإسلامية . ثم التحق بالوظائف الإدارية والعسكرية ، وأضحى عقيدا . وله مؤلف فى « واجبات الجندى » ،من فصوله : الجندى والدين ،الجندى والوطن ، الجندى والفلاح ،الجندى والمجتمع .

والدكتور إسحق الحسينى ممثل فلسطين جمع بين الثقافة الشرقية والغربية ، تخرج فى جامعتى القاهرة ولندن . ووقف نفسه على خدمة الأدب واللغة ، فكان أستاذا للغة فى الكلية العربية بالقدس نحو اثنتى عشرة سنة ، وأستاذا للأدب فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وجامعة ماكجيل بكندا ، والجامعة الأمريكية بالقاهرة ، ومعهد الدراسات العربية العليا بجامعات الدول العربية .

وله مؤلفات بالعربية والإنجليزية ، من أقدمها « مذكرات دجاجة » ومن أحدثها « ابن قتيبة حياته ومؤلفاته » .

والأستاذ أنيس المقدسى أحد شيوخ الجامعة الأمريكية ببيروت ، تخرج فيها . واضطلع بتدريس الأدب بها سنين عديدة حتى وصل القمة وأضحى أستاذ المادة ، ويوم أن تقاعد منح لقب أستاذ شرف دائم للأدب العربى . ولم يقف نشاطه عند هذا ، فقد دعى للتدريس فى معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة ، وفى كلية المنقول والمعقول بجامعة طهران . وقام بعدة رحلات شرقا وغربا ، وزار أوربا وأمريكا غير مرة ، واتصل بشتى المعاهد العلمية .

وفى إنتاجه غزارة وتنوع ، منثور ومنظوم ، مقالات وبحوث ، روايات وكتب ، ومن أشهره « أمراء الشعر فى العصر العباسى » الذى طبع غير مرة ،و « الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى الحديث » ، و « ديوان ابن الساعاتى » ورواية « إلى الحمراء » .

والدكتور عبد الله الطيّب رمز الشباب بين الخالدين ، تخرج فى كلية غوردون وجامعة لندن وعهد إليه بتدريس سنة فى معهد اللغات الشرقية بلندن . ثم عاد إلى السودان ليرأس شعبة اللغة العربية فى معهد التربية ببخت الرضا ، ومنه انتقل إلى الجامعة السودانية حيث رأس قسم اللغة العربية ثم اختير هذا العام لعمادة كلية الآداب.وله مؤلفات فى تعليم الأطفال وتاريخ الأدب فى السودان .

والأستاذ عبد الله كنون تربى تربية دينية عربية ، اشتغل فى شبابه الباكر بالتدريس ، واجتذبته الصحافة والسياسة . فدرس فى المعهد العالى بتطوان ، وكان أحد مؤسسى الجمعية الوطنية الأولى التى تلت حرب الريف .

وله مؤلفات وتحقيقات ، من بينها « النبوغ المغربى فى الأدب العربى » ، و« قواعد الإسلام للقاضى عياض » .

والأستاذ على الفقيه حسن درس فى طرابلس والإسكندرية ، وألم بعدة لغات ، فضم التركية والفرنسية والإيطالية إلى العربية . ونشاطه السياسى لا يقل عن نشاطه الأدبى . طالب مع الرعيل الأول بحرية بلاده ، ورأس حزب الكتلة الوطنية .

ومن مؤلفاته «أعيان ليبيا »وهو مجموعة تراجم لبعض الأدباء والسياسين والعسكريين .

والدكتور عمر فروخ شعلة متقدة وحركة دائبة ، تخرج فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وأتم تعليمه فى ألمانيا وفرنسا ، وعرف الإنجليزية والفرنسية والألمانية والأسبانية ، وتخصص فى الأدب والفلسفة الإسلامية ، وأصبح أستاذا لهما بكلية المقاصد .

وله فيهما مؤلفات متلاحقة ، من أخصها : « إخوان الصفاء» ، «ابن باجة » ،و « ابن طفيل » وقصة « حى بن يقظان» ، « أبو تمام » ، « عمر بن أبى ربيعة » ، «ابن الرومى » ، « بشار ابن برد » وظهر له أخيرا « القومية الفصحى » .

والأستاذ قدرى طوقان عالم وأديب ، تخرج فى الجامعة الأمريكية ببيروت ، وعنى خاصة بتاريخ العلوم فى الإسلام . درس فيه وحاضر ، وكتب وألّف ، ومثل بلاده فى عدة مؤتمرات علمية وثقافية . وساهم فى الحياة النيابية ، فكان عضوا فى البرلمان الأردنى مرتين . وهو الآن مدير كلية النجاح الوطنية بنابلس ، ورئيس الجمعية الأردنية للعلوم ، ونائب رئيس الاتحاد العلمى بالقاهرة .

وله عدة مؤلفات ، نذكر من بينها « تراث العرب العلمى » ، « جمال الدين الأفغانى » ، « ابن حمزة » و « التمهيد إلى اللوغاريتمات » .

وشيخنا محمد البشير الإبراهيمى فقيه ولغوى وأديب نشأ بالجزائر فى أخريات القرن الماضى ونهل من علوم الدين واللغة . ثم رحل إلى المدينة ، وهناك أكب على الدرس والبحث وتولى إدارة المعارف . ولكنه آثر العودة إلى الوطن ، وأخذ يلقى دروسا فى الدين والتاريخ . واشترك مع ابن باديس فى تحرير الشعب الجزائرى من الاستعمار الثقافى ، وطالب بتعليم اللغة العربية لصغار التلاميذ . وكان عضوا بارزا فى جمعية العلماء التى انبعث منها أول قبس أضاء طريق الحرية والاستقلال .

وله مؤلفات لا تزال مسوداتها محبوسة فى مكتبته بالجزائر ، منها « أسرار الضمائر العربية » ، و« التسمية بالمصدر » ، و« الاطراد والشذوذ فى العربية ». والأمل معقود على أن يستعيدها قريبا ، وينشرها بين طلاب البحث والدراسة .

والأستاذ محمد الفاضل ابن عاشور فقيه وأديب ، تخرج فى جامع الزيتونة وقام بالتدريس فيه .

أنشأ معهد البحوث الإسلامية ، وانتخب رئيسا للجمعية الخلدونية . تولى القضاء والإفتاء فكان مفتيا للديار التونسية ، ورئيسا للمحكمة العليا الشرعية ، ورئيسا لمحكمة النقض والإبرام .

ومن مؤلفاته « الحركة الفكرية والأدبية بتونس » .

وأختم هذه السلسلة الكريمة بالأستاذ محمد بهجة الأثرى الشاعر والناثر واللغوى ، اشتغل بالتدريس زمنا ، وأولع بالصحافة حينا ، وكتب فى أمهات الصحف والمجلات فى السياسة والأدب والاجتماع منذ عهد بعيد . واختير عضوا بالمجمع العلمى العراقى عام ١٩٤٨ .

وله عدة مؤلفات من بينها « أعلام العراق » ، « محمود شكرى الألوسى وآراؤه اللغوية » ، « الخطاط البغدادى ابن البواب » ، « الأساس فى تاريخ الأدب » .

وبعد فيأيها الزملاء لست فى حاجة أن أقول لكم إن الدار داركم والمجمع مجمعكم ، لكم فيه بقدر ما لكم فى لغتنا المشتركة من نصيب . ويسر إخوانكم المصريين أن يجلسوا إليكم ، ويتبادلوا الرأى معكم فى شئون الفصحى ومعضلاتها .

الفصل السادس

٦ ـ عبد الرزاق محيي الدين (١٩٦٨)

سيدي الرئيس ، سيداتي ، سادتي :

لقد كان حظ مجمع اللغة العربية من شيوخ العراق وعلمائه عظيما ، تواردوا عليه فاضلا بعد فاضل وإماما بعد إمام ، ويعدون بحق في مقدمة مؤسسيه ومؤيديه اشترك في رعيله الأول الأب أنستاس الكرملي ، وهو من تعرفون وثوقا في الرواية ، وتمكنا من الدراية ، حذق عدة لغات قديمة بين شرقية وغربية ، ووقف حياته على خدمة اللغة العربية ، ودوى صوته في مجمعكم بضع سنين ، وردد كثيرا من آرائه بين العرب والمستعربين ، وهو دون نزاع من دعائم النهضة اللغوية المعاصرة في العراق .

وخلف من بعده إمام جليل وشيخ عظيم ، هو المرحوم محمد رضا الشبيبي الذي قضى معنا سبعة عشر عاما مرموق المكانة ظاهر الجلالة ، يعمل في دأب ، ويؤمن بما للعربية من شأن في جمع الكلمة وضم الصفوف . ارتبط بالمجمع بأوثق رباط ، فلم يتخلف قط عن مؤتمر من مؤتمراته ، ورأس عددا غير قليل من جلساته ، وأسهم مخلصا في بحوثه ودراساته أحب المجمع ، وأحبه المجمعيون جميعا على السواء .

وفي عام ١٩٦١ حظي مجمع اللغة العربية بشيخ ثالث من كبار شيوخ العراق ، هو الزميل الكريم الأستاذ محمد بهجة الأثري ، الشاعر والناثر ، الكاتب والخطيب ، اللغوي والأديب ، المؤرخ والفقيه ، فأمدنا بفيض من دقيق علمه وعميق بحثه ؛ ولا يزال يمدنا في كرم وسخاء نستشيره فيشير ، ونسأله فيجيب ، ونكتب إليه فيرد بعد درس وإحاطة . وأشهد أنه يعاوننا دون انقطاع في المؤتمر وقبله وبعده : يؤمن بأن رسالة المجمع رسالته ، ورسالة كل عربي يعتز بعروبته .

* * *

واليوم ينضم إلى زمرة المجمعيين علم آخر من أعلام العراق ، رابع أربعة كلهم علم وفضل وسمو ونبل ، وهو الدكتور عبد الرزاق محيي الدين رئيس المجمع العلمي العراقي . عرفناه قبل أن ينضم إلى هذه الزمرة ، فعرفنا فيه الروح الهادئة ، والنفس الزكية ، والنظرة الصائبة ، واتصلنا به عن قرب في مؤتمر بغداد ، فوجدناه يذوب رقة ويفنى في خدمة ضيوفه وزملائه . حرص دائماً على أن يكون إلى جانبهم في حلهم وترحالهم ، ولم يفته أن يشترك في درسهم وبحثهم برغم ما كانت تلقيه عليه الوزارة من أعباء ، وما كان يضطلع به من مسئوليات جسام .

وكم يسعدنى أن أنوب عن المجمع فى استقباله ، وأخوف ما أخاف ألا يتسع الوقت لكى أوفيه حقه، وما أكثر جوانبه وأخصب نواحيه. وإنى لأستقبل فى شخصه العربى الصادق فى عروبته ، والوطنى الغيور على وطنه ، والشاعر والكاتب ، والعالم والباحث، والسياسى ورجل الدولة :

وقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لسانا ناطقا فقل

وحسبى أن أرسم صورا آمل أن تعبر عن بعض جوانبه :

• • •

عبد الرزاق محيى الدين عربى صميم ، تملأ العروبة قلبه ، وتجرى فى دمه ، استمدها من أصول عالية ، وغذاها بغذاء سليم ، فهو يصعد إلى أسرة عربية من أسر « جبل عامل » بلبنان ، رحلت إلى العراق فى منتصف القرن السابع للهجرة ، واستقر أغلبها فى النجف الأشرف ، وامتد فريق منها إلى لواءى الحلة والديوانية ، ولا تزال لها بقايا فى بعض مدن لبنان كصور وبيروت ، وتنسب إلى جدها الأعلى محيى الدين الذى كان يلقب بالعاملى إشارة إلى وطنه الأصلى ، والحارثى الهمدانى ؛ تنويها بأنه من أولاد الحارث الهمدانى أحد قواد على كرم الله وجهه :

وفى بيت من بيوت العلم والدين، ولد عبد الرزاق فى نهاية العقد الأول من هذا القرن ، ونشأه أبوه نشأة عربية إسلامية ، فحفظ القرآن ، وتلقى فى جوامع النجف علوم العربية والفقه وأصوله ، والكلام والمنطق . وما أشبه جوامع النجف بالجامع الأزهر ، تسير على الطريقة التقليدية ، وتخرج فقهاء فى الدين وعلماء فى اللغة :

وشاءت الأقدار أن يستكمل درسه فى مصر ، فأوفد فى بعثة إلى مدرسة دار العلوم — كلية دار العلوم الآن — وهو فى الثالثة والعشرين . وتفتحت أمامه أبواب فسيحة للدرس والبحث فى علوم العربية وآدابها. وامتد نشاطه إلى نواح اجتماعية هامة ، فى مقدمتها «إنشاء ناد» للطلبة العرب ، ولا يزال قائماً حتى اليوم، وفى هذا ما يعبر عن ميوله المبكرة :

وما إن أتم مهمته حتى عاد إلى العراق عام ١٩٣٧ ليؤدى رسالته ، فقام بالتدريس بدار المعلمين العالية ببغداد ، وقضى فيها نحو سبع سنين . ويظهر أنه لم يقنع بما انتهى إليه من درس فى العلوم العربية وشاء أن يفرغ لها مرة أخرى ، وأن يتعمق فيها ما وسعه : فالتحق بالدراسات العالية بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، وحصل على درجتى الماجستير والدكتوراه :

ومن هذا الزاد الوفير أخذ ينفق عن سعة ، يغرس فى تلاميذه روح الوطنية الصادقة والقومية السليمة ، وينشر دروس العربية الحقة . اختير أستاذا للبلاغة بكلية التربية ، ثم عميدا لها ، وأسهم فى بناء جامعة بغداد ، وكان نائبا لمديرها فترة من الزمن ، وحظى بعضوية المجمع العلمى العراقى ، وانتخب رئيسا له منذ عام أو يزيد ، خلفا للمرحوم محمد رضا الشبيبى .

وهو يرى أن العروبة سمحة كريمة ، تقوم على الإخاء والمساواة ، وتنفر من دعاوى العنصرية . وكم من دول عربية التأم فيها شمل أجناس متعددة . ويحرص العرب دائماً على أن يعيشوا فى وئام مع الترك والفرس ، ولا يترددون فى أن يعقدوا صلات شرقاً وغرباً ، ما دام ذلك لا يعدو على كيانها ، لا يسىء إلى مقدّساتهم . وعنده أن الإخاء العربى الكردى فى العراق راسخ الأصول متين الدعائم . وسائله ميسرة وأسبابه متوافرة . ولا يعكر صفوه إلا الدخلاء وذوو الأهواء ؛ الذين لا يعيشون إلا فى جو الفرقة والخلاف يستمسكون بشعارات زائفة ، ويتعصبون لقوميات مصطنعة .

وللقومية تجار لا يقلون خطرا عن تجار الحرب والسياسة ، يثيرون الفتن ويبثون السموم ولا يرعون فى الوطن إلاّ ولا ذمة . وإتقاء لخطرهم أثار عبد الرزاق محيى الدين فى الصحافة العراقية عام ١٩٦٠ حوارا جريئا وصريحا حول القومية الكردية . وقد بدا منه أن « التراحم بين العرب والأكراد أمر متوارث من أحقاب التاريخ » ولا يفسده إلا تيارات أجنبية ودعايات هدامة ، وعلى الاستعمار والماركسية فى ذلك وزر كبير . وواجب العرب والأكراد أن يدرأوا هذه الفتنة ، وأن يتلاقوا وجها لوجه ، ويتبادلوا الرأى فى صراحة ، فيمهدوا السبيل لتراحم أكبر ، وتآزر أقوى . واستطاع زميلنا أن يجمع أطراف هذا الحديث فى كتاب له عنوانه : « من أجل الإنسان فى العراق » . وفى هذا الكتاب درس وعظة ، وما أجدره أن يقرأ . وفتنة الأكراد لها أشباه ونظائر فى أوطان عربية أخرى .

والدكتور عبد الرزاق يقظ ، يقف للدعايات الهدامة بالمرصاد ، لأنه يخشى منها على الوطن والدين والقومية . لم يتردد فى أن يكشف ستارها ، ويحارب أنصارها ، ويلاحظ بحق أنهم فى الأغلب من الانتهازيين الذين يتمسحون بالأعتاب ، وينتقلون من حاكم إلى حاكم ، ناصروا العهود الماضية ، وفى غير ما خجل سارعوا إلى التعلق بأهداب العهود الحاضرة ، واتخذوا من بعض المبادىء الهدامة شعارا ظنوا أنه يكفر عن ماضيهم ، ويعفى على سوأتهم ، وقد حمل الزميل عليهم حملة شعواء ، وناضلهم بلسانه وقلمه فى جرأة وبسالة ، ولاقى فى سبيل ذلك ما لاقى من نفى واعتقال ، وقضى فى السجن زمنا ،

ولم يخرج منه إلا فى ثورة الرابع عشر من شهر رمضان التى قضت على حكم عبد الكريم قاسم :

وفى المحنة الكبرى التى مر بها العالم العربى فى يونية الماضى ، لم يقنع عبد الرزاق محيي الدين ، رب القلم فحسب ، بأن يتابع الأحداث فى مكتبه وداره ، بل أبى إلا أن يشرف على ميادين المعركة بنفسه ، وتعرض مع نفر من زملائه لخطر كبير .

تلك هى عروبة زميلنا ، وهذه هى بعض صورها وآثارها .

* * *

والزميل الكريم شاعر قديم ، قرض الشعر ولما يبلغ العشرين . أرسل منه بواكير فى النجف ، ثم تلتها قصائد شتى فى القاهرة وبغداد ، واستمر وحيه يمده إلى عهد غير بعيد . وأخشى ما أخشاه أن تعدو أعباء السياسة والشئون العامة على شاعريته ، فنحرم من خياله البديع ونغمه الرقيق . وأعلم أنه جمع شعره فى ديوان لم ينشر بعد ، ونأمل أن يخرج إلى النور قريبا ، وأن يوضع إلى جانب نظرائه من إنتاج شعراء الجيل ، وما وقفنا عليه منه يشهد بدقة المعنى ، وصفاء الأسلوب ورقة الخيال . ونحرص على أن نقدم نماذج منه متدرجة مع الزمن .

فى عام ١٩٣٠ قال شاعرنا فى شبابه بالنجف :

إذا الشعر لم يحدث بشعبك ضجة　　فتلك قواف قد نُظمن وأوزان
وإن لم يكن حر العقيدة موقظا　　فليس له فى نهضة الشعب إحسان

وفى عام ١٩٤٦ قال فى حفل لتكريم خليل مطران بالقاهرة :

شاعر القطرين بوركت صِبا　　وشبابا ومشيبا واكتهالا
جئت والنهضة فينا طفلة　　بعد لم تبلغ فطاما أو فصالا
وتباشير حياة حرة　　شع فى الوادى سناها والتلالا
ورفاق عِدَّهُ إخوان الصفا　　نفروا واستنفروا الناس عجالا
كنت فى القادة منهم فكرة　　ومن الساقة إذ أعيوا كلالا

* * *

مصلح فى غير دعوى مصلح　　ونبى لم يكلفنا القتالا
تخــذ الفن له آلهة　　وحوارى الفن أنصارا وآلا
سل بيوت الفن من عمَّرها　　وأشاع الخير فيها والجمالا

وفى عام ١٩٥٧ قال فى ذكرى إقبال :

ذكراك إقبال نحييها فتحيينا	كآية الذكر نتلوها فتهدينا
أهاب بى منك روح فاستجاب له	روح أبى القول فى مجهولة طينا
إقبال د ينك ما يقضى بشاردة	لو أن شعباً وفى حقا بماديننا
جاهدت فى الله عن أهلى وعن وطنى	فى حين سيموا به خسفا وتوهينا
وحين زعزعت الشذاذ طارئة	حصونهم وأحالتها مبادينا

* * *

أما عبد الرزاق محيي الدين الباحث والمؤلف فإنتاجه متنوع ، وضع كتبا مدرسية فى المطالعة وتاريخ الأدب لتلاميذه وأبنائه ، وعنى بالتحقيق ، فحقق جزءا من كتاب « المقايسات » وآخر من كتاب « البصائر والذخائر » وثالثا من كتاب « الوجيز فى تفسير القرآن العزيز » . وقام بدراستين هامتين ، أولاهما « أبو حيان التوحيدى » ، والثانية « أدب المرتضى » .

ويدرج فى تحقيقه على نسق واضح ومنهج علمى سليم ، فيثبت أولا نسبة الكتاب الذى يحققه إلى صاحبه . ويجمع من أصوله كل ما وجد السبيل إليه . ويصف المخطوطات وصفا كاشفا . ويقدم فى الصلب النص الذى ارتضاه ، ويشير فى الهامش إلى الروايات والقراءات المغايرة ، ويتدارك ما فات الناشرين السابقين . ولا يفوته أن يوضح الكلمات الغامضة ويعرف ببعض الشخصيات ، ويحقق بعض التواريخ .

وفى تحقيقه لكتاب « المقابسات » ، وكتاب « البصائر والذخائر » وفاء لأبى حيان التوحيدى الذى أولع به ، وكشف عن كثير من جوانبه . وبرغم أن هذين الكتابين قد نشرا من قبل ، فإنه أضاف إليهما جديدا ، وآمل أن يستكمل تحقيقهما على طريقته ومنهجه .

وفى تحقيقه لكتاب « الوجيز » استجابة لرغبة كريمة أبداها المرحوم والده ، فقد طلب إليه أن ينسخه وهو لا يزال فى صباه الباكر ، وكان لابد له أن يفعل ، وتلك شيمة من شيم العرب وأخلاق الإسلام . ونحس أن محققنا متحرج نوعا من اداء مهمته ، ولا أدل على ذلك من أنه لجأ إلى شيخ ثبت فى سير الرجال ليترجم للمؤلف ، وما ذاك فى أغلب الظن إلا لأن صاحب كتاب « الوجيز » هو على بن الحسين بن محيي الدين العاملى الحارثى الهمدانى ، وهو من أجداد زميلنا الأعلين .

وباع الدكتور عبد الرزاق فى البحث والدرس طويل ، وجلده عظيم ، وصبر جميل ، وكتاباه « ابو حيان التوحيدى » و « أدب المرتضى » آية فى ذلك . وعندى أن كتابه الأول فى قمة إنتاجه ، وقف عليه عدة سنوات من سنى الشباب والتفرغ ،وتهيأ له بأكمل أسباب البحث والتمحيص فجمع كل ماتيسر له من كتبه المطبوعة والمخطوطة ، وأضاف إليها ما اقتبسه الأقدمون من كتبه التى ضاعت أصولها ، وقرأ ذلك كله فى روية وتأن ، وفهم وتفهم . مستعينا بما توافر لديه من زاد أدبى ولغوى كبير . وتتبع ماكتب عن أبى حيان قديما وحديثا ، فأخذ منه ماأخذ ، ورفض مارفض .

وأبو حيان شخصية عريضة ، متعددة الجوانب ، ويمكن أن يعد بين أصحاب دوائر المعارف . عرض للنحو واللغة ، والشعر والأدب ، والفقه والكلام ، والتاريخ والسياسة ، وقد قيل عنه إنه فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة . وكان صوفى السمت ، ولعل التصوف من أظهرماعرف به ، وأولع بالنقدوالحكم على الرجال ، وتعرض لكثير من معاصريه والسابقين عليه ، ومؤلفاته مصدر هام ، وصورة من أوضح الصور عن الحركات الفكرية والأدبية فى القرن الرابع الهجرى . ولم يسلم هو نفسه من النقد والتجريح ، فطعن فى بعض رواياته ، وجرح قدرا من أقواله . واختلف فى نسبه : أفارسى هو أم عربى ؟ وفى مذهبه : أشيعى هو أم سنى ؟ وفى دينه : أمؤمن هو أم زنديق ؟

وكان على الدكتور عبد الرزاق محيى الدين أن يعالج ذلك كله بروحه الهادئة وحكمه المتزن . وهو فى الواقع هادئ فى بحثه هدوءه فى سلوكه وتفكيره ، يسلسل الوقائع والأحداث ، ويرتب المصادر ترتيبا زمنيا ، ويتتبع مختلف الروايات ، ويناقشها ويمحصها الواحدة تلو الأخرى . ويعلن أنه ليس من المولعين بافتراض الفروض ؛ ويمقت التعميم والدعاوى العريضة ، ويؤثر أن يحصر بحثه فى دائرة ضيقة ما أمكن ، كى يصل إلى نتائج مقنعة . وأشهد أنه قل أن رأيت المنهج التاريخى قد طبق بإحكام فى دراسة مثلما طبق فى كتاب « أبو حيان التوحيدى » .

وقد انتهى بصاحبه إلى أمور حاسمة ، فقرر أن أبا حيان عربى ، وأن طفولته غير معروفة . وفسر طابعه الموسوعى بحرفة الوراقة التى تمد لمحترفها فى مساحة ثقافته ، وتحول دونه والعمق والتركيز والتخصص . ورد مايعزى له من اختلاق أو وضع إلى فنه الأدبى ، ومنحاه القصصى والروائى .وأثبت أن أبا حيان لم يكن شيعيا ، ولا عظيم العناية بالفرق ، وإن جرى على قلمه شئ من آراء المتكلمين والمعتزلة بوجه خاص . ورفض تلك التهمة التى رددها أكثر من واحد ، والتى تعد أبا حيان فى مقدمة الزنادقة فى الإسلام ، وأبان فى وضوح أن أسلوبه متفاوت بحسب مراحل سنه ، وحاول حصر هذه المراحل وبيان خصائصها ومميزاتها .

ومع هذا الدرس العميق المستفيض يختم زميلنا الكريم مقدمة كتابه قائلا فى تواضع العلماء ونزاهة المحققين : « إن عملى هذا لايزيد على دليل يسترشد به دارسو « أبى حيان » ، وإلا

فلاتزال نواح كثيرة من فنه تحتاج إلى دراسة أعمق ، ، وإلى بحث أوفى ، وإلى كتابات دونها كفايتى وجهدى » .

* * *

وأخيراً لست أدرى إن كان يحل لى أن أعرض هنا لعبد الرزاق محيي الدين السياسى ، وقد شغل فعلا بعض المناصب السياسية الكبرى ، فتولى الوزارة غير مرة ، واختير « وزيرا للوحدة » ،و « أمينا عاما للقيادة السياسية الموحدة » . وفى وسعى أن أقرر أنه وإن كان علَوِىَّ المذهب ، فإنه ، من أنصار معاوية فى ممارسته للسياسة ؛ فلا تنقطع الشعرة التى يمسك بها ، وإن يئس منها أحل محلها شعرة أخرى . وإنى لأعرف كثيرا من آرائه التى تتصل بالمشاكل العربية الكبرى ، ولكن لعل من الخير أن تعرض فى مجال آخر .

ويسعد المجمع والمجمعيين أن يستقبلوا اليوم الدكتور عبد الرزاق محيي الدين الشاعر والأديب ، والعالم واللغوى ، وهم لامحالة واجدون فى علمه وأدبه عونا كبيرا وذخيرة لاتنفد .

الفصل السابع

٧ — محمد الحبيب ابن الخوجة (١٩٧٢)

زرت تونس منذ ثلاث سنوات فى مهمة خاصة بتكليف من المجمع ، ولمست حين ذاك أن للعربية فيها جذوراً أصيلة وعميقة ، برغم منافسة الفرنسية الشديدة ، وتعصب فريق لها ، وبدت لى آثار ذلك واضحة فى أقلام الكتاب وعلى ألسنة الخطباء فى الإذاعة والصحافة ، فى الدرس والمحاضرة ، فى الأندية والمجالس ، بل فى الحديث الدارج بين الناس ، ولم يتسع لى الوقت لتفهم مدى هذه الظاهرة ، والوقوف على ماوراءها من عوامل وأسباب .

ونعمت هذا العام بزيارة هذا القطر الشقيق مرة أخرى ، فتوثقت صلتى به ، ووقفت على كثير من شئونه ، وزاد اتصالى بشبابه وشيوخه ، وتنقلت بين أطرافه وجوانبه ، وزرت عدداً غير قليل من مدنه وشواطئه . ولست فى حاجة أن أتحدث عما حظيت به من رعاية وعناية أعتقد مخلصا أن مردها الأول إلى مجمعكم الموقر ، وإنى لعاجز كل العجز عن أن أوفى تونس والتونسيين حقهم من الحمد والثناء . أما الزملاء والأصدقاء فأنا مدين لهم بمودتهم الصادقة وأخوتهم الكريمة . وأتيحت لى الفرصة مرة أخرى لأتبين فى دقة موقف العربية فى هذا القطر الشقيق ، وقد وجدتها صامدة لتقلبات الدهر ، تصارع وتجالد ، وتسترد مكانتها بعدما أقامه الاستعمار فى طريقها من أشواك ، ولاسبيل بحال للغة أخرى أن تحل محلها .

ولاغرابة فالشعب التونسى عربى صميم ، عربى فى أصله ونشأته ، يعتز بماضيه وتراثه ، ويسعى جاهداً إلى أن يستعيد مجد الأغالبة والحفصيين ، عربى فى حاضره ، يحس إحساساً صادقاً بعروبته ويشعر شعوراً خالصا بأنه جزء من الوطن العربى الكبير . يهتز طربا لأمجاده وانتصاراته ، ويأسى حزنا وكمدا على مايحل به من ويلات ونكبات . وإن شعبا أنجب ابن رشيق القيروانى بالأمس وأبا القاسم الشابى اليوم لايمكن أن تصاب العربية فيه بسوء .

ومن حسن حظ هذا البلد الأمين أن قام فيه معهد من معاهد الإسلام الخالدة ، وهو جامع الزيتونة ، ثمرة الماضى وعون الحاضر . وهو أحد مساجد ثلاثة فى أفريقيا لها شأنها فى تاريخنا الثقافى الطويل ، قام إلى جانب الأزهر والقرويين على رعاية التراث الإسلامى وتعهده . أسس أولا ليكون مصلى ومقرا للعبادة ، ثم شاء الحفصيون أن يجعلوا منه أيضاً معهدا للدرس والبحث . فجلبوا إليه الشيوخ والعلماء من الأندلس وصقلية . وأصبح جامعة إسلامية مكتملة ، تعنى بالعلوم النقلية والعقلية ، فدرس فيها الفقه والحديث والتفسير ، والتاريخ ، والأدب ، واللغة ، كما درست

الفلسفة والرياضة والطب . وكان لهجرة علماء الأندلس فى القرن السابع الهجرى إلى تونس شأن فى ازدهار ثقافى كبير عمر بضعة قرون . واتصلت الزيتونة بالمعاهد الإسلامية الأخرى وبخاصة الأزهر الشريف .

وتخرج فيها عدد غير قليل من الأئمة والعلماء ، والكتاب والأدباء ، ويكفى أن أشير إلى أن ابن خلدون عالم تونس الكبير نهل من حياضها .

قضت هذه الجامعة التونسية نحو ثمانية قرون تسير فى طريقها ، وتنشر العلم والثقافة . وفى القرن التاسع عشر أريد تطويرها ، والتطور سنة من سنن الحياة ، ولم ير القائمون عليها بأسا فى أن يسايروا الزمن ويلائموا بين الحاضر والماضى . وما الجمعية الخلدونية إلا صورة من صور هذا التطور ، أنشئت عام ١٨٩٦ على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام ، وقد كان له بتونس صلات وثيقة ، وقصد بها أن تعلم فيها العلوم العصرية باللغة العربية ، وأقبل عليها طلاب الزيتونة ورغبوا فى أن يمتد هذا التعليم إلى معهدهم ، واستجاب المسئولون لذلك ، وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد . وجمعية قدماء الصادقية دعامة أخرى من دعائم التجديد والإصلاح ، ربى أبناؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم مالبثوا أن مزجوها بالثقافة العربية ، فتلاقت الصادقية فى البداية مع الخلدونية ، وقد قاما معا على أكتاف الزيتونة ، وجاء الصدى للتطور المنشود .

وقد أضحت الزيتونة نفسها واحدة من كليات جامعة تونس الحديثة ، وتضطلع بوجه خاص بعلوم الشريعة وأصول الدين وتؤدى رسالة عظمى فى ميدان الثقافة التونسية ، ولا يقف إشعاعها عند تونس وحدها ، بل يمتد إلى أبناء أقطار أخرى فى أفريقيا وآسيا ، يفدون إليها وينهلون من حياضها .

وللزيتونة أياد على مجمعنا هذا ، أسهمت فيه منذ إنشائه ، أمدته بأئمة أعلام ، وغذته بغذاء صاف كريم ، فكان الخضر حسين من أعضائه المؤسسين ، ولا تزال بحوثه القيمة حجة يرجع إليها . واختير الشيخ الجليل محمد الطاهر ابن عاشور بين أوائل أعضائه المراسلين . وهو من نعرف تفانيا فى خدمة اللغة والدين . استمسا كا بكلمة الحق ، أطال الله بقاءه ونفع به الإسلام والمسلمين .

وحسنى عبد الوهاب ، وإن كان صادقى النشأة ، لم يفته أن ينهل من جامع الزيتونة ، فأكثر التردد عليه وعلى خزائن كتبه حتى اختلط بالمحيط الزيتونى وامتزج به وقد كان من أعضاء المجمع المؤسسين . ونعمنا معه بزيتونى آخر كبير هو الخالد الذكر محمد الفاضل ابن عاشور وقد عرفتموه فاضلا حقا ، وعالما كبيرا ، وإماما من أئمة الأدب ، واللغة والفقه والتشريع .

* * *

وها نحن أولاء نستقبل اليوم تلميذه وصفيه ، الشيخ محمد الحبيب ابن الخوجة ، وهو زيتونى النشأة والثقافة نستقبله ليشغل كرسى أستاذه ، ولو كان الأمر ميراثا ما كان أحد أحق به منه

على أنكم اخترتموه وأنتم على يقين من أنه خير خلف لخير سلف . وما أظن أنى رأيت تلميذا شبيها بأستاذه شبه الحبيب بالفاضل ، يحاكيه فى زيه وسمته ، ويتسم بما أتسم به من شمائل وخلال ، ويسير على نهجه فى درسه وبحثه .»

وقد قدم الأستاذ لكتاب « مناهج البلغاء » الذى أخرجه التلميذ ، وفى هذه المقدمة مايعبر عن البنوة الروحية والود الأثر ، يقول الفاضل : « إنه سرى فى نفس الحبيب ماسرى من نفحات نفسى ومدارك عقلى وحسى » . ورحمة الله على الراحل الكريم ، ومرحبا بالقادم العزيز ، وسأترجم له فى اختصار ، وأشير إلى شىء من جوانب نشاطه وثقافته .

ولد الحبيب فى أوائل العقد الثالث من هذا القرن ، ونشأ فى بيئة دينية محافظة ، وأسهم فى تثقيفه البيت والمدرسة ، فالتحق بالمدارس القرآنية الابتدائية ، وكان أبوه يرعاه ويوجهه ، ويشرف على دروسه فى اللغتين العربية والفرنسية ، وفى سن الرابعة عشرة دخل المدرسة الصادقية ولم يكد يمضى فيها عامين حتى بدأت الاضطرابات السياسية ، ولم يكن بد من أن يسهم فيها شاب مثله ، وداعى الوطن عنده مستجاب دائما ، وكان جزاؤه أن نال شرف السجن والطرد من المدرسة فى سبيل أمته وبلاده ، وما أن أطلق سراحه حتى ألحق بجامع الزيتونة ، وفيه أتم دراسته الثانوية والعالية . واستطاع أن يضيف إليه دراسة قانونية ، وحصل على شهادة الحقوق التونسية . ويوم أن اكتمل إعداده اجتذبته المعاهد المختلفة ، فدعى للتدريس فى ثانوية الجمعية الخلدونية ، وثانوية الدراسة الزيتونية ، ومعهد البحوث الإسلامية للجمعية الخلدونية ، ولما يجاوز الرابعة والعشرين . وفى عام ١٩٥٠ نجح فى مناظرة التدريس من الطبقة الثانية ، وانتدب بعد ذلك بقليل أستاذا بالتعليم العالى بالجامعة الزيتونية ، وقضى فيها إحدى عشرة سنة . ثم شاء أن يضيف الثقافة الغربية إلى ثقافته العربية فالتحق بجامعة باريس التى منحته درجة الدكتوراه بمرتبة « الامتياز الفائق » بعد عامين اثنين ، وأصبح فى آن واحد الشيخ الزيتونى والدكتور السربونى . ثم عاد إلى وطنه ينشر العلم فى أرجائه ، ويوفى الزيتونة بعض حقها عليه ، وقد عين أستاذا بها ، ولم يبعده عنها إلا عمل بمصلحة النشر بوزارة الثقافة أشرف فيه على إخراج طائفة من الكتب القيمة ، وهو اليوم عميد الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين .

ولم يقف نشاط الحبيب عند تونس بل جاوزها إلى أوساط ثقافية مختلفة ، فدعى للتدريس فى جامعة محمد الخامس ، والقرويين بفاس ، وجامعة بنغازى ، وبكلية الشريعة والدراسات الإسلامية بالبيضاء . وحاضر بدار الفكر بالرباط ، وفى الجزائر بدعوة من وزارة الثقافة . وكان للمشرق فيه نصيب ، فحاضر فى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، وفى جامعة آل سعود بجدة . أما رحلاته وأسفاره فمتعددة ؛ زار فى العالم الإسلامى القاهرة ، وبيروت ، وجدة والمدينة ، وكراتشى ، وفى أوربا باريس ، ولندن ، وبرلين ، وبون ، وفرنكفورت ، وليبتز

وبلجراد ، وبودابست .وأسهم فيما يزيد على عشرة مؤتمرات ، بين أدبية وثقافية ، عقدت في تونس أو في غيرها من عواصم العالم الإسلامي . واشترك في عدة هيئات ، فهو عضو بلجان الموسوعة الفقهية وإحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، وعضو قديم بالجمعية الخلدونية ، وعضو بالشبيبة المدرسية لجمعية قدماء الصادقية ، ورئيس للشبيبة الزيتونية ، وجمعية طلبة شمالي أفريقيا .

* * *

وما أشبه الحبيب في نشاطه العلمي بشيخه الفاضل ، إنتاجه غزير ومتنوع ، درس وحاضر وحقق وأخرج ، وكتب وألف ، كتب بالعربية وبالفرنسية معا ، قام بهذا كله ولما يبلغ الخمسين في نشاط الشباب ورجاحة الشيوخ . ويدور إنتاجه حول أبواب ثلاثة : بحوث إسلامية ، ودراسات في الأدب واللغة والتاريخ ، وتحقيق لبعض نفائس التراث القديم . فعرض الزميل الكريم للعمل والجهاد في الإسلام ، وعالج موضوع الأخلاق الإسلامية وموقف الإسلام من التطور والتجديد . وقد ظهرت سلسلة من هذا أخيرا تحت عنوان : «مواقف إسلامية» . وعنده أن الإسلام دين جد وعمل لا خمول وكسل ، والعمل فيه مناط التكليف وأساس المسئولية ، . «وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون» والجهاد لفظة إسلامية واسعة الدلالة يقصد بها خاصة مجاهدة العدو الظاهر والعدو الباطن . وترى مجاهدة العدو الظاهر أولا إلى نصحه ودعوته إلى الرشاد ورفع راية الأمن والسلام ، فإن أبى إلا العدوان والخصومة لم يكن بد من الذود عن الحياض والدفاع عن دار الإسلام . وليس عدونا الباطن شيئاً سوى أهوائنا وشهواتنا ، ومجاهدتنا لها هي الجهاد الحقيقي أو الجهاد الأكبر ، لنقف في طريقها ونترفع عن الخطايا والدنايا . ولم يكن الجهاد في الإسلام قط مجرد عدوان للظفر والغلبة ، أو الاستعمار والسيادة ، ولا محل لأن يفسر فقط بالحرب والقتال ، بل هو معالجة طويلة ومتنوعة ، ربما كانت الحرب آخر وسائلها . ومن الخطأ أن يقال إن الإسلام لم ينتشر إلا بالسيف . ولاشك في أن الدعوة الإسلامية السمحة تقوم على أساسين هامين : كفالة الحريات ، وإقرار السلام «لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي» ، «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله» ، «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله» . ويحرص الزميل الكريم في بحوثه هذه على أن يصدر عن الكتاب والسنة وأن يستخلص منهما الأهداف الحقيقية للإسلام . وهو يرى أن تعاليم الإسلام تواجه شئون الدين والدنيا ، وليس فيها مايتعارض مع أصول الحضارة الصحيحة أو الرقي السليم . أما الدعايات الهدامة ، والإيديولوجيات الكاذبة فليست من الدين ولا من الحضارة في شيء . وهل من سبيل لأن تقوم حضارة على الماديات وحدها . إنها بذلك أشبه ماتكون بحياة الغابات . والجاهلية الأولى والإباحية المطلقة ، وهذا ماتشقى به بعض المجتمعات الغربية اليوم ، وماأجدر مجتمعاتنا الإسلامية

أن تتحرر من هذه الآفات . وللشيخ حديث طويل فى هذا ألقاه تحت عنوان : « الإسلام وأزمة مجتمعاتنا الحاضرة » بالجزائر فى ديسمبر الماضى بمناسبة الأسبوع الثقافى التونسى .

* * *

وقد عنى زميلنا بالدراسات الأدبية واللغوية والتاريخية عناية كبيرة ، فعرض لبعض الكتاب والشعراء القدامى والمعاصرين أمثال الشاب الظريف ، وصفى الدين الحلى ، وشوقى ، والحارم وأحمد أمين ، واتجه خاصة نحو الأدب التونسى ، يحيى ماضيه ،ويحلل حاضره، تتبع مراحله، من الفتح والعهد الأغلبى إلى الدور العبيدى والصنهاجى ، ومنه إلى العهد الحفصى ثم التركى، ويقف عند العصر الحديث : عصر النهضة والتجديد . وله عشر محاضرات فى الشعر العربى المعاصر بتونس ألقيت فى معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ، ولم يفته أن يعالج موضوع الأزجال والموشحات فى الأندلس وبلاد المغرب العربى .

واستوقفته الدراسات النحوية والبلاغية طويلا ، فدرس نشأة النحو العربى ، وبيّن المدارس النحوية المتعاقبة فى المشرق العربى ، وأشار إلى ماأدخل على النحو من إصلاحات وتجديدات وعلى نحو شبيه بهذا تصدى لنشأة علم البلاغة والمذاهب البلاغية ، وعالج قضايا النقد وما يتصل به . وفرّق بين المدارس البلاغية المختلفة ، وبيّن أثرها فى الفنون الأدبية .

وله بحث طريف ودقيق فى هجرة الأندلسيين إلى أفريقيا فى القرن السابع الهجرى، وهى هجرة أشرنا إليها من قبل،وسبق للشاعر الطليطلى أن توقعها قبل ذلك بنحو قرن ونصف حين قال :

ياأهل أندلس شدوا رحالكم	فما المقام بها إلا من الغلط
السلك ينثر من أطرافه وأرى	سلك الجزيرة منثورا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه	كيف الحياة مع الحيات فى سفط

وقد اتجه مهاجرو الأندلس نحو شمال أفريقيا ، فاستقر به منهم من استقر ، وأوغل فى الرحلة فريق آخر ، اتجه نحو مصر والشام والحجاز ، وكان لتونس من هؤلاء المهاجرين نصيب كبير ، نزلوا أهلا ، وكانا سهلا ، وأسهموا فى الحضارة والثقافة التونسية إسهاماً واضحاً ، ولاتزال فى تونس أسر معروفة بأصولها الأندلسية ، وأسرة آل عاشور واحدة منها . ويحرص الأستاذ الحبيب على أن يقف عند الأثر الثقافى لهذه الهجرة ، ويلاحظ بحق أن هؤلاء المهاجرين قد غذوا الحركة الفكرية فى تونس بغذاء خاص.فكان منهم القراء والمحدثون ، والفقهاء والمؤرخون

والأدباء والعلماء . ويسرد صاحبنا أسماء عدد وفير منهم ، نذكر من بينهم ابن الأبار الأديب الشاعر من بلنسيه ، وكان من أوائل الوافدين (٦٣٥ هـ) ، وابن البيطار (٦٤٥ هـ) النباتي الكبير ، وهو من مالقة ، أقام بتونس زمنا ، ثم رحل إلى مصر ، وكان رئيس العشابين بها ، وابن سيد الناس (٦٥٧ هـ) الفقيه والمحدث تلميذ ابن خروف وابن جبير ، وهو من أشبيلية ، وابن عصفور (٦٦٩ هـ) النحوى المشهور تلميذ الشلوبين ، وهو من أشبيلية أيضاً ، وحازما القرطاجنى (٦٨٤هـ) الشاعر والناقد واللغوى ، ولزميلنا صلة وثيقة به سنعرض لها بعد قليل . وعن هؤلاء وزملائهم الآخرين أخذت الأسانيد الأندلسية وعرفت المذاهب النحوية ، وحفظ الشعر والأدب الأندلسى وكتب العلم والتاريخ . ونشأت باختصار مدرسة أندلسية تونسية كان فيها الفقهاء والمحدثون ، والنحاة واللغويون ، والنباتيون والرياضيون .

وللشيخ الحبيب ولوع خاص بإحياء التراث وتحقيق النصوص ، وأغلب الظن أن شيخه الأكبر الطاهر بن عاشور وأستاذه الفاضل غرسا فى نفسه ذلك . فأولع به فى شبابه الباكر ، وكان من أحب الأشياء إليه أن يتردد على المكتبة العبدلية ، وأن يقتنى نفائس المخطوطات .

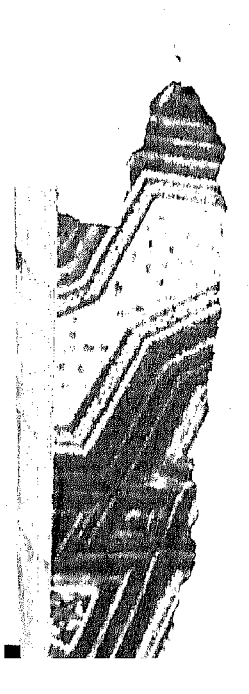
وقد حقق وأخرج كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء » لحازم القرطاجنى ، وهو الذى قدمه لجامعة باريس ، ونال به شهادة الدكتوراه . واتصلت عنايته بحازم ، فحقق ديوانه ، وهو تحت الطبع الآن . وحقق كذلك رحلة ابن رشيد (٧٢١ هـ) . وكتابين آخرين له فى الحديث ، وهما : « السنن الأبين والمورد الأمعن فى السند المعنعن » ، و « إفادة النصيح » ، ونرجو أن يخرج هذا كله للقراء قريباً .

ولصاحبنا منهج مرسوم فى التحقيق وإقامة النص ، وهو منهج علمى دقيق يعتمد على التاريخ اعتمادا كبيرا ، فيستوعب المراجع كلها : قديمها وحديثها ، مفصلها ومجملها ، مخطوطها ومطبوعها ، عربيها وأجنبيها . ويوازن بينها فى نقد محكم ، ويستخلص منها أوثق المعلومات وأصح الأحكام ، ويثبت الآراء المختلفة مرجحا بعضها على بعض ، ومحاولا الفصل فى أدق المواقف وأعقدها . يتأهب لما يحاول تحقيقه ، فيجمع كل ما يهتدى إليه من أصوله ، ولا يفوته أن يستعين ما أمكن بكل ماورد منه على ألسنة باحثين آخرين . يعرّف بالأشخاص والأماكن ، ويشرح الألفاظ الغامضة والعبارات المأثورة . ويختم تحقيقه بمعاجم للمصطلحات والألفاظ الغريبة وبفهارس للأعلام والآيات والأحاديث والأمثال والأشعار . وكل ذلك فى ترتيب واضح ، وأسلوب سهل ، ولغة دقيقة . والحق أن زميلنا يعول على التاريخ التعويل كله ، وقد تطلّب هذا منه اطلاعا واسعا ، وقراءة مستفيضة . وأضحى حجة فى تاريخ الثقافة التونسية بخاصة ، والإسلامية بعامة .

والنموذج القيم فى التحقيق الذى أخرجه خير شاهد على ذلك ، فقد شاء بتوجيه من أستاذه الفاضل ، أن يخرج كتاب « منهاج البلغاء وسراج الأدباء» لحازم القرطاجنى . عرفه مخطوطا منذ عهد مبكر ، واستعان به فى عام ١٩٥٦ على تدريس النقد ومناهجه لطلبة كلية اللغة العربية بالجامعة الزيتونية ، وأخذ يقلب صحائفه ، ويتدارسه ، واستقر رأيه على إعداد نشره ،وطوال عامين كاملين بباريس تفرغ له تفرغا تاما ، ثم أخرجه بتونس عام ١٩٦٦ فى ثوب أنيق .

وقد مهد له بمدخل طويل يقع فى نحو ٩٠ صفحة ، ترجم فيها للمؤلف ، متتبعا كل المصادر التى عرضت له من أقوال حازم نفسه ، أو ما كتبه عنه معاصروه ، أو ما سجله له رجال التاريخ والطبقات وبخاصة السيوطى والمقرى . واستخلص من ذلك كله ترجمة كاملة تكشف عن مراحل حياة الرجل وتوضح البيئة السياسية والفكرية التى عاش فيها ، وتعرض لمصنفاته المخطوط منها والمطبوع ،و« المقصورة » على رأسها ، وتبين أثرها فى المشرق والمغرب. ثم اتجه الحبيب إلى تحليل الكتاب نفسه، فحقق عنوانه ، ولخص موضوعه ، وشرح منهجه ، وأشار إلى العوامل التى أثرت فيه . ولاحظ بحق أنه مؤلف محكم الترتيب ، وضع فى صورة أقسام ، ومناهج ومعالم ، ومعارف وإضاءات ، وتنويرات ، وخرج بذلك عن أسلوب التأليف المعهود . وبرغم ترتيبه الدقيق لم يخل من غموض وتعقيد، لاستعمال ألفاظ غريبة، واستحداث مصطلحات جديدة ، وإسراف فى المصطلح الفلسفى وهو مع هذا يؤذن باطلاع واسع ، وإحاطة تامة بالأدب العربى ، يستشهد حازم بالشعر الجاهلى والأموى والعباسى ، كما يستشهد بشعر المشارقة والمغاربة المتأخرين . ويشير إلى بعض النقاد والبلاغيين السابقين ، أمثال قدامة بن جعفر (٢٩٤هـ) وأبى هلال العسكرى (٣٩٥ هـ) ، وابن رشيق القيروانى (٤٦٣ هـ) ، وابن الأثير (٦٠٦هـ) والآمدى (٦٣٠هـ) ، والخفاجى (١٠٦٩ هـ) ، ولكن من الخطأ أن يظن أنه قنع بمجرد الأخذ عنهم بل له محاولات لاتخلو من ابتكار وأصالة ، وكتابه « المنهاج » لون خاص من ألوان الدراسة الأدبية .

والواقع أن هذا الكتاب يتصل اتصالا وثيقا بموضوع دار حوله شئ من الأخذ والرد، ونعنى به موضوع الصلة بين الدراسات الأدبية العربية وبعض الآراء والنظريات الأدبية الهلينية ، وقد أنكر هذه الصلة فريق ، وأيدها آخرون ، وسبق لابن الأثير أن ذهب إلى أن كلام أرسطو ومن بعده ابن سينا فى الخطابة والشعر لغو ، ولايستفيد به صاحب الكلام العربى شيئا ، ولكنا نعتقد أنه لم يبق اليوم شك فى أن البلاغة العربية تأثرت بالفلسفة والمنطق على الأخص ، وقديما فُرّق بين الطريقة الكلامية والطريقة الأدبية ، وما الأولى إلا درس للبلاغة فى ضوء الكلام والفلسفة . ويشهد تاريخ البلاغة بأن الكثيرين ممن كتبوا فيها فلاسفة أو متفلسفون ، كقدامة ابن جعفر ، والجرجانى (٤٧٢هـ) . وحازم القرطاجنى واضح وصريح كل الصراحة فى هذه الناحية ، فقد أخذ بآراء أرسطو وتلاميذه من المشائين العرب ، وعول على كتاب « الشعر »



لابن سينا ، وأحال عليه عدة مرات ، وهو مستمد من كتاب « الشعر الأرسطى » . ولاغرابة فحازم تلميذ ابن رشد ، وإن لم ينقل عنه ، وآثر النقل عن الفارابى وابن سينا ، ونزعته الفلسفية والمنطقية واضحة .

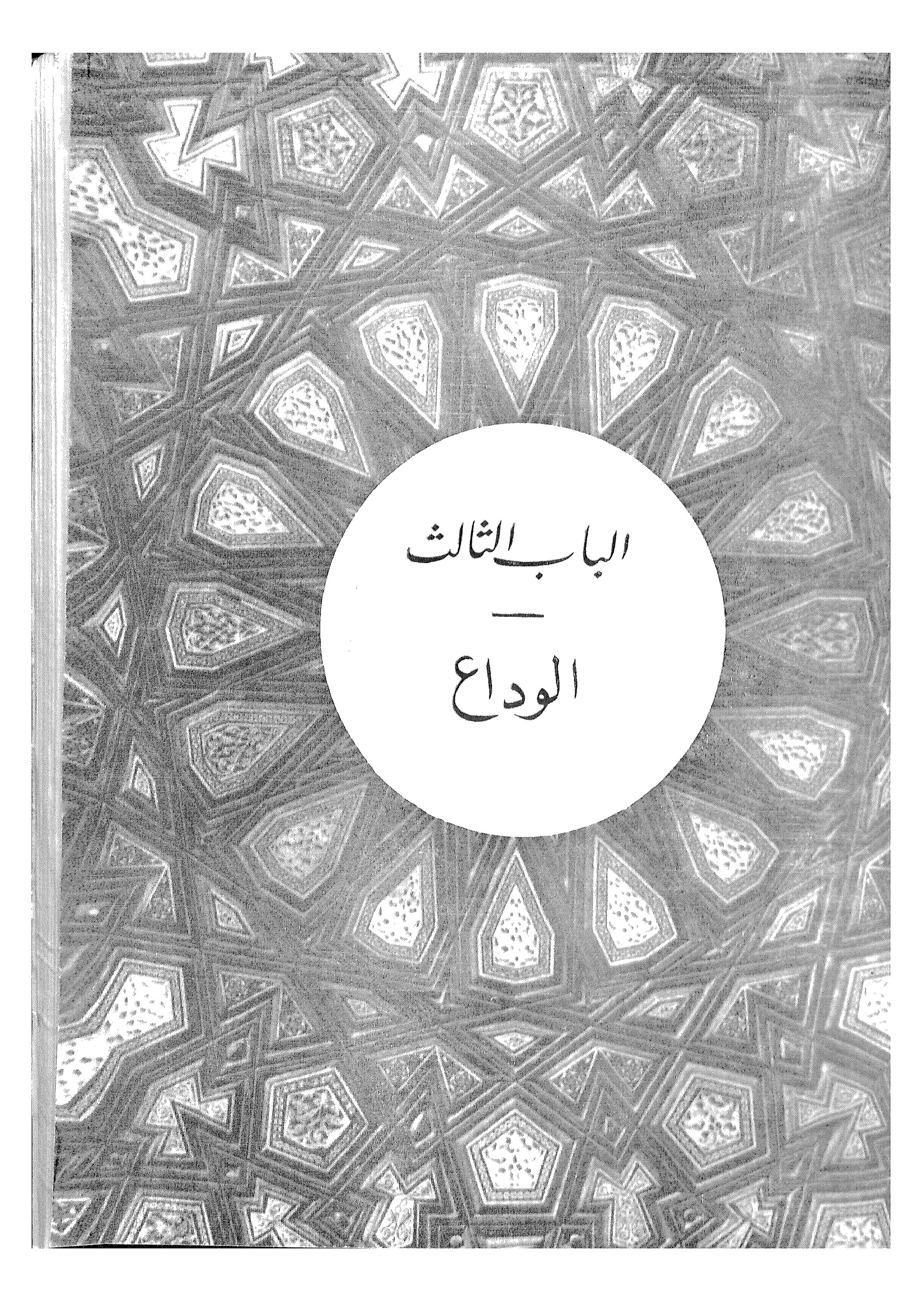
* * *

سادتى :

لقد عنينا بتاريخ الثقافة العربية فى عصورها الأولى . وعالجنا شيئا من تاريخها المعاصر والحديث ، وأغفلنا مرحلة طويلة بين هذين الطرفين . أغفلنا — أوكدنا — مابين القرنين السادس والثانى عشر الهجرى ، وهى حقبة على مابها جديرة بالبحث والدرس .

وفى جهود زميلنا الكريم الأستاذ الحبيب ابن الخوجة مايلقى أضواء عليها ، وما يكشف عن الصلات الوثيقة بين ثقافة المغرب الإسلامى ، وثقافة المشرق . وقد رأيتم كيف طوّف بأرجاء الثقافة العربية وأحاط بجوانبها المختلفة ، وفى زمالته الكريمة خير عون لمجمع الخالدين على أداء رسالته :

والسلام عليكم ورحمة الله ، ، ،



الباب الثالث

الوداع



الباب الثالث

الـوداع

مقدمة

نحن فى دنيانا بين استقبال ووداع ، وتلك سنة الحياة . نحس بها ونلمسها ، ثم لانلبث أن ننساها ولكن المجمعيين فى أسرتهم الخالدة ، وفى شيخوختهم الغالبة ، يدق جرسهم باطراد ، وينبهون إلى ذلك دون انقطاع . يستقبلون كل عام أعضاء جددا ، فيغتبطون بهم ويبتهجون . ويودعون فى العام نفسه من يودعون ، فيرثون ويؤبنون ، والدوام لله . وقد يشتد المصاب ، فيطغى الوداع على الاستقبال ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

وفى مراثيهم أدب رفيع ، وشعر رصين ، وغذاء قيم للفكر واللغة . وفيها وفاء كريم لأخوان وزملاء ، تحملوا معهم الرسالة ، وأدوا الأمانة ، وخلفوا فراغا ربما عز ملؤه . وفيها تنويه بجهود قد تنسى ، وإشادة بأعمال لها شأنها ، وتسجيل لتاريخ ما أحوجنا أن نذكره ، وأن نسير على هديه .

وفى صحبتى الطويلة للمجمعيين كان لابد لى أن أدلى بدلوى فى أداء هذا الواجب المقدس ، وأن أسهم فى وداع عدد غير قليل من الأصدقاء . وحرصت ما استطعت أن أوفى الراحل حقه ، اللهم إلا إن اضطلع بالعبء سواى ، ولم يبق لى إلا شىء من الإشادة والتنويه .

تغمدهم الله جميعا برحمته ، وجزاهم عنا خير الجزاء .

١ — منصور فهمى (مايو ١٩٥٥)

عرفت الفقيد الكريم منذ ربع قرن أو يزيد. عرفته أستاذا وعميدا ، مجمعيا وزميلا ، وعرفته محاضرا وخطيبا ، كاتبا وباحثا ، محدثا ومناقشا ، عرفته فعرفت فيه حماسا بالغا لما ارتضته نفسه واطمأن إليه هواه ولم يضعف هذا الحماس فى شىء تقدم السن ولا مرور الأيام . حتى لقد كان يقف فى شيخوخته مواقف تعز على بعض الشباب. عرفته فعرفت فيه التصويب إلى الهدف والحرص على الغاية . إن تعلق بأمر سعى إليه ماوسعه ، وقصد إليه من مختلف جهاته . عرفته فعرفت فيه السبّاق إلى القول والراغب فى مخاطبة الجماهير لايتردد فى أن يرفع الصوت جهرة إن حانت الفرصة أو دعا إلى ذلك داع . عرفته فعرفت فيه قوة العارضة والمثابرة فى الدفاع عن الرأى . وكم سمعته يدافع عن وجهات نظر معينة ، دون أن يمل تكرارا أو يخشى لجاجا فى الخصومة . عرفته فعرفت فيه أخيرا العربى المستمسك بعروبته ، المدافع عن أمجاده .

وإذا كان مجال القول فيه ذا سعة ، فإنى أكتفى بأن أرسم صورة مختصرة لحياته ، وأتحدث عن بحثه وإنتاجه ، وأقف قليلا عند عمله المجمعى .

* * *

ولد منصور فهمى فى منتصف العقد التاسع من القرن الماضى عام ١٨٨٦ م ، فى تلك الفترة من تاريخ مصر الحديثة المليئة بالآلام والآمال . ويمكن أن نقسم حياته إلى مرحلتين واضحتين : مرحلة الإعداد والنشأة ، ومرحلة النضج والإنتاج . وامتدت المرحلة الأولى إلى نحو الثلاثين سنة ، بدأها بالالتحاق بمدرسة المنصورة الابتدائية على مقربة من مسقط رأسه . وانتقل بعدها إلى القاهرة لمتابعة دراسته فى مدرسة فرنسية حرة حصل فيها على شهادة الدراسة الثانوية سنة ١٩٠٦ . واجتذبه الفقه والتشريع ، فالتحق بمدرسة الحقوق ، دون أن يمكث فيها طويلا ؛ ذلك لأن الجامعة المصرية القديمة أعلنت عن بعثة للفلسفة إلى جامعة باريس ، فتقدم لها ، وفاز بمسابقتها .

وسافر سنة ١٩٠٨ إلى أوروبا حيث قضى خمس سنوات نهل فيها من حياض العلم والأدب ، فلم يقنع بالدراسات الفلسفية التى سافر من أجلها ، بل ضم إليها بعض الدراسات العلمية كالجغرافيا الطبيعية ، والفسيولوجيا ، وعلم الأجنة ، وكأنما شاء أن يستكمل وسائل منهج الدراسات الاجتماعية التى كانت سائدة فى السربون حين ذاك . وتتلمذ لأكثر من عالم وفيلسوف . وتأثر خاصة بـ« ليفى بريل » أحد أقطاب المدرسة الاجتماعية الفرنسية فى أوائل هذا القرن . وكللت دراساته بالنجاح : وحصل فيها على شهادات مختلفة ختمها بشهادة الدكتوراه ؛

ولم تصرفه قراءاته الأجنبية عن مصادر الثقافة العربية التي نهل منها في طفولته وشبابه واستمر يرجع إليها طول حياته. فتوفرت له بذلك ثقافة شرقية وأخرى غربية. وأجاد الفرنسية إجادته للعربية، وألم بقليل من الإنجليزية والألمانية. وكل تلك أدوات صالحة للبحث والدراسة وأتيح له قبل عودته إلى مصر أن يطوف ببعض بلاد أوروبا فكانت الرحلة كتابا آخر أفاد منه إلى جانب ما درس وقرأ.

وقبل أن أنتقل إلى المرحلة الثانية من حياته، لا بد لي أن أشير إلى حادث رسالته للدكتوراه وكان موضوعها: «مركز المرأة في الإسلام» La Condition de la femme dans L'Islamisme.

وكان طبيعيا أن يختار موضوعا كهذا في جو تحرير المرأة المصرية في ذلك التاريخ الذي تزعمه قاسم أمين وزملاؤه. إلا أن إدارة الجامعة التي أوفدته رأت أنه جرت على قلمه عبارات تتنافى واحترام التقاليد الدينية. وسعت جاهدة إلى منع تقديم رسالته. ولكن منصور فهمي الشاب أبى عليه حماسه إلا أن يسير في الشوط حتى النهاية. فنوقشت الرسالة ونال عليها أعلى درجات الشرف.

وكم كان يرجى أن يقف الأمر عند هذا، ولكن الأسف تلته إجراءات كان لها، فيما نعتقد، أثر بالغ في حياة فقيدنا. فما أن عاد من بعثته حتى أسند إليه في جامعته كرسي تاريخ المذاهب الفلسفية في يونية سنة ١٩١٣. وهذا ما أعد نفسه له. إلا أنه لم يمكث فيه طويلا. فقد استغنى عنه بعد نحو ستة أشهر لأسباب ترجع في جملتها إلى تلك الرسالة وقد يكون فيما كتب ما يثير نقدا أو يقتضي ملاحظة، ولكنه لا يؤدي إلى طرد أو حرمان. وحرية البحث العلمي أفسح صدرا، وأسمى من أن يعتدى عليها بسبب لفظ أو عبارة.

ومهما يكن من أمر فقد قضى فقيدنا في بدء حياته العملية ست سنوات يجاهد ويناضل في سبيل كسب عيشه. ويشعر شعور المطرودين والمحرومين، وأغلب الظن أن ذلك كان نقطة فاصلة في حياته. حوّل نقده الجريء إلى حذر وحيطة، وثقته بنفسه وبالناس إلى شك وريبة. وقد جرى على لسانه عام ١٩٢٥ في خطرة من «خطرات نفسه» ما يفسر هذا تمام التفسير. يقول في حديثه عن «فكر سجين»: «لم تقيدون الحرية ولا تحلونها، ولا تشعرون بخيرها وبركتها»؟ ومضى على هذه النغمة. ثم تذكر «أن للجرائد قيودا وللكتابة قيودا» فمزق ما كتب. وبدا له «أن يعقد اجتماعا يتكلم فيه، ويسير بلسانه بين المجالس يبشر ويدعو إلى ما يريد». ولكنه لم يلبث أن عدل عن هذا أيضا «لأن هناك أربطة ذهبية ثقيلة تربط رجله، وتجعله يحن إلى حياة أهون وسبيل ألين».

• • •

وبعد لأى عاد منصور فهمي إلى جامعته عام ١٩٢٠ . وبقى فيها إلى أن حولت إلى جامعة أميرية ، وتدرج فى المناصب الجامعية من أستاذ مساعد إلى أستاذ ، ومن وكيل لكلية الآداب إلى عميد لها ، وتتلمذ له غير قليل ممن أضحوا أساتذة اليوم واختير مديرا لدار الكتب ثم مديرا لجامعة الإسكندرية إلى أن أحيل إلى المعاش سنة ١٩٤٦ . خمس وعشرون سنة تقريبا قضاها فى حياة جامعية متصلة أو منفصلة . وبذا يمكن أن يعد بحق من بناة صرحنا الجامعى الحديث .

وله إلى جانب هذا نشاط متنوع : اجتماعى وثقافى ، سياسى وصحافى ، فكان عضوا عاملا فى جمعية الهلال الأحمر ، وجمعية الشبان المسلمين ، والاتحاد العربى ، ورابطة الإصلاح الاجتماعى ، ومن مؤسسى الحزب الديمقراطى . وأمد الأهرام بسلسلة من المقالات . وأشرف على تحرير جريدة القاهرة زمنا ، واشترك فى كثير من المحافل والمهرجانات والمؤتمرات . وإن أنس فلا أنسى رحلته إلى تونس على رأس بعثة الهلال الأحمر سنة ١٩٤٧ لمساعدة المنكوبين هناك ، وما صادفها من أهوال وأخطار .

حياة ولا شك زاخرة ومتنوعة . أثرت فيها عوامل شتى ، وآتت ثمارا مختلفة ، مرت بها بعض سحب الشك ، ولكنها لم تلبث أن اطمأنت إلى يقين جازم . ترددت بين الشرق والغرب ، ثم انتهت بأن آثرت الشرق بما فيه من معالم الروح والخلود .

* * *

وقد أنتج منصور فهمى ما أنتج : من خطب سيارة لم تقيد ولم تسجل ، أو مقالات صحفية لم تجمع ولم تبوب ، أو محاضرات لم تحرر ولم تنشر . وإذا كان قد نشر شيئاً من ذلك فإن كثيرا منه لا يزال مخطوطا ونميل إلى أنه كان يعتزم أن يخرجه إلى النور وفى مكتبه تراث جدير بالنشر . وعسى أن يضطلع أبناؤه وتلاميذه بذلك .

وما نشر من إنتاجه يمكن أن يرد إلى ثلاثة أبواب : محاضرات وخطب ، مقالات صحفية ، بحوث وترجمات . ونستطيع أن نضع تحت الباب الأول محاضرته فى « أوقات الفراغ وكيف نستثمرها » (١٩٣٦) « والضعف الخلقى وأثره فى حياتنا الاجتماعية » (١٩٤٠) . وخطبته فى ذكرى «المولد النبوى» (١٩٤٢) ونشر له معهد الدراسات العربية أخيرا (١٩٥٥) سلسلة محاضرات عن رائدات النهضة النسائية الحديثة وذو الشوق القديم وان تسلى ، وكأنما شاء أن يعود إلى موضوع المرأة بعد أن لاقى فى سبيله ما لاقى . وفى هذه السلسلة عرض تاريخى مستوف ، وتحليل أدبى مستفيض .

ولم ينشر شىء من محاضراته الفلسفية فى الجامعة ومدرسة المعلمين العليا . وقد اتجهت فى أغلبها نحو الأخلاق والدراسات الاجتماعية .

وفى نحو ٢٢٠ صفحة من القطع المتوسط أخرج ما سماه « خطرات نفس » جمع فيه طائفة من المقالات التى ظهرت له فى الصحف بين عامى ١٩١٥ و ١٩٣٠ . فيتحدث عن « ضمير قلق » ، «ساعة عبادة » ، « طيف زائر » ، « عام جديد » ، « صور من النفاق » « القهوة والبيت » ، « التسامح » ، و « الرضا » . أربع وستون خاطرة فى لفظ واضح ، وأسلوب موجز ، وهدف محدود ، ومنها قوله فى « العيش الحقير والعيش الكبير » : « اعلم أن خير العيش أن تعرف أن الحياة حق وأن التقدم المعقول حق وأنه من الواجب عليك أن تشترك بشىء من جهودك فى هذا التقدم المعقول » . وقوله : « الجمال خطيب صامت لا يرغب أن يتحدث الغير عنه ، إذ فى صمته كل فصاحة وفى سكوته كل بيان . الجمال نسب وأوزان قد تحسه النفس أحيانا بواسطة العين . . . وقد تسمعه بواسطة الأذن . . . الجمال متكبر قاهر متكبر لأنه يجل عن أن يقدمه للنفوس أحد . فهو يعرف نفسه بنفسه ، قاهر لأنه يغلب الأنفس القوية على أمرها ، فيوقع فى أسره من شاء ، ويتخير لرقه من شاء ؛ الجمال كالله وكالقوى الخفية من حيث أنها لا تعرف بذواتها ، ولكنها تعرف بآثارها » .

وهكذا صدق فى المعنى وصدق فى التعبير ، ولا أظن أن منصور فهمى كتب على محبته مثلما كتب فى خطراته .

أما بحوثه فأهمها رسالته للدكتوراه . وفيها منهج قويم ، ودرس واستيعاب ، ووقوف على أهم المصادر الإسلامية . وإن خرج الحماس ببعض أحكامها عن دائرة الموضوعية العلمية ، إلا أنا نعتقد أن هناك بحوثا إسلامية أخرى أعمق نقدا ، ولم تصادف ما صادفت هذه الرسالة من لوم واعتراض :

وحرية الرأى ظاهرة اجتماعية تخضع للظروف والملابسات ، تحترم حينا ويعتدى عليها حينا آخر . وله بحث آخر كتبه بالفرنسية أيضا . وعنوانه : « قراء وأميون Lettrés et Illettrés »

تقدم به إلى أحد المؤتمرات العلمية وقام فيه ببعض التجارب معولا على «كلاباريد» «ودكرولى» من أعلام علم النفس التجريبى فى أوائل هذا القرن. وترجم لجوته بمناسبة مرور مائة عام على وفاته قصة هرمان ودوروثيا Hermann and Dorothea وتبدو فيها نزعته اللغوية مبكرة . فيتحاشى التعريب ويحاول ما وسعه أن يؤدى المعانى بألفاظ وعبارات عربية حتى لقد شاء أن يجد مقابلا للأعلام اليونانية القديمة . فيضع لكيلو Klio (شيطانة التاريخ) راوية ولأورانيسدا urania (شيطانة الفلك) علوية .

ويحاول فى إنتاجه كله أن يؤدب الفلسفة ويفلسف الأدب ، وهو إلى الأخير أميل . وفى أسلوبه صفاء ونقاوة ، يحرص على الوضوح الحرص كله ، ويتخير لفظه وعبارته ، وقد يلجأ

إلى الصنعة والتنسيق فيسجع أو يأتى بما يسمى الشعر المنثور . وله خيال خصب وغرام كبير بالتشبيه والصور المجازية وكأنما غرس ذلك فى نفسه منذ زمن مبكر . يقول فى إحدى خطراته : « لقد كان لطائفة من الكتاب الخياليين سلطان علىّ فكنت أصبو صبوا للصور والحلال الكريمة والأشباح التى كانت تخرجها أذهانهم قبل أن تصل بحقائق الحياة المؤلمة » :

وليس فى آرائه ونظرياته عامة ما يجاوز العرف ولا يخرج عن المألوف . وقد وجهته دراسته الاجتماعية نحو العناية بالمنهج التاريخى والوقوف عند بعض المقارنات ، واستخلاص بعض الآثار الاجتماعية والأخلاقية ، ويلجأ إلى الاستشهاد كثيراً فيروى قصة أو يشرح حادثة أو يسرد أثراً ليخلص منه إلى ما يريد ويستعين به على توضيح ما يدعو إليه .

* * *

ولم ترتبط حياة منصور فهمى بشىء ارتباطها بالمجمع والمجمعيين ، اختير عضوا فى مجمع اللغة المصرى منذ إنشائه سنه ١٩٣٣ ، وانتخب كاتب سره سنة ١٩٣٤ ، وبقى على ذلك إلى أن اختاره الله لجواره . وكان عضوا مراسلا للمجمع العلمى العربى بدمشق ، وللمجمع الإيرانى ، والمجمع العراقى ، ولم يفته مؤتمر من مؤتمرات المجامع أو اتحاداتها . وفى مجمع اللغة المصرى اضطلع بغير قليل من أعبائه ، فكان عضوا فى مكتبه ، ثم فى مجلس إدارته ، واشترك فى أكثر من لجنة من لجانه وخاصة الطب ، والأصول ، واللهجات . وكان ذا نزعة خاصة واتجاه ثابت فيما يتعلق بمبادئه ومنهج العمل فيه .

أخذ نفسه بشرح رسالته والدفاع عنه . ولم يسلم المجمع من بعض الحملات داخل البرلمان وخارجه ، فكان منصور فهمى يسارع إلى ردها وشرح الموقف على حقيقته . ومن أحدث ما كتب فى ذلك محاضرته التى ألقاها فى مؤتمر اتحاد المجامع اللغوية والعربية بدمشق عام ١٩٥٦ . وكان يدعو دائما إلى تنسيق الجهود بين المجامع اللغوية العربية المختلفة ، وربطها بعضها ببعض . وما أن أعلنت الجمهورية العربية المتحدة حتى أخذ يدعو إلى توحيد مجمعى الإقليم الشمالى والإقليم الجنوبى .

ويطول بنا الحديث إن شئنا أن نعرض لتفاصيل نشاط منصور فهمى المجمعى ، ويكفى أن نشير إلى أمثلة منه ، فله حولياته التى كان يلقيها فى افتتاح المؤتمر السنوى ، ويعرض فيها لأعمال المجمع طوال العام . وإنها لمهمة ثقيلة . وكثيرا ما حاول أن يخففها بما أحاطها به من تشبيه وتصوير ، أو عرض لبعض القضايا الكبرى كتعليل التضاد من قوانين النزعات النفسية ، أو بيان الصلة بين اللغة والفكر أو بينها وبين الزمن ، أو أنها أجلى مظاهر القومية ..

والمتتبع لتاريخ المجمع اللغوى فى ربع القرن الماضى سيجد فيها تسجيلا لأهم أحداثه ، وعرضا شاملا لمظاهر نشاطه .

وله جهده المستمر فى تخيُّر كلمات عربية قديمة أو جديدة ، مشتقة ، أو منحوتة لأداء بعض المعانى ، كالمدراس لقاعة البحث ، والهُدَّام لدوار البحر ، والمهرق لورق الشمع ، والغيرية للمذهب الفلسفى المشهور . وكلنا يذكر ملاحظته التقليدية حين يسمع لفظا أجنبيا معربا فى النبات أو الكيمياء أو الطبيعة : « ألا من لفظ عربى يغنينا عن هذا الدخيل » .

وهذا جهد مشكور ولاشك ، إلا أن الاستمساك بالألفاظ العربية وحدها ، وسد باب التعريب ، حرمان للغة من غذاء جديد . وماأحوج اللغات ككل كائن إلى الغذاء ، وقد أخذت اللغات بعضها عن بعض من قديم . ولا تزال تسير على هذه السنة إلى اليوم ورب لفظ مشتق أو منحوت أثقل من لفظ معرب صقله الاستعمال وألفته الأذن .

وهنا نصل إلى نقطة حاسمة فى نشاط منصور فهمى المجمعى . لا شك فى أنه كان مجمعيا بقلمه ولسانه ، بقلبه وفكره . ولكنه من ذلك الفريق الذى يؤثر التريث والأناة على البت والقطع ، وإذا كان لكل هيئة جناحان : أيمن للارتكاز والتوقف ، وأيسر للعدو والحركة ، فإنه كان من دعائم الجناح الأيمن للمجمع اللغوى . واستطاع أن يطبع أعماله الإدارية والفنية بهذا الطابع الخاص فى ربع القرن الماضى . ولسنا بصدد المفاضلة بين جناحين أو اتجاهين . فللقديم حرمته ، وللجديد لذته ، وإنما نود أن نلاحظ فقط أن حضارتنا خلق وابتكار وتجديد وتغيير ، وهى أميل إلى القفز والسرعة ، بل الجرى والطيران ، ولا بد لنا من متابعتها ، وإلا تخلفنا عنها .

* * *

هذا هو منصور فهمى فقيد الجامعة والمجمع ، فقيد العلم والأدب ، فقيد المنبر والقلم ، عاش لغيره أكثر مما عاش لنفسه ، وساهم فى تكوين جيل من الفلاسفة والأدباء ، وارتبط ببعض المنشآت التى أضحى جزءا منها وكانت شغله الشاغل . وهو فى كل هذا أقرب إلى الجد منه إلى المرح ، وإلى الهدوء والرزانة منه إلى الاندفاع والحركة برغم ما يبدو عليه من حماس ظاهر ، وصوت جَهْورى ، وكأنما كان يخشى التجديد السريع الذى لا يقوى على حملات القديم واعتراضاته ، والإصلاح الجرئ الذى لا يتمشى مع العرف والعادة أو لا يرتضيه ذوو الجاه والسلطان . وقد يكون لصدمة رسالته للدكتوراه شأن فى ذلك .

وكيفما كان الشأن فهو ممن يقولون : « ما ترك الأول للآخر شيئا » . وقد أثبت العلم والتطور أن المتأخرين كشفوا عن أمور كثيرة لم تخطر ببال المتقدمين . ويخيل إلىّ أنه عادت عليه مسحة من التشاؤم جعلته يخشى الطفرة ، ويتسلح بالحيطة والحذر .

وتحضرنى الآن ملاحظة عميقة من ملاحظاته فى مناسبة كهذه ، ولا أستطيع إزاءها أن أسترسل أكثر مما فعلت . فقد كان فى وفاته لزملائه سباقا إلى استقبالهم عند دخول المجمع ، ورثائهم عند الرحيل عنه . ووقف مرة يرثى زميلين كريمين هما : الإسكندرى الأديب المصرى ، ونالينو المؤرخ الإيطالى فقال : « يلوح أن المراثى تقدير للمتوفين ، ووفاء لهم بما قاموا به من صالح الأعمال . ولكن هل بمن هم فى جوار ربهم حاجة إلى تقدير البشر ؟ وهل بمن وفوا حسابهم فى الدنيا حاجة إلى من يوفيهم من الناس حسابا وهم عند ربهم يحاسبون ؟ هيهات ؟ هيهات !! هيهات !! إنما نقلب صفحات الموتى لأنفسنا بما نستفيده من هذا التقليب فمن أجل الحياة نستلهم الموت ، ومن أجل الأحياء نستغل الموتى إحسانا ونرثى الراحلين » .

---

٢ ـ لويس ماسنيون (ديسمبر ١٩٦٢)

من صومعة الخالدين هذه نودع زميلا كريما عاصر المجمع منذ البداية ، وكان من مؤسسيه الأول الذين لم يبق منهم إلا اثنان بعده . اختير لعضويته عام ١٩٣٣ مع من اختيروا من الاعضا الخمسة المستشرقين ، وكان فخورا بهذا الاختيار ، حريصا دائما على المساهمة فى نشاط المجمع ، والاشتراك فى مؤتمره حتى يوم أن ضيقت الحرب العالمية الثانية السبل وعز معها الاتصال. وكان يرقب هذا المؤتمر عاما بعد عام ، ويتأهب له ، ويشعر بالحرمان حقا إن منعه مانع من شهوده ، ولا أزال أذكر ألمه الشديد يوم أن حال حادث موسكو دونه وحضور مؤتمر عام ٦٠ ـ ٦١ ، كما أذكر سعيه الحاد للاشتراك فى المؤتمر الأخير ، وحتى شهر أغسطس كان يكتب إلى متأهبا للمساهمة معنا فى المؤتمر القادم ، وتقدرون فتضحك الأقدار ؟

ونودع أيضا علما من أعلام الاستشراق فى القرن العشرين ، وزعيم المستشرقين اليوم غير منازع ، حظى بتقدير واحترام لم يحظ بهما مستشرق آخر ، وكان حجة فى القول والعمل ، وامتد نفوذه إلى العالمين القديم والجديد . اتصل بالمسلمين منذ العام الأول من هذا القرن ، وزاد اتصاله بهم وثوقا على مر الزمن . فرحل إلى أقطارهم المختلفة ، وزار عواصمهم الكبرى فى الشرقين الأقصى والأدنى ، وشاركهم فى السراء والضراء ، وتوفرت له بينهم صداقات مبينة ، وأضحت بيوتهم بمثابة بيته . وكم كان يشعر بالهدوء والغبطة حين ينزل فى القاهرة ، التى كان يعدها وطنه الثانى . وإلى سبتمبر الماضى كان يتأهب لزيارة أفغانستان ليساهم فى ذكرى الأنصارى الصوفى الحنبلى ، ويعد كلمة لمهرجان بغداد الذى أقيم أخيرا . عرف العالم الإسلامى حق المعرفة فى ماضيه وحاضره ، فى تراثه ومجده ، وكأنما عاش فيه ومن أجله ، فجاء درسه له دقيقا مستوعبا وحكمه عليه وثيقا مدعما ، ويعد بحق أكبر عالم فى « الإسلاميات » بين الغربيين .

وسنؤرخ له فى اختصار ، مبينين أخص خصائص حياته ومصنفاته ، وأهم آرائه ونظرياته :

(ا) حياته :

لم يترجم ماسنيون لنفسه ترجمة ذاتية ، كما يصنع بعض المفكرين ، وما أشد حياءه حين يسمع حديث الناس عنه وتنويههم بآثاره ، ولا يكاد يذكر شيئا عما مر به من أحداث إلا لماما وفى لمحات خاطفة . ولكن لحسن الحظ درس أثناء حياته دراسة قل أن يحظى بها باحث آخر ، فوضع بمناسبة بلوغه السبعين مؤلف ضخم هو :

Mélanges — louis Massignon ويقع فى ثلاثة أجزاء كبيرة يزيد حجم كل واحد منها على ٤٢٥ صفحة من القطع الكبير . واشترك فيه عدد غير قليل من زملاء ماسنيون وتلاميذه

وأصدقائه ، بين عرب ومستعربين ، وكتب بعدة لغات أهمها الفرنسية ، وإلى جانبها الإنجليزية والألمانية والتركية . ويدور حول الحضارة الإسلامية فى أوسع معانيها ، ففيه لغة وأدب ، وعلم وفن ، ودين وفلسفة ، وهو بهذا مصدر قيم من مصادر الحياة الفكرية فى الإسلام . وفيه مقدمة للأستاذ هنرى ماسيه ، زميل ماسنيون وصديقه ، وهو بهذا خير من يعرف به ويرسم الخطوط الرئيسية لمعالم حياته . وأضاف إليها الأب مبارك ، تلميذه ، فهرسا جامعا لبحوثه ومؤلفاته ، يقع فى نحو خمسين صفحة .

وفى العام الماضى أخرج الباحث الهولندى فاردن بورج Waardenburg كتاب الإسلام فى مرآة الغرب (L'Islam dans le miroir de l'Occident) وهو رسالة الدكتوراه من جامعة أمستردام ، صدر فيها عن خمسة من المستشرقين ، هم : جولدتزيهر النمساوى ، وبيكر الألمانى ، وسنوخ الهولندى ، ومكدونالد الأمريكى وماسنيون ، وكلهم أموات حين ذاك إلا واحدا سما إلى مرتبة الخلود وإن كان حيا واختياره على هذا النحو يدل على منزلته الخاصة بين علماء الدراسات الإسلامية الغربيين وفى هذه الرسالة ترجمة مفصلة لحياته وعرض لكثير من آرائه .

* * *

وحياة فقيدنا ولاشك خصبة زاخرة ، جمعت بين العلم والعمل ، امتلأت بالإنتاج المتواصل والنضال الذى لا يمل . وتنقسم إلى مرحلتين متميزتين : مرحلة تكوين ونشأة لم تجاوز العشرين ، ثم تلتها مرحلة إنتاج وعمل دائب أوشكت على الستين . وقد ولد لويس ماسنيون فى الخامس والعشرين من شهر يولية عام ١٨٨٣ بضاحية هادئة من ضواحى باريس ، هى : Nogent - Sur - Marne وترجع أصوله إلى مقاطعة بريتانى . وكان أبوه طبيبا أولع بالفن ، وبخاصة النحت والتمثيل الذى اشتهر به فى أخريات القرن الماضى . وقد ألحق ابنه بليسيه لوى لجران Louis le Grand الشهيرة ، وحصل على البكالوريا بقسميها الأدبى والرياضى فى عامى ١٩٠٠ و ١٩٠١ . وفى الأعوام الأربعة التالية حصل على ليسانس الآداب ، ودبلوم الدراسات العليا فى التاريخ والجغرافيا ، ودبلوم اللغة العربية من مدرسة اللغات الشرقية ، ودرس السنسكريتية والعلوم الدينية بالسربون ، وعلم الاجتماع فى الكوليج دى فرانس ، برغم إنقطاعه للخدمة العسكرية عاما كاملا .

وقد اجتذبته الرحلة والسفر منذ سن مبكرة ، واستمر يرحل دون انقطاع ، وكثيراً ما كنا نتساءل كيف يوفق بين سفره ودرسه . وفى السنوات العشر السابقة على الحرب العالمية الأولى تنقل بين عواصم العالم الإسلامى وبلدانه ، ولكنها كانت جميعا رحلات بحث ودراسة . فسافر إلى الجزائر بعد حصوله على البكالوريا فى رحلة قصيرة عام ١٩٠١ ، وإلى مراكش عام ١٩٠٤ ، وكتب عنها بحثا نال به دبلوم الدراسات العليا ، وأخذ يقتفى آثار ليون الأفريقى . وفى عام ١٩٠٥

اشترك فى المؤتمر الدولى الرابع عشر للمستشرقين الذى عقد بالجزائر ، حيث التقى بجولد تزيهر وأسين بلاسيوس . وفى سنة ١٩٠٦ عين عضوا بمعهد الآثار الفرنسى بالقاهرة ، فرحل إليها وقضى فيها عاما كاملا يحفر وينقب ويراقب ويلاحظ . وفى العام التالى عهد إليه القيام بأبحاث فى آثار العراق الإسلامية ، فسافر إلى بغداد فى شتاء ١٩٠٧ ، ونزل ضيفا على بيت الألوسى المعروف . وقام بحفائر فى بادية العراق ، وزار مشاهد الشيعة كلها ، فمر بكربلاء والنجف والكوفة ، ولم تفته « سلمان باك » تلك القرية الصغيرة التى دفن فيها صحابيان جليلان هما سلمان الفارسى وحذيفة . وفى هذه الرحلة وقف على قبر مهمل بين قبور بغداد فتح أمامه الطريق وبعث فى نفسه ما بعث من يقين وبهجة وهو قبر الحسن بن منصور الحلاج . وفى سنة ١٩٠٩ ذهب إلى استانبول للاطلاع على ما فيها من نفائس التراث الإسلامى . وظل يتردد على القاهرة شتاء كل عام إلى أن دعى للتدريس بالجامعة المصرية القديمة سنة ١٩١٢ — ١٩١٣ ، وانصب درسه على المذاهب والمصطلحات الفلسفية فى الإسلام .

وعلى أثر قيام الحرب العالمية الأولى طلب للخدمة العسكرية، وعين ضابطا فى جيش الشرق ، واشترك فى معركة الدردنيل ، ودخل القدس تحت قيادة ألنبي . ولما وضعت الحرب أوزارها عين فى سنة ١٩٢٠ بديلا لأستاذه Le Chatelier ، بالكوليج دى فرانس فى كرسى « علم الاجتماع الإسلامى» ، ولم يلبث أن أضحى أستاذا لهذا الكرسى عام ١٩٢٦ ، واستمر يشغله إلى أن بلغ السن القانونية عام ١٩٥٤ ، فقضى فى الكوليج دى فرانس نحو ثلاثين عاما ، كان فيها منارا للدراسات الإسلامية، وهاديا لطلاب البحث من عرب ومستعربين . ولم يمنعه عمله بها من الرحلة والسفر ، فلم يفته مؤتمر من مؤتمرات المستشرقين ، ولم يتردد فى أن يحاضر فى عواصم الإسلام المختلفة بل وفى بعض جامعات الولايات المتحدة . وأقام فى كابول وطهران زمنا ، وسافر إلى الهند ليتتبع آثار غاندى ، واجتذبته اليابان بما فيها من حياة دينية وروحية . وكانت هناك أماكن تستهويه بوجه خاص ، وعلى رأسها بيت المقدس ، وأفسس مقر أهل الكهف ، ودمياط التى أسس فيها جماعة الأخوة المسيحية الإسلامية أو « البدلية » ، وقضى فيها يوما كاملا فى البحث عن ضريح . وإلى جانب هذا كله رأس قسم العلوم الدينية بالدراسات العليا فى السربون نحو عشرين عاما ، ومسابقة تدريس اللغة العربية ما يزيد على عشر سنوات .

* * *

حياة حافلة بالكشف والبحث ، والدرس والمحاضرة ، وقد أعانه عليها ذهن متوقد ، وعبقرية خارقة ، وصبر وجلد ، وحب وتفان فيما يقصد إليه وما يضطلع به . وأغلب الظن أنه ورث عن أبيه ميوله الفنية ، وبحوثه الأثرية التى بدأ بها حياته العلمية . واتصل بأناس كان لهم أعظم الأثر فى نفسه ، وفى مقدمتهم ويسمانس الكاتب القصصى الكاثوليكى المشهور صديق والده ، زاره

فى شرخ الشباب ، وبقيت هذه الزيارة عالقة بذهنه إلى النهاية . ولقى الأب شارل دى فوكو ، ذلك الراهب الذى كان يعيش فى صحراء الجزائر ويدعو إلى الأخوة فى الله ، فأخذ باتجاهاته الدينية ، وراسله عدة سنين. وتتلمذ لكبار الأساتذة فى عصره ، أمثال برونو فى الأدب الفرنسى وسلفان ليڤى فى السنسكريتية ، وجولد تزيهر وسنوخ فى الدراسات الإسلامية . وكان لأسفاره العديدة شأن فى استكمال خبراته وتجربته ، وأثر عظيم فى بحثه ، أملت عليه دراسات مختلفة ، وأوحت إليه بآراء كثيرة .

(ب) مصنفاته :

أمضى ماسنيون نحو ستين عاما يكتب ويؤلف وأخرج مايربو على سمائة بحث ، بين كتاب ورسالة أو مقالة ومحاضرة ، أو نقد وتعليق . ومنها قدر لم ينشر بعد ، وخاصة محاضرات الكوليج دى فرانس ، وكثير مما نشر موزع بين مجلات العالم وصحفه ، ويضطلع الأب مبارك بجمعه ونشره جملة تحت عنوان : « المؤلفات الصغرى » : كتب ماسنيون بالفرنسية بوجه عام ، وله بحوث بالعربية والفارسية والإنجليزية والألمانية . والواقع أنه كان يعرف عدة لغات حية وقديمة فمن اللغات الحية ضم إلى الفرنسية العربية والفارسية والإنجليزية والألمانية ، ومن القديمة كان متمكنا من اليونانية واللاتينية ، وعلما بالسنسكريتية والعبرية . وقد ترجم بعض مؤلفاته إلى لغات مختلفة فى الشرق والغرب ، وأعيد طبع بعضها أثناء حياته ، ومنها ما نفد ولا سبيل إليه ، وخاصة كتابه الكبير عن الحلاج الذى كان قد اعتزم إعادة طبعه ، وما أحوج الباحثين إليه .

ويمكن أن ترد مصنفاته إلى أبواب ثلاثة رئيسية :

(١) آثار وتخطيط .

(٢) تصوف ودين :

(٣) اجتماع وحضارة :

أشرنا من قبل إلى أنه بدأ بالآثار ، وشغل بها فى شمال أفريقية ومصر والعراق : وأخرج فيها بحوثا قيمة يمكن أن نذكر من بينها « لوحة جغرافية للمغرب فى الخمس عشرة سنة الأولى من القرن السادس عشر ، أخذا عن ليون الأفريقى » :

(Tableau géographique du Maroc dans les 15 premières années du XVIe siècle, d'après léon l'Africain, Alger 1906)

و « بعثة فى شبه الجزيرة » (Mission en Mésopotamie, Le Caire 1912).

الذى ظهر فى جزأين كبيرين بين مطبوعات المعهد الفرنسى : وله كتاب ثالث ظهر أخيرا عن « قرافة الدرب الأحمر » : (La Cité des Morts au Caire, Le Caire, 1958).

ويشهد هذا الكتاب بحق على مدى صبره وجلده وإيمانه بما يسعى إليه .

أما التخطيط فله فيه بحوث نذكر منها تخطيط بغداد ، والكوفة والبصرة :

والتصوف فى الواقع دعامة بحوثه ، كتب فيه ما لم يكتب فى أى باب آخر ، وظهرت فيه مؤلفاته الكبرى : وضع فيه أولا « عذاب الحلاج شهيد التصوف فى الإسلام » ؟

Le passion d'Al Hallag, martyr mystique de l'Islam 2 vol. Paris 1922. 1454

وهو رسالته الأولى للدكتوراه :

وثانياً — رسالته الثانية ، وهى « بحث فى نشأة المصطلح الفنى فى التصوف الإسلامى »

(Essai sur les origines du lexique technique de la mystique musulmane, Paris 1922, 1954).

وثالثاً — « مجموع نصوص لم تنشر تتعلق بتاريخ التصوف فى بلاد الإسلام »

(Reccuil de textes inédits concernat'' l'histoire de la mystique en pays d'Islam Paris 1929).

وله بحوث توضح بعض الظواهر الصوفية كالزهد والحلول والتجربة الصوفية ، أو تترجم لبعض المتصوفة كالمحاسبى وابن سبعين والششترى : وعنى بالحلاج عناية كبرى ، لأنه صادف هوى من نفسه ، أعجب بشجاعته وتضحيته ، ورأى فى حياته تجربة إنسانية تبعث على الطهر والصفاء : فترجم له غير مرة ، ونشر كتبه ، وجمع مصادره المختلفة ، وبيّن أثره فى الحلاجية والزيدية وفريد الدين العطار : ولاشك فى أن رسالته الكبرى عنه عمل خالد وذات منزلة ممتازة . تقع فى نحو ١٠٠٠ صفحة ، وتكاد تلم بكل مظاهر الحياة الإسلامية ببغداد زمن الحلاج ، وتصور بيئته تصويراً تاماً ، وسيبقى الحلاج وماسنيون مقترنين على مر الزمن :

ولماسنيون بحوث شتى فى الفرق والمشاكل الدينية ، وخاصة ما اتصل منها بالشيعة والإسماعيلية : فعرض للغنوصية والهرمسية والصابئة والقرامطة والنصيرية والدروز وسلمان الفارسى والمباهلة ، كما عرض لأصحاب الكهف وصلوات إبراهيم الثلاث ، وقارن بين الأديان السماوية الكبرى :

كان طبيعياً أن يعنى بعلم الاجتماع ، وقد شغل كرسيه نحو ثلث قرن ، واستوقفته بعض الظواهر الاجتماعية فى ماضى الإسلام وحاضره . فدرس العمل والمشكلة العمالية فى الإسلام ، والمهن والحرف فى المغرب ، وأثر الإسلام فى نشأة المصارف اليهودية فى القرون الوسطى . وعرض لتعليم المرأة والحجاب ، وموقف الإسلام من الحضارة الأوروبية . وتابع الأحداث الجارية فى جرأة وصراحة ، فكتب عن « الصهيونية والإسلام » ، « الإسلام والسياسة المعاصرة » ، « تقسيم فلسطين » ، « اللاجئون » ، « الموقف فى الجزائر » . وكان يعالج ذلك كله بروح الباحث المنصف والعالم المحقق ، ويعرف كيف يقدر ظروف البلاد الإسلامية حق قدرها . وفى مقدمة دراساته الاجتماعية — « الكتاب السنوى للعالم الإسلامى » : (Annuaire du mode musulman, 1923-29, 54).

أخرجه ثلاث مرات فيما بين عامى ١٩٢٣ ، ١٩٥٤ ، مع إضافات وتنقيح مستمر . وهو مصدر ملىء بالمعارف الدقيقة والمعلومات الوثيقة فى الثقافة والسياسة والاقتصاد عن العالم الإسلامى بأسره فى أفريقيا وآسيا وأوربا ، فيتحدث عن بلاد الشرق الأدنى وشمال أفريقيا وتركيا وإيران وأفغانستان والباكستان ، كما يتحدث عن أندونيسيا والجمهوريات الإسلامية الروسية ومسلمى الهند والصين

واليابان ، ولا يغفل مسلمى أفريقيا الغربية والاستوائية ، ولا مسلمى أوربا ، وحبذا لو تعهد هذا المورد العذب .

وإلى جانب هذا عرض ماسنيون للغة العربية وتاريخ العلوم والفلسفة الإسلامية ، فحدثنا هنا عن ميتافزيقى اللغة ، وعبقرية النحو العربى ، وقيمة الخط العربى فى تأسيس فن النقش المجرد ، ووازن بين المعجم الأوربى والمعجم العربى . وكتب عن « الإسماعيلية ونشر العلم » وعن « البيرونى والقيمة الإنسانية للعالم العربى » ، وعن « غيوم ماجيلان واكتشاف العرب لها » (Les Nuages de Magellan et leur découverte par les Arabes, Paris 1962). وهو آخر بحث أخرجه هذا العام ، وكشف عن جوانب بعض كبار فلاسفة الإسلام ، أمثال الكندى والفارابى ، وابن سينا ، وشغل زمناً باخوان الصفاء . وأدار لمدة ربع قرن أو يزيد « مجلة العالم الإسلامى » (Revue du Monde musulman). « ومجلة الدراسات الإسلامية » التى حلت محلها (Revue des détudes islamiques).

وفى كلتيهما تحقيقات علمية وأدبية كثيرة .

وأسلوب ماسنيون صاف نقى ، يتخير لفظه ، ويتأنق فى عبارته حتى تكاد تشبه النثر المنظوم : وله غرام بالتركيز ، وولوع بالرمز والإشارة والتلميح وكأنها عادة اكتسبها من أساليب المتصوفة ولغتهم . وأداء للمعنى على أكمل وجه لا يتردد فى أن يضع ألفاظاً جديدة ، وزيادة فى التوضيح يلجأ إلى المجاز والتشبيه وضرب الأمثال . ويستطيع بقلمه أن يرسم صوراً ناطقة للأشخاص ، كما كان يصنع لهم أبوه بمنحاته تماثيل معبرة . منطقه محكم ، واستدلاله مقنع ، وحجته بالغة ، ولا بد فى رأيه أن ترد الأمور دائماً إلى أصولها ومبادئها ، وكثيراً ما كانت تجرى لفظة الأصول على لسانه .

* * *

ويعول فى بحثه ودرسه على المنهج التاريخى والمنهج التحليلى معاً ، وهو دون نزاع مؤرخ من الطراز الأول . بدأ حياته العلمية بالحفر والتنقيب عن الآثار ، ثم استمر ينقب عن المراجع والمصادر ويوازن بينها ، ويكشف عن نقصها أو زللها ، ولا يكاد يغيب عنه مصدر من مصادر الثقافة الإسلامية قديماً كان أو حديثاً . وجدّ فى الاستقصاء والبحث عن المخطوطات النادرة إلى درجة لا تبارى ، وكثيراً ما ساعد بها تلاميذه على التحقيق والدراسة . ولا يكاد يعالج موضوعاً حتى يستوفى تاريخه ، فدراساته فى التصوف مثلا تاريخ فى تصوف وتصوف فى تاريخ ، وأبحاثه الاجتماعية تقوم على الماضى والحاضر معاً .

وأما منهجه التحليلى فدعاة للدهشة والإعجاب ، ذلك لأنه يسرد وقائع ويأتى بتفاصيل عن الماضى البعيد يتساءل السامع أو القارىء كيف استمدها . يغوص حتى الأساس ، وقد يستطرد ، ولكنه يحاول لم الأطراف وجمع الأمور المتشابهة بعضها إلى جانب بعض . وتحليله للنصوص عميق

دقيق ، ينفذ إلى صميمها ، وينطقها بحيث يجعل من حروفها الميتة صوراً متحركة . ولكنه يحلل ليركب ، ويفصل ليجمل ، ويسرد الوقائع ليستخلص منها مبادىء وأحكاماً عامة . وكأنما كان يؤمن بضرب من حتمية التاريخ ، ويرى أن الظواهر التاريخية — كالظواهر الطبيعية — تخضع بدورها لفلسفة وميتافزيقى خاصة .

(ج) آراؤه :

يلحظ على مؤلفات ماسنيون ، وخاصة الصغرى وهى الغالبية العظمى ، أنها أبعد ماتكون عن ملخصات الجمع والتحصيل . وإنما تهدف إلى إثارة مشكلة أو حل أخرى ، أو ترمى إلى إبداء رأى أو مناقشة آخر ، وأستاذ الكوليج دى فرانس إنما كان يخاطب المتخصصين . وليس بيسير أن نحاول هنا تتبع آرائه المختلفة ، ونكتفى بأن نشير إلى دعائم تفكيره .

لقد كان يؤمن بالحضارة الإسلامية ، ويرى أنها حضارة ذاتية ، صنعها الإسلام بتعاليمه ومبادئه ، وساهمت فى بنيانها الشعوب الإسلامية المختلفة . ولا نزاع فى أنه سرت إليها تيارات من الحضارات الأخرى ، ولكنها عدلتها وهذبتها وأصبحت جزءاً منها ، وهى وليدة عواملها الداخلية قبل أن تكون صنع المؤثرات الخارجية . وإذا كانت قد أخذت عن غيرها ، فإنها أعطت بقدر ما أخذت أو يزيد : لها علمها وفنها ، ولها نظمها السياسية والاجتماعية ، وقد طبعت العالم الإسلامى كلها بطابعها ، ولا سبيل لأن يفهم بدونها . وهى جديرة بأن تشرح وتدرس ، لأنها صُوِّرت أحياناً خطأً وفهمت على غير وجهها ، ولها قيمتها بين الحضارات الإنسانية . ولهذا وقف ماسنيون نفسه على درسها ، والكشف عن جوانبها ، والإشادة بتراثها . وهى فى رأيه حضارة إنسانية تعتد بالإنسان وترفع من قيمته ، وتدعو إلى الإخاء والمحبة والتعاون والتساند . وهى أيضاً حضارة دينية تعتمد على الإيمان واليقين ، وروحية تخاطب القلوب وترى فى المـــادة مجرد وسيلة ، ومثالية لها قيمها وأهدافها هى فى اختصار حضارة الإسلام .

والإسلام أخو المسيحية واليهودية ، وهى ثلاثتها تمت بصلة وثيقة إلى شريعة إبراهيم . أو ليس محمد ابن الذبيحين ومن نسل إسماعيل ، ألم يكن يتعبد ، قبل أن يبعث ، فى غار حراء على سنة إبراهيم الخليل ، ألم يبشر ببعثه رهبان من النصارى ، ألم يجمع المسلمون والمسيحيون على تقديس أهل الكهف والتعبد بقصتهم ؟ لقد ملأت هذه الأخوة قلب ماسنيون واستولت على روحه حتى أصبح يعد أكبر مسلم بين المسيحيين وأكبر مسيحى بين المسلمين . باسمها استنكر الحروب الصليبية فى الماضى ، وباسمها استنكر العدوان على فلسطين فى الحاضر . ولعله اتجه إليها بوحى من الأب شارل دى فوكو ، ولكنه اعتنقها فى إخلاص ، وعاش يدعو إلى التفاهم والتسامح بين الأديان ، وكم عز عليه أن تهدم السياسة ما بنى فى فلسطين وفى الجزائر . وتقديساً لهذه الأخوة أقام لها شعاراً فى دمياط ، وآخر فى Vieux-Marché بمقاطعة بريتانى موطنه الأول ، وكون فى أخريات حياته ،

« جماعة أصدقاء غاندى » ، التى كان يصوم ويصلى معها ، ويرى فى الصوم والصمت خير رد على الباغين والمعتدين :

لقد كان ماسنيون يعيش بروحه ولروحه ، والأرواح فوق الأوطان والأجناس والعصبيات ، وهى بين المسلمين والمسيحيين على السواء ، ويمكن أن تكون أوثق رباط بين الإنسان وأخيه الإنسان ؟ ويطيب لماسنيون الصوفى أن يخاطب رابعة العدوية كما يخاطب القديسة تريزة ، أو أن يتحدث عن الحلاج كما يتحدث عن جان دارك . لم يدرس التصوف نظراً فحسب ، بل أحس به وعاش فيه ، وبدت آثاره فى قوله وعمله ، واتسم به وجهه ، ونعم بلذة الكشف والفيض : والتصوف عنده تجربة فى الألم ، تحمل من مر بها على أن يتسامح مع الناس جميعاً على اختلاف الأجناس والأديان ، وقد يصبح طبيباً روحانياً يعالج آلام الآخرين ، يكشف عن الداء ويصف له الدواء . فهو فن معالجة الأمراض من طبيب جربها فى نفسه ، لا يقف أثره عند الفرد ، بل يمتد إلى المجتمع ؟ ومهمة المتصوف لا تقتصر على الخلوة والوحدة ، ولا بد له أن يتأهب دائماً للتضحية فى سبيل الآخرين . وقد كان ماسنيون متصوفاً حقاً ، يقف بجانب الضعفاء ، وينتصر للمظلومين ، وتصوفه وثيق الصلة بدراساته وآرائه الاجتماعية . وفى التصوف كل القيم الأساسية للإسلام . يبدأ بالعبادة ، ويسمو إلى النورانية ، ثم ينتهى إلى الاتحاد . والاتحاد الصوفى ممكن عقلاً ، وواقع فعلاً ، وقد حظى به الحلاج بين متصوفى الإسلام : ولا معنى للحياة إلا إن قامت على أساس روحى ، وبهذا يعد ماسنيون فى مقدمة أنصار المذهب الروحى بين المعاصرين :

وللعربية عنده وظيفة دينية ، لأنها تعبر عن أوامر الله ، ووسيلة التأمل والمناجاة : هى لغة الوحى ، ومنه استمدت مجدها وقداستها . ولقد أحبها لأنه وجد فيها نفسه ، وتعمق فيها ، وكشف عن كثير من أسرارها التى لم تكشف لغيره . وكان يروقه منها أنها لغة مركزة ، تنبعث من ألفاظها المعانى كما تنبعث الشرارة من الحجر ، وتجيد التعبير عن المجردات ، فهى أنسب ما يكون للتقرب والعبادة . لم تصل واحدة من أخواتها إلى مستواها ، وبدت فيها العبقرية السامية على أوضح وأكمل صورة . وفى محاضرة ألقاها على جماعة الكرمليين ، عقد موازنة طريفة بين اللغات العالمية ، وقسمها إلى ثلاث أسر : سامية ، وهندوأوروبية ، وطورانية . ولاحظ أن العربية فى أغلبها ثلاثية الأصول ، وأنها لغة سواكن ، وهى أكثر الساميات احتفاظاً بسواكنها ، ولنبرات الصوت شأن فى توضيح المعنى .

وهى لغة حضارة ، تستطيع بألفاظها وتراكيبها أن تؤدى أدق المعانى وأحدثها . وفى نحوها كمال ودقة لم تتوفر لأى نحو آخر ، وربما امتدت إليه آثار يونانية أو سريانية ، ولكنه فى أساسه عربى ، وقد أثر دون نزاع فى تطوير النحو العبرى والسوريانى . وجدير بنا ألا نستجيب لدعوة بعض المربين الذين يريدون أن يحلوا محله نحوا أوربيا ، لنيسر تعليمه ، ولا يصح مطلقاً أن نعدل أصوله . وفى الخط العربى جمال ينبغى ألا يحرم منه التراث الإسلامى ، وله شأن فى تأسيس فن

النقش المجرد : وقد مال ماسنيون فى البداية إلى الإصلاح التركى الذى رمى إلى إحلال الحروف اللاتينية محل الحروف العربية ، ولكنه لم يلبث أن عدل عنه واستنكره .

* * *

هذه فى اختصار هى دعائم الدراسات الإسلامية التى قام بها ماسنيون ، وتكاد تحمل كلها طابعاً صوفياً ، وكأنما كان يرى الأشياء جميعها من خلال تصوفه . ومهما يكن فإنه دفع هذه الدراسات دفعة لم يقو عليها مستشرق آخر ، وأضحى رمزاً لها وعلماً عليها فى الشرق والغرب ، والتف حوله جمع وفير من التلاميذ والأعوان . واستمر يتعهدها حتى النفس الأخير ، وقد رسمنا سوياً فى أغسطس الماضى خطة عدد خاص من مجلة « بابل » فى موضوع الترجمة المعاصرة من العربية وإليها ، على أن يساهم فيه ألمانى وفرنسى وإنجليزى وإيطالى وعربى وقبلوا جميعاً ، واتفق على أن يظهر فى أبريل القادم ، وعسانى أوفق لذلك إحياء لذكراه . واستحق بهذا كله تقدير المجامع والهيئات العلمية فى العالم بأسره ، واختير عضواً فى أكاديميات السويد والدنمارك وهولندة وبلجيكا وروسيا وإيران والعراق وسوريا ومصر .

* * *

لم يكن ماسنيون الإنسان بأقل شأناً من ماسنيون العالم ، امتلأ قلبه بالشفقة والرحمة وانطبعت نفسه على العدل والحق . كان يمقت الغموض ، والادعاء ، والغش والمواربة . يخشى الخطيئة كل الخشية ويبكى لها فى ساعات تقربه فى جبل قيسون بدمشق أو فى بيت المقدس أو فى دمياط ، وما أسرع عبراته وما أحرها . دفعه واجب الأخوة فى الله إلى أن يعطى العمال الجزائريين المقيمين فى مقاطعة السين دروساً مسائية فى اللغة الفرنسية، ولم يأنف أستاذ « الكوليج دى فرانس » أن يصبح معلم عمال . ويوم أن حكم على بعض نواب مدغشقر بالإعدام لم يستقر له قرار إلا بعد أن استصدر العفو عنهم . كان يرى أن الإيمان شهادة ، وفكرة الشهادة هذه من أعز الأشياء لديه . لهذا كان يحرص دائماً على أن يقول كلمة الحق ، ولقد قالها دائماً برغم القوة وعنفها . دعا إلى استقلال مراكش وأيد محمداً الخامس واستنكر تصرف الجلاوى ، وعارض حرب الجزائر كما عارض حرب السويس . وجرّت عليه معارضته ما جرّت من أذى وعدوان ، فقبض عليه مرة فى فنسين وقيد إلى مركز الشرطة ، وعومل معاملة الأشرار . وضرب مرة أخرى ضرباً مبرحاً فى اجتماع عام ، كان يعرض فيه قضية الجزائر . وما كان يتبرم قط بهذا الأذى ، بل كان يطيب له أن يردد بيت الحلاج :

اقتلونى يا ثقاتى   إن فى قتلى حياتى

٣ — أحمد لطفي السيد (أبريل ١٩٦٣)

دخل لطفي السيد التاريخ من عدة أبواب ، وقيد فى سجل الخلود حيا وميتاً ، وقف نفسه على الإصلاح والتجديد ستين عاما أو يزيد ، وهى مدة لم تتوفر لمصلحين كثيرين ، قضاها يفكر ويدبر ، ويبحث ويدرس ، ويدعو ويعلم ، ويطبق وينفذ . كان يرى أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة ، وأن التطور سنة أكيدة من سنن الحياة ، لا يخرج عليها فرد ولا مجتمع . وكان همه أن يلائم بين الماضى والحاضر ، وأن يعدهما للمستقبل ، ويؤهلهما لسير الحياة الزاخر ، وقل أن نرى شيخاً اقترب من الشباب قربه ، واتسع صدره للجديد مثله . ولم يكن تطورياً فحسب ، بل كان تقدمياً أيضاً ، يعتقد أن الإنسانية سائرة إلى الأمام دائماً ، وأن جيل اليوم خير من جيل الأمس ، وأن ثلاثة أجيال كفيلة بأن تصعد بالأمة المصرية إلى مصاف الأمم الراقية .

على هذه الأسس قامت دعوته الإصلاحية ، وهى أسس كلها تفاؤل وأمل ورجاء ، فدعا فى ثقة وطمأنينة ، ووجه فى لين وهوادة ، وخاطب العقل قبل أن يخاطب العاطفة . لم يبد عليه قط أنه يستعجل الخطأ ، أو يكلف الأشياء ضد طباعها ، أو يثيرها شعواء . ولم تسلم دعوته من النقد والمعارضة ، ولكن مسلكه الهادئ خفف من غلواء ناقديه ، ووضعه موضع الإجلال لدى مؤيديه ومعارضيه على السواء . والاعتدال عنده من أسمى الفضائل ، اعتدال فى الرأى والقول والعمل ، وقديماً قرر أرسطو « أن الفضيلة وسط بين طرفين » .

امتد تجديده وإصلاحه إلى ميادين السياسة والاجتماع والفكر والثقافة . وكان طبيعياً أن تجتذبه السياسة أولا ، وهو تلميذ جمال الدين وربيب الحركة الوطنية الثائرة فى أخريات القرن الماضى . والسياسة عنده وثيقة الصلة بالاجتماع ، لأن حظ الأمة من النضج السياسى رهن بمستواها الاجتماعى ، وكم دعا إلى تطوير المجتمع المصرى ورفع شأن الفرد والأمة . ولا سبيل إلى نهوض حقيقى إلا بالعلم ، والعلم الغزير ، وواجبنا أن نمكن له بإنشاء جامعة تساهم بنصيب فى رقىّ المعارف الإنسانية . واللغة أداة العلم ووسيلة التفاهم ، وما أحوجنا أن نطوعها لمقتضيات العصر وظروف الحضارة ، وفى قيام مجمع لغوى ما يعين على ذلك ، وحسبى أن أقول كلمة عن لطفى السيد اللغوى والمجمعى :

ليست نهضتنا اللغوية الحاضرة بنت القرن العشرين ، بل تصعد إلى القرن الماضى ، تزعـمها فى البداية رفاعة الطهطاوى ، ودفعها الأستاذ الإمام من بعده دفعة قوية ، ودعا إلى إنشاء مجمع لغوى شبيه بالمجامع الغربية ، ولم يتردد عام ١٨٩٢ فى أن يشترك مع الشنقيطى فى مجمع البكرى الذى لم يعمر طويلا والذى عنى بألفاظ الحياة العامة. وفى أوائل هذا القرن أثيرت فى حماس مشكلة المعرّب والدخيل ، وعقد لها حفنى ناصف عام ١٩٠٨ ندوة خاصة فى نادى دار العلوم وقد دامت أسبوعين كاملين ، وألقيت فيها بحوث مختلفة ، نذكر منها بحثا لفتحى زغلول أظهر فيه ضرورة مسايرة اللغة

لحاجات التطور ومقتضياته ، وآخر لمحمد الخضرى فى « تعريب الأسماء الأعجمية» ، وثالثا لطنطاوي جوهرى فى « العامية والفصحى » ، ورابعا لحفنى ناصف فى « الأسماء العربية لمحدثات الحضارة والمدنية » . وانتهت هذه الندوة إلى قرار يقضي بضرورة قيام مجمع لغوى يرعى حركة التعريب ويشرف عليها .

فى هذا الجو عقد لطفى السيد فى « الجريدة » سبع مقالات لمحاربة الجمود اللغوى ، ودعا إلى تطوير اللغة والنهوض بها ، لأنها ظاهرة اجتماعية تخضع لظروف المجتمع وأوضاعه . وقد كان متمكنا من العربية ، ملما بتاريخها وما حل بها من ضعف فى القرون الأخيرة . ومن ملاحظاته أن الألفاظ كأوراق الخريف يسقط بعضها لتحل محله أوراق جديدة ، وأن العربية تبدو غنية غزيرة المادة فى المعجمات ، فقيرة ناقصة فى الاستعمال وشئون الحياة . وراعته بوجه خاص تلك الثنائية بين لغة العامة ولغة الخاصة ، لأنه كان يخشى أن تطغى الأولى على الثانية . وواجبنا أن نقرب إحداهما من الأخرى ، فننزل بالفصحى إلى ميدان التخاطب والتعامل ، ونصعد بالعامية إلى مستوى الكتابة والتحرير . وهو حل عملى حققته الأيام ، وإن صادف فى حينه قدرا من النقد والمعارضة ، وفيه ضرب من التمصير الذى يتمشى مع نزعة لطفى السيد العامة ولم لا نستعمل ما رق من الكلمات العامية فى انشائنا وتحريرنا؟ ولم لا نيسر أمر الكتابة والإعراب على عامة الناس حتى تصبح الفصحى فى متناول أيديهم ؟

وتطوير اللغة عمل طويل المدى وشبيه بأن يكون لامتناهيا ، ولابد أن تتضافر عليه جهود شتى ، وتتعهده هيئة خاصة : وفى عام ١٩١٦ أخذ لطفى السيد نفسه بتكوين هذه الهيئة ، وأنشأ ما يسمى « مجمع دار الكتب » : وأراد به أن يكون أهليا ، على غرار الأكاديمية الفرنسية فى نشأتها : وضع لائحته ، واقترح أن يتكون من ثمانية وعشرين عضوا ، منهم خمسة وعشرون من العرب وثلاثة من الفرس والسريان والعبرانيين وأن يعقد فى كل دورة اثنتى عشرة جلسة على الأقل وأن يشتمل على عدد من اللجان . وقد اشترك فيه فعلا بعض رجال اللغة والعلم والأدب من المصريين أمثال عاطف بركات ، وحفنى ناصف ، وإسماعيل عاصم ، ويعقوب صروف ، وحلمى عيسى ، وأمين واصف ، وأحمد الاسكندرى : وتولى رياسته الشيخ سليم البشرى ثم الشيخ أبو الفضل الجيزاوى وكان لطفى السيد كاتب سره . عقد إحدى عشرة جلسة فى دورة ١٩١٧ — ١٩١٨ وسبعا فى الدورة التالية ، ولم يلبث أن ارتطم بصخرة التعريب وطغت عليه أحداث ثورة سنة ١٩١٩ ثم حاول العودة فى عام ١٩٢٥ ، ولكنه لم يعقد إلا جلسة واحدة :

ومع هذا لم تفارق فكرته لطفى السيد بحال ، وما أن تولى وزارة المعارف عام ١٩٢٨ حتى أخذ يعد العدة لتحويل « مجمع دار الكتب » إلى مجمع أميرى . ووضع فى ذلك مشروعا كان نواة مرسوم إنشاء المجمع الذى صدر عام ١٩٣٢ ، وإذا لم يحقق ما كان ينشده له من

شخصية معنوية كاملة واستقلال تام. ولم يشترك فيه إلا عام ١٩٤٠ ، ومنذ ذلك التاريخ وهو يضفى عليه من روحه ، ويسهم ما وسعه فى نشاطه ، ويغذيه من علمه وتجربته ، ويسبغ عليه ثوبا من الجلال والتقدير :

اشترك فى أكثر من لجنة من لجانه ، فانضم إلى لجنة الأصول حينا ، وإلى لجنة المعجم ولجنة اللهجات حينا آخر ، ولازم لجنة الأدب ، والفلسفة ، وألفاظ الحضارة زمنا طويلا ، وله فيها آثار واضحة . ويكفى أن نشير إلى لجنة الأدب التى خطا بها خطوة فسيحة ، فوضع لها لائحة ثابتة ، ومكنها من أن تعلن عن مسابقات أدبية وإن لم يرصد لها مال ، واستجاب بعض الخيرين لرغبته وتبرعوا للمجمع بما يمكن أن يجيزبه . ثم استقرت جوائز المجمع الأدبية ، واعتمد لها فى ميزانيته المال اللازم ، واشترك فيها شباب الكتاب والشعراء عاما بعد عام وإليه يرجع القول بعدم اشتراك أعضاء المجمع فى هذه الجوائز ، أخذا بما هو متبع فى المجامع الأخرى ، ووقوفا بهم فى مستوى القضاة والحكام ، وما إن انضم إلى لجنة المعجم حتى وجهها نحو ألفاظ الحياة العامة ، وما تشتمل عليه الدواوين ودور الصناعة من مصطلحات وتعبيرات : ومن توجيهه هذا نشأت لجنة ألفاظ الحضارة التى حرص دائما على أن يشهد اجتماعاتها ، وينفذ منها إلى تطوير اللغة الذى نادى به منذ ثلاثين عاما أو يزيد ، فيقبل بعض العامية فى معاجم الفصحى ، ويفصح بعض الكلمات الأعجمية :

ولم يكن نشاطه فى المجلس بأقل من نشاطه فى اللجان ، يشهد جلساته ما وجد إليها سبيلا ، ويقدس مواعيده ، ويتابع إنتاجه فى عمق ودقة . أديب ولغوى ، فقيه وفيلسوف ، فى اطلاع واسع ودراسة مستفيضة ، وله من هذا كله زاد كبير يروح به عن النفس ، ويفحم الخصم ، ويبت فى نقط الخلاف ، وليس ثمة امتع من حواره ومناقشته ، يجمع بين الطرفة النادرة والحجة البالغة . وكم كان دقيقا فى اختيار المصطلح العلمى وضبطه ، وقد أسهم بنصيب ملحوظ فيما أخذ به المجمع من منهج لوضع المصطلحات وإقرارها . يؤمن بالتخصص ، وأن « من عرف حجة على من لم يعرف » ويؤيد العرف والاستعمال . ويقرر فى غير تردد أن مهمة المجمع أن يسجل ما اصطلح عليه المتخصصون . وكثيرا ما نادى بضرورة قيام مجامع علمية وفنية إلى جانب المجمع اللغوى . يمقت الترادف فى لغة العلم ، ويحرص على أن ينزه العربية من أخطاء بعض المصطلحات الأجنبية . ويأخذ بمبدأ التعريب ، وخاصة فى المصطلحات العالمية . ويرى ضرورة تعريف المصطلح العلمى قبل أن يعرض على المجلس والمؤتمر ، كى يتضح مدلوله ويصبح مادة صالحة للتأليف المعجمى :

وما إن دخل المجمع حتى سمت إليه رياسته ، وفاز بالأغلبية فى انتخابات أبريل سنة ١٩٤١ ، ولم يؤخذ بنتيجتها لاعتبارات تتصل فى الغالب بالرضا والغضب السامى ، ولم يعين إلا فى مارس سنة ١٩٤٥ ، وبقى الرئيس الدائم الذى حظى بالثقة والتأييد التام . واستطاع أثناء رياسته أن يرفع أعضاء المجمع العاملين من ٢٠ إلى ٣٠ ، ثم من ٣٠ إلى ٤٠ ، وأصبحوا أخيرا ٨٠ نصفهم من مصر والنصف الآخر من سوريا والأقطار العربية الأخرى . والمجمع فى رأيه هيئة

علمية مختارة ، ومثابة بحث ودرس ، ولا بد أن يتوفر له استقلال يمكنه من أداء رسالته ، ومال يفي بحاجته ومبنى يتلاءم مع ما يرمز إليه من معنى الخلود . وقد نادى لطفي السيد باستقلال المجمع منذ أوائل هذا القرن ، واستمر يردد النداء ويضع مشروعات لتحقيقه ، ولم يؤخذ بواحد منها إلا في العهد الحاضر ، وكأنما لم يكن للمال حساب عنده ، ينفر من الحديث فيه ، ويأبى أن يطلبه ولو لغيره ، ولعله كان يرى أن الخالدين أسمى من أن يقاس عملهم بمقياس الزمن والمال . فبقي المجمع ورائده ضرب من الزهد والتقشف ، وبقيت ميزانيته متواضعة كل التواضع : وفي افتتاح الدورة الثالثة عشرة عام ١٩٤٦ ، ذكّر لطفي السيد الحكومة بضرورة وجود مكان يتسع لأعضاء المجمع وموظفيه وخبرائه ويفي بحاجات لجانه ومجلسه ومؤتمره ، واستمر يذكرها من حين لآخر ، دون أن يحظى المجمع بالمقر الملائم .

وللطفي السيد آثار واضحة في نظم المجمع وسير العمل فيه وقد كان إماما في تقرير المبادئ ووضع التقاليد ، وله في تقاليد الأكاديمية الفرنسية التي أحاط بدقائقها مثال يحتذى . فهو الذي حدد العام المجمعي ، وجعله ثمانية أشهر من أكتوبر إلى مايو ، وقرر الجلسة الأسبوعية التي تعقد يوم الاثنين بانتظام ، وفصل بين المجلس والمؤتمر وأفسح المجال لكاتب السر كي يتابع أعمال المجلس المختلفة ، وترك له التعريف بها في افتتاح كل مؤتمر . وهو في رياسته للجلسة وإدارته للمناقشة مثل فذ في الديمقراطية الحقة والبرلمانية الصحيحة . ويحرص على النظام والدقة ، ويحفز إلى المناقشة ، ويفسح المجال للأخذ والرد ، ويستمع لوجهات النظر المختلفة . يقدس حرية الرأي وينصت للمؤيد والمعارض على السواء ، يَرُد ويُرَد عليه ولا يتردد في أن ينصف معارضه من نفسه .

* * *

لقد قضى مجمع اللغة العربية ست سنوات يعمل قبل أن يتصل به لطفي السيد ، وكانت نزعته الغالبة أن يرجع إلى الماضي غير معتد كثيرا بالحاضر ، يعنى بلغة القرن الثامن والتاسع ، ولا تكاد تستوقفه لغة القرن العشرين . واستطاع الرئيس الراحل أن يربطه بالحياة ، ويرد إلى لغة القرن العشرين اعتبارها ، وأظهر في وضوح أن على المجمع أن يسجل قبل أن يخترع ويبتكر ، يسجل ما تواضع عليه الناس من لفظ وتعبير مادام يتمشى مع المبادئ العامة للغة . وعليه أن يسهل وييسر لأن العالم يسير وتسير اللغة معه ، وهي لا محالة متطورة فليكن كل همنا أن نشرف على تطورها ونرعاه .

وبرغم ربطه المجمع بالحياة كان يؤثر له أن يعمل فى صمت عن الجلبة والضوضاء وأصبح أشبه ما يكون بصومعة يأوى إليها الخالدون للبحث والدرس . ولا صلة لهم بالجمهور إلا يوم أن ينتهوا إلى قرار يطور اللغة وييسرها ، فينشروه على الناس . والعمل العلمى الجاد فى حاجة ماسة إلى الهدوء والاستقرار ، وربما اختلفنا معه بعض الشىء فى هذا المنحى ، ولكن استطاع المجمع أن يتفادى به بعض الحملات المغرضة والتيارات الجامحة .

لقد حمل لطفى السيد المشعل ، وأنار الطريق ، وإنا على هديه لسائرون .

٤ — لطفى السيد أستاذ الجيل (*)

قل أن توافرت لشخص صفات الأستاذية مثلما توافرت للطفى السيد : بسطة فى العلم ، ورجاحة فى العقل ، ووضوح فى البيان، وإدراك تام لعقلية محدثيه ومن يستمعون إليه . لم يمتهن التدريس قط ، وإنما كان يعلم فى ناديه ومجلسه، فى حديثه وسمره ، وعلى طريقة سقراط أو جمال الدين الأفغانى ، وخير العلم ما جاء إيحاء وتلبية لرغبة .

ولمجلسه عشاق وطلاب ، يسعون إليه ، ويحرصون عليه وينعمون به . فيه جد ودعابة ، وأدب ولغة ، وعلم وحكمة ، واجتماع وسياسة . ولم أر مجلسا أحب من مجلسه ، ولا حديثاً أمتع من حديثه ، يعرف كيف يصرف الحديث، ويفتح باب المناقشة، ويثير المشاكل والمعضلات. وإذا قعد به المرض سعى طلابه ومريدوه إليه ،فيجد فى الدرس صحته وفى الحديث شفاءه ، ولم أجلس إليه قط إلا وخرجت برأى صائب وحكمة بالغة .

ولطفى السيد الصحفى أستاذ أيضا ، رسم لفن الصحافة حدوده ومعالمه يوم أن كان فى أمس الحاجة إلى ذلك . أراد بها أن تكون وسيلة ناجعة من وسائل التوجيه وتربية الوعى السليم ، واستمسك بحريتها واستقلالها ، بحيث لا تخضع لميل أو هوى ، ولا تجارى ظالماً فى ظلمه ولا مستبدا فى استبداده. وخلق منها — حين عز النصير — قوة شعبية، تقف فى وجه السراى تارة ، وفى وجه دار المعتمد البريطانى تارة أخرى ، ويحسب لها حساب فى ساعات الحرج والشدة .

ولطفى السيد المؤلف والمترجم أستاذ غير منازع ، يرى أن الحضارة الإنسانية كُلٌ متصل الأجزاء، يرتبط حاضرها بماضيها، وهما معاً يمهدان لمستقبلهما، لذلك عمد إلى التراث القديم يكشف عنه ، وإلى ذخائر الفلسفة اليونانية يعربها . وهو جهد شاق وعمل مضن ، إلى جانب رسالته الكبرى وأعبائه الباهظة ، ولكنه أبى إلا أن يضرب فيه المثل ويرسم الخطة ، وما أجدرنا أن ننظر إلى مترجماته خاصة من ناحية أهدافها وغاياتها ، دون أن نقف فقط عند جانبها الفنى والعلمى. ولا يزال إحياء التراث القديم فى حاجة إلى صوت قوى مثل صوته، وتعريب الذخائر الخالدة إلى سند مثل سنده .

لقد كان لطفى السيد رئيس مدرسة كبرى ، تخرج فيها الأدباء والعلماء ، والساسة والمصلحون أمثال : مصطفى عبد الرازق . محمد حسين هيكل ، منصور فهمى، عباس العقاد، طه حسين، ومحمد كامل حسين . ولهذه المدرسة شأن واضح فى الحركات القومية والوطنية ، ودعوات

(*) كلمة ألقيت فى مهرجان محافظة الدقهلية للذكرى السنوية الأولى .

النهوض والإصلاح في الخمسين سنة الأخيرة : ساهمت في ثورة ١٩١٩، ووجهت إلى ثورة ١٩٥٢.

رأس لطفى السيد هذه المدرسة منذ فجر هذا القرن ، ورسم لها منهج البحث والدراسة ، وغذاها بآرائه وتعاليمه : وكان يؤمن بالعقل إيمانه بسنة النشوء والارتقاء ، وكم كان يروقه أن يقول « قال مولانا أرسطو » ، ذلك لأنه كان يرى فيه رمز المنطق ، وعلما من أعلام المذهب العقلى بين اليونان . وللطفى السيد ولوع بالمنطق في حواره وجدله ، يقيس ويوازن ، ويبحث عن العلل والأسباب ، ويرد الأشياء إلى أصولها ، ويمقت المغالطة والتضليل :

وفى العقل إدعام للرأى ، واتفاق للأهواء ، وأمان من الزلل ، وجمع للكلمة ، وقل أن يضل قوم حكموا عقولهم تحكيماً سليما . وعلى هذا يجب أن تقام السياسة على أسس عقلية ، وهذا ما أخذ لطفى السيد به نفسه منذ بدأ يحرر في الجريدة ويشترك في حزب الأمة ، واستمسك به في جميع مواقفه السياسية التالية فكان يبحث عن الأصول والمبادئ ويحتج بالنظريات السياسية المختلفة ، ويستمع في سماحة لمعارضيه ليزن حججهم ويقف على منطقهم : والسياسة ميدان لا يخلو من ميل الهوى وجموح العاطفة ، واستطاع هو أن يسمو على ذلك . ولئن تمكن منه ميل ما أبى إلا أن يصوغه في قالب عقلى . وربما كان هذا هو سر ما اتسم به من اعتدال ، وأخذ بأسباب الفهم والتفاهم ، وتقريب لوجهات النظر :

وأما التطور فكان عقيدة راسخة لديه ، يرى أن الفرد يتطور كما يتطور المجتمع ، وأن جيل اليوم غير جيل الأمس ، ولقد بقى لطفى السيد فسيح الصدر دائما للأفكار الجديدة ، برغم تقدم سنه ، يستقبلها في ثقة ، ويزنها بميزانها الصحيح ، ويحاول أن يلائم بينها وبين سنه التطور ، ولم أر شيخاً اقترب من الشبان والكهول قربه ، يحس بإحساسهم ، ويستطيع أن يعيش في عالمهم :

ولم يكن هذا التطورى يؤمن بالنشوء فحسب ، بل كان يؤمن أيضاً بالارتقاء : فالإنسانية سائرة إلى الأمام في علمها وفنها ، في نظمها وقوانينها ، وقد تعترضها محن وأزمات ، ولكنها لا تصرفها عن الغاية المحتومة : وجيل اليوم خير من جيل الأمس ، وثلاثة أجيال كفيلة بأن تصل بالأمة المصرية إلى ما تصبو إليه ، وفكرة الأجيال الثلاثة هذه مشهورة لدى أصدقائه ومريديه . والتطور على كل حال أساس الثورة والانطلاق ، وقد مد الله في أجله إلى أن رأى ثمار آرائه وتعاليمه حية متحركة :

هذا هو لطفى السيد أستاذ الجيل ، ومن حق محافظة الدقهلية ، وهو علم من أعلامها ، أن تحتفى به وتخلد ذكراه . وما أحوجنا في ثورتنا العارمة وانطلاقتنا الجبارة إلى أمثلة حية نحتذيها ، وهداة نسترشد بهم ، ولا شك في أن لطفى السيد كان في الصف الأول من قيادتنا الفكرية والروحية طوال نصف القرن الأخير :

٥ ــ محمد البشير الابراهيمى (أكتوبر ١٩٦٥)

نجتمع اليوم لنؤبن شيخاً من شيوخ الإسلام ، وعلما من أعلام النهضة الجزائرية ، فقدنا فيه أديباً بليغاً ، ومربيا كبيراً ، ومصلحاً عظيما ، ومجاهداً مؤمناً . قضى فى وطنه ثلاثين عاماً أو يزيد فى خدمة الدين واللغة ، فأحيا معالم القومية ، وأعد جيلا من المكافحين والمناضلين ، ومهد السبيل لاستعادة الاستقلال والحرية . أحب المجمع واتصل به منذ زمن ، وعد من أصدقائه الأوفياء ــ وفى عام ١٩٦١ اختير لعضويته العاملة ، وكنا نعول التعويل كله على مساهمته والإفادة من علمه وفضله ، ولكن دعوة الأهل والوطن اجتذبته ، ولم يشهد معنا إلا مؤتمراً واحداً . ثم قعد به المرض ، ولزم داره نحو ثلاث سنين ، ورزئنا بفقده قبل نهاية دورة المجمع الماضية ، وودعناه دون أن نلقاه . وكأنما استشف حجب الغيب ، فبعث إلينا فى يناير الماضى برسالة كلها حنين وشكوى وذكريات ووداع .

إن مجال القول فى البشير ذو سعة ، وإن الحديث عنه ذو شجون . وقد أرخ لنفسه فى صفحات طوال ترى من الوفاء له أن نسجلها فى محضر هذه الجلسة ، ونجتزئ هنا بقدر منها .

(ا) حياته :

لقد كانت حياة البشير ملأى بالدرس والبحث ، والدعوة والإرشاد ، والجهاد والكفاح ، ويمكن أن ترد إلى مراحل ثلاث : نشأة وتكوين ، رحلة وأسفار ، ثم دعوة وجهاد . وما أشبهه فى نشأته بكثير من شيوخ الإسلام فى القرون الأخيرة ، أولئك الذين أفادوا من الوراثة والبيئة ، ووقفوا أنفسهم على العلم وتفرغوا له تمام التفرغ .

ولد الفقيد عام ١٨٨٩ من أسرة كريمة ، وفى بيت علم ، فأما أسرته فتصعد إلى الأشراف الأدارسة ، وأما بيته فهو أحد تلك البيوتات التى حفظت العلم ، وتدارسته قرونا فى المغرب الأوسط ، ومن أجداده من رحل إلى مصر طلبا للعلم فى الجامع الأزهر ، وتسمى باسم الأمير أو الصاوى أو السنهورى . وقد ربى البشير تربية دينية عربية ، تعهده أبوه ، وأشرف عليه عمه ، وكان أحد شيوخ العربية بإقليم قسطنطينة فى عصره ، وأستاذا التف حوله الطلاب فى بيته .

بدأ فقيدنا حفظ القرآن ولما يتجاوز الثالثة من عمره ، وأضاف إليه بعض المتون كالألفية والكافية ، وأولع بالشعر والنثر ، وتوسع فى دراسة النحو والصرف . ولم يكد يبلغ الرابعة عشرة حتى توافر له من العلم حظ غير قليل ، واستطاع أن يقوم بالتدريس بإجازة من عمه .

وأبت الظروف إلا أن يرحل أبوه إلى المدينة سنة ١٩٠٨، فاراً من ظلم المستعمرين واضطهادهم ولم يكن بد من أن يلحق به بعد قليل. وهنا تبدأ مرحلة أسفار دامت نحو عشر سنين، اتسعت بها معلوماته واكتملت خبرته. مر بالقاهرة أولا، ومكث فيها ثلاثة أشهر مقبلا على حلقات الدرس في الأزهر والمسجد الحسيني ودار الدعوة والإرشاد، واتصل ببعض كبار الشيوخ، أمثال: البشري، وبخيت والدجوى، والسمالوطى، ورشيد رضا، ولم يفته أن يزور شوقى، وحافظ إبراهيم. ثم انتقل إلى المدينة ولم يكن له فيها عمل إلا البحث والدرس، والاطلاع والقراءة، وعنى خاصة بعلم الحديث والتفسير وبعض علوم المعقول. وكانت المدينة حين ذلك ملجأ لنفر من كبار علماء الإسلام ضاقت بهم أوطانهم، فرحلوا إلى كنف الرسول حيث الهدوء والطمأنينة. وهناك لقى العزيز الوزير التونسى، وحسين أحمد الهندى، وعبد الباقى الأفغانى، ومحمد الشنقيطى، ومواطنه وزميله الأكبر عبد الحميد ابن باديس، شيخ شيوخ شمال أفريقيا، فى أخريات القرن الماضى وأوائل هذا القرن. ثم قضت ظروف الحرب العالمية الأولى بأن ينتقل مع سكان المدينة إلى دمشق، حيث يبدأ رحلة علمية ثالثة فاتصل بمجالس العلم، ودرس فى المسجد الأموى والمدرسة السلطانية، وهى المدرسة الثانوية الوحيدة حين ذلك، وتتلمذ عليه بعض رجال الفكر والأدب المعاصرين.

وما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها حتى عاد إلى وطنه ليؤدى واجبه ويساهم فى نهضته. وقد أبلى فى ذلك بلاء حسنا. فعقد الندوات، وألقى المحاضرات، وقام بالوعظ والإرشاد متنقلا من مدينة إلى أخرى. ونظم دروسا لصغار التلاميذ، لم تلبث أن أضحت مدارس تزود النشء بزاد من العلم الصحيح واللغة القويمة. وأسس مع ابن باديس، صديقه وزميله فى المنفى، جمعية العلماء التى كان لها شأن فى يقظة الجزائر واستقلالها، اضطلع بقسط كبير من أعبائها، وظل يجاهد ويناضل باسمها إلى أن ضاقت به سلطة الاستعمار فاعتقل عام ١٩٤٠، بدعوى أنه أصبح خطرا على الدولة ونفى إلى صحراء وهران. وبقى فى المنفى نحو ثلاث سنوات توثقت فيها صلته بالقبائل المختلفة، وألم بعدة لهجات. وما إن أطلق سراحه حتى عاد إلى نشاطه مما دفع المستعمرين إلى تدبير ثورة مفتعلة اتهم بأنه أحد دعاتها. وحكم عليه بالسجن نحو عام.. ولم يحل كل ذلك دونه وأداء رسالة جمعية العلماء. وباسمها رحل سنة ١٩٥٢ إلى المشرق ليلنبه إلى أهدافها، ويطلب لها عونا للوصول إلى غاياتها وقدر للثورة الجزائرية أن يشرق صبحها فبقى فقيدنا فى مصر نحو عشر سنين، ثم عاد إلى وطنه ليشهد ثمار جهوده، ويناضل فى سبيل آرائه حتى النفس الأخير.

حياة خصبة مثمرة، نهلت من معين الآباء، وأفادت من صحبة الإخوان والأصدقاء، وجمعت بين ثقافة المشرق والمغرب، وأمدت صاحبها بوسائل الجهاد والنضال، وقد أدلى فيه بدلوه، وأسهم بنصيبه، ولاقى مالاقى من عنت واضطهاد.

(ب) مؤلفاته :

وما كان لحياة كهذه أن تفسح المجال لتحقيق وتمحيص ، وتحرير وتأليف ، ومع هذا لم يفت البشير أن يعالج فى اللغة و الأدب موضوعات لها طرافتها ، نذكر من بينها :

١ ــ أسرار الضمائر فى العربية ؛

٢ ــ التسمية بالمصدر ؛

٣ ــ الاطراد والشذوذ فى اللغة .

٤ ــ كاهنة أوراس ؛

٥ ــ ملحمة رجزية فى نحو ستة وثلاثين ألف بيت ، نظمها فى منفاه بصحراء وهران ، وحاول أن يصور فيها المجتمع الجزائرى فى فرقه ونحله ، وفى آرائه ومذاهبه الاجتماعية والفكرية .

ومما يؤسف له أن ذلك كله لايزال مخطوطا . وكان الفقيد يعتزم إخراجه إلى النور ، ولم ينشر له فيما نعلم إلا « عيون البصائر » . وهى جملة الافتتاحيات التى كتبها فى « جريدة البصائر » لسان حال جمعية العلماء .

كم نود أن يتضافر تلاميذه وأبناوه على نشر مؤلفاته ، تخليدا لذكراه ، وإحياء لهذا التراث :

(ج) البشير وجمعية العلماء :

لا نظن أحداً يعرض ليقظة الجزائر ونهضتها الأخيرة إلا ويذكر جمعية العلماء ، ويذكر معها ابن باديس والبشير الإبراهيمى . اشتركا معاً فى تأسيسها ، وقاما على أمرها ، وتعاقبا على رياستها ، اضطلع ابن باديس برياستها أولا ، وبعد موته خلفه البشير ، وظل يرعاها إلى أن قامت الثورة الجزائرية ، وهى جمعية تهدف إلى الإصلاح الدينى والعلمى ، وتنشد نهوضا سياسيا واجتماعيا : دعا إليها ما انتهت إليه الأمور فى الجزائر فى أوائل هذا القرن من تفشى الجهل ، وحرص الاستعمار على تقويض دعائم الوطنية ومحو معالم الدين واللغة :

نبتت فكرتها بالمدينة ، حين التقى البشير بأخيه الأكبر ابن باديس ، وكان يسهران معاً ليالى طوالا يستعرضان فيها أدواء الجزائر الاجتماعية والسياسية ، ويحاولان أن يطبا لها ، واستقر رأيهما على أن الأمر يستلزم نهضة شاملة ، وإصلاحا يقوم على أساس من العلم والدين واللغة . ولاسبيل إلى ذلك إلا بتكوين هيئة تبث الدعوة ، وتنشر ألوية العلم فى البلاد ــ وما أجدرها أن تحتمى براية الإسلام ، كى تسلم من اضطهاد المستعمر وبطشه ، وقد سبق ابن باديس أخاه إلى الجزائر ، واستقر فى قسطنطينة واتخذ من أحد مساجدها حلقة لدرسه ، وأقبل عليه الطلاب من كل جانب ، بعد سبع سنين ووضع حجر الأساس لبناء نهضة عربية ؛ ثم لحق به البشير وسار على نهجه . وكانا يلتقيان من حين لآخر لتبادل الرأى ، ومتابعة ماتم ، ورسم برنامج المستقبل واستمرا على ذلك نحو عشر سنين يعدان العدة ، ويتأهبان لتكوين جمعة العلماء . وفى عام ١٩٣١ تم

تأسيسها ، وأمر قانونها الأساسى الذى وضعه البشير ، وحددت أهدافها، ورسمت لها السبل والوسائل .

وهى تهدف بخاصة — فيما يرى البشير — إلى محاربة ضربين من الاستعمار : أحدهما داخلى والآخر خارجى، أو بعبارة أخرى : أحدهما روحى، والآخر مادى. فأما الأول فهو جناية بعض من ينتسبون إلى الدين من العلماء والذين منهم براء، يتجرون باسمه ، ويفرطون فى حقوقه . وأما الثانى فهو استعمار الغاصب الذى أذل النفوس ، وأهدر الكرامة . ورأت الجمعية أن تبدا بالأول ، لأنه أعمق وأدخل فى النفوس . وقررت أن تواجهه على بساط العلم والمعرفة ، فنظمت حملة جارفة على البدع والخرافات وجهت فيها الخطباء والوعاظ إلى المساجد والأندية ليرشدوا المسلمين إلى حقيقة الدين الحنيف ، وألقت ماألقت من محاضرات للعامة والخاصة ، ووضعت لذلك كله نظاماً دقيقاً ، فعينت مشرفا لكل مقاطعة من مقاطعات الجزائر الثلاث : ابن باديس لقسطنطينة ، والطيب العقبي للجزائر ، والبشير الإبراهيمى لوهران ، ويعاونهم نخبة من العلماء والخطباء ، واستعانت بالصحافة على نشر دعوتها ، واتخذت لنفسها صحيفة خاصة هى جريدة « البصائر » ، وكان فقيدنا قطب رحاها .

وأبت الجمعية إلا أن تواجه الأمر من أساسه، فتبدأ بتربية النشء تربية إسلامية عربية ، وأنشأت فى عام واحد ٧٣ مدرسة ابتدائية ، واستجاب الشعب لدعوتها ، فأمدها بالمال ، وشيدت مدارسها على طراز خاص ، واستطاعت أن تشيد مايزيد على ٤٠٠ موزعة على البلاد كلها ، وبلغ عدد التلاميذ فى هذه المدارس عشرات الآلاف . وأضحت الجمعية أشبه ماتكون بوزارة تربية شعبية ، لها مالية مستقلة وإدارة محكمة ، ولم تقنع بالتعليم الابتدائى، بل شاءت أن تضم إليه التعليم الثانوى ، وأنشأت فى قسطنطينة معهدا ثانويا سمته المعهد الباديسى ، تخليداً لذكرى أول مؤسسيها ، وكان يرجى أن ينشأ إلى جانبه معهدان آخران : أحدهما فى الجزائر ، والآخر فى وهران .

هذه هى جمعية العلماء وهذا هو موقف البشير منها ، ولا شك فى أنها أوقدت الشعلة، وأحيت اللسان العربى ، وأيقظت النفوس ، فاندفع الشعب الجزائرى إلى الثورة يحطم الأغلال ، وينشد حياة العزة والكرامة ، ويربط الحاضر بالماضى ، ولاشك فى أن عدداً غير قليل من أبناء هذه الجمعية وتلاميذها كانوا قادة وجنودا فى حرب الجزائر الخالدة . وكم كان البشير معجباً بها : يعدها « مناط فخره ، وتاج أعماله ، عمل فيها للدين واللغة والوطن » .

(د) البشير الإبراهيمى الأديب :

أولع البشير بالشعر والنثر منذ نشأته ، وحفظ منهما مختارات كثيرة ، ويظهر أنه أعجب كثيراً بسهل بن هرون وبديع الزمان . وأتاحت له الخطابة والصحافة فرصة مواتية لتنمية ملكاته

وإشباع مواهبه ، وفتحت الرحلة أمامه آفاقاً جديدة ، وأمدته بمعلومات غزيرة : قال شعراً ونثراً ، وهو إلى الكتاب أقرب : عرض لموضوعات شتى فى العلم والدين ، والأدب واللغة ، والإجتماع والسياسة ، فعالجها فى عمق ودقة ، وشرحها فى استيعاب وإحاطة ، وفى « عيون البصائر » ألوان من ذلك طريفة وجذابة .

وفى وسعنا أن نقرر أن البشير من أكتب كتاب المغرب المعاصرين ، يسترسل فيجئ بالجزل والسهل ، لفظ مألوف ، وجملة قصيرة ، ولغة واضحة ، وتقسيم وترتيب فى منطق سليم : يتحدث عن العربية فيقول : « اللغة العربية هى لغة الإسلام الرسمية ، ومن ثم : فلها على الأمة الجزائرية حقان أكيدان ، كل منهما يقتضى وجوب تعلمها ، فكيف إذا اجتمعا ؟ حق من حيث إنها لغة دين الأمة ، بحكم أن الأمة مسلمة ، وحق أنها لغة جنسها ، بحكم أن الأمة عربية الجنس ، ففى المحافظة عليها محافظة على جنسية ودين معاً » .

ويتحدث عن جمعية العلماء ، فيقول « إنها جاءت على عبوس من الدهر ، وتنكر من الأقوياء ، فنفخت من روح العروبة فى تلك الأنساب ، فإذا هى صريحة ، وسكبت من سر البيان العربى فى تلك الألسنة ، فإذا هى فصيحة ، وأجالت الأقلام فى كشف تلك الكنوز ، فإذا هى ناصعة بيضاء ، لم يزدها تقادم الزمان إلا جدة » .

ويتحدث أخيراً عن الساسة ، فيقول : « هذه السياسة فى الجزائر بين الحاكم والمحكوم ، يجعلها الأول أداة مساومة وفخ اقتناص للمذبذبين ، وسلاح ترهيب وتخويف للمخلصين ، ويجعلها الثانى وسيلة جاه ، وذريعة تضليل للأمة : وقد بلوناها وخبرناها ، وحاولنا إصلاحها فى رجال السياسة منا إشفاقاً على هذه الأمة الصالحة ، فبحت الأصوات وأكدت الوسائل ، فلا يقولن قائل فيها وفينا غير هذا ، فأهل مكة أدرى بشعابها » .

وقد يتأنى ويتأنق ، فيسمو أسلوبه ، وتبدو عليه الفخامة ، ولا نزال نذكر كلمته بيننا باسم الأعضاء الجدد ردا على استقبالهم ، ونذكر ما اتسمت به من جلال وروعة :

وفيها يقول : « أيها الإخوة : إن مواطن العروبة متفرقة متباعدة ، وإن الرابط الطبيعى بينها هو هذه اللغة ، وقد ألم بها من أحداث الدهر ما أضعف تلك الرابطة حتى رثت حبالها ، وغالبتها العامية فى كثير من أحكامها وكثير من مفرداتها » .

«أيها الإخوة : إن أسرة المجمع أصبحت أسرة عربية لاتخالطها عجمة ، ولايطرق ساحتها دخيل ، ولايداخل نسبتها إقراف ولاهجنة ، فلنعمل للغتنا بأنفسنا ، ولنسكب عليها عصارة أرواحنا ، ولنضاعف جهودنا ، ولنشدد عزائمنا ، ولنوجه كل قوانا لخدمتها ، والذب عن حرماتها ، ولنعلم إنه إن أصابها سوء ونحن عصبة إنا إذن لخاسرون » .

لقد عشنا مع البشير لحظات ، وعرفناه فى طفولته وصباه ، وتابعناه فى كهولته وشيخوخته أقمنا معه حيث أقام ، ورحلنا حيث رحل . ووقفنا على أعماله الجليلة وآثاره الخالدة . واستخلصنا من حياته الدرس النافع ، والعظة البالغة ، وسنذكره ما ذكر العاملون المخلصون .

تغمده الله برحمته ، وجزاه عن الإسلام والعروبة خير الجزاء .

٦ ــ العقـاد فى مجمع اللغة العربية (أبريل ١٩٦٤)

دخله فى موكب حافل ، ضم فيمن ضم لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، والمراغى ، وحسين هيكل ، ومصطفى عبد الرازق ، وأحمد أمين ، وطه حسين . وجلس مع هؤلاء وغيرهم من علماء الشرق والغرب جنبا إلى جنب ، يدرس ويبحث ، ويناضل ويكافح فى سبيل النهوض باللغة والمحافظة على سلامتها ، وجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون ، ملائمة لحاجات الحياة فى العصر الحاضر .

قضى فى المجمع نحو ربع قرن جهير الصوت ، قوى الحجة ، عظيم الشكيمة ، صاحب رأى يعتد به كل الاعتداد .

* * *

كان يؤمن بالعربية الإيمان كله ، ويرى أنها غالبت الزمن ، وقويت على الأحداث . قضت على الفارسية فى ربوعها ، وحلت محل السوريانية والقبطية فى الشام ومصر ، وطردت البربرية من أوكارها فى شمال أفريقية ، وأنشأت فى الأندلس أدبا رفيعا عمر عدة قرون . وصمدت فيما بعد لغزو التركية والصينية ، وقاومت حبائل لغات المستعمرين من إنجليزية وفرنسية وإيطالية . وبقيت لغة قديمة وحديثة ، تجمع بين الطارف والتليد ، محافظة ومجددة ، تستمسك بأصولها ، ولا تأبى أن تخضع لحاجات العصر ومقتضياته .

وكان العقاد حجة فى مفرداتها وتراكيبها ، فقه متنها فقها تاما ، وحاول أن يربطه ببعض الأصول السامية . قرأ فى كتب اللغة ماوسعه ، وتوفر له منها زاد كبير . وللفظ العربى عنده جرس متميز ووزن خاص ، إن خرج عنه نفرت منه الأذن ولم تقبله الأسماع . أما الأسلوب فله فيه ذوق مرهف وحكم دقيق ، وكيف لا وهو منشىء أساليب ومبتكر استعمالات . درس الأدب العربى فى عمق ، وتتبعه فى عصوره المختلفة ، وقارنه بالآداب الأجنبية ، ووقف على تأثيره فيها وتأثره بها ، وكان إمام مذهب فى الأدب المعاصر .

ولم يكن علمه بالإنجليزية أقل من علمه بالعربية ، درسها منذ الصبا ، وعاش معها طويلا فى قراءاته وخلواته . أحاط بنثرها وشعرها ، وألم بدقائقها ومزاياها ، وعرف منها مواطن الضعف والقوة . ولم يغب عنه جانب من جوانبها ، فى نحوها وصرفها ، فى إملائها ورسم حروفها ، فى بلاغتها ونظم أساليبها . ترجم عنها ، وعرف ببعض كتابها وأدبائها . وعقد بينها وبين العربية مقارنات دقيقة وممتعة أفاد منها القراء ، وحظى بها المجمعيون بوجه خاص .

ولم يتيسر لكثير ماتيسر له من اطلاع وقراءة فى الأدب والاجتماع ، والعلم والفلسفة . قرأ فى العربية كما قرأ فى الإنجليزية ، ولايكاد يظهر مؤلف إلا ويسارع إلى اقتنائه والوقوف على مافيه : وبذا أضحى موسوعيا فى عصر تقسيم العمل وتحديد مجال النشاط ، وأبى إلا أن يكون — إلى جانب الأدب — فيلسوفا يعارض الفلاسفة ، وعالما يجادل العلماء فى الكيمياء والطبيعة ، والجيولوجيا وعلوم الأحياء . وكأنه لم يكن يقنع فى عالم الثقافة بالقيود والحدود ، ولايسلم بالتخصص الضيق ، ويكاد يرجع كثير من جدله واختلاف الرأى معه إلى هذه الناحية . ولاشك فى أن القراءة المستنيرة تفتح آفاقا جديدة ، وتهدى إلى أمور كثيرة .

* * *

بهذا الزاد الوفير من لغة وأدب وعلم وفلسفة ، أدى العقاد رسالته فى مجمع اللغة العربية فأحسن أداءها . اشترك فى كثير من لجانه ، وكان منارا يهتدى به فى مجلسه ومؤتمره . اتصل بلجنة الأدب منذ البداية ، وصاحبها حتى النهاية . وقضى فى جوائز الشعر باطراد ، وقدم من أجيزوا غير مرة فى حفلات المجمع السنوية لتوزيع الجوائز ، وكم أتاحت له هذه الفرصة أن يعرض آراءه فى فنون الشعر المختلفة .

ويمكن أن ترد دراساته وبحوثه المجمعية إلى أبواب أربعة : لهجات وفقه لغة ، خط ورسم كتابة ، أدب ونقد ، تاريخ وترجمة .

وقد عنى بدراسة اللهجات ، وله فيها آراء وملاحظات ، وبخاصة ما اتصل بلهجات أعالى الصعيد وأسوان التى احتفظت بأصول عربية لم تنفذ إليها فى يسر مظاهر الحضارة الحديثة . ففى اللهجات العامية تستعمل الأضداد بقدر لا يقل عن استعمالها فى الفصحى : يقال طرب بمعنى فرح ، وطرب بمعنى حزن ، ويقال للإناء الفارغ أنه « مليان » ، كما يقال فى الفصحى المفازة للبيداء . وفى العامية إبدال يجرى مجرى ذلك الإبدال الذى قال به النحاة الأقدمون ، فيقال فى بعض لهجات الصعيد زعق زعيقاً وديح دبيحاً ، وكسر كسيراً ، وهو فى أوزان الفصحى التزعيق والتذبيح والتكسير ، وفى العامية أخيراً أوزان ملتزمة للأفعال والمصادر ، ففى إقليم أسوان يأتون بالمصدر من فاعل على فاعال ، مثل حارب حارابا .

وكم كان العقاد يدعو إلى دراسة اللهجات قديمها وحديثها ، لأنها تعين على فهم التطور التاريخى للغة ، وتربطها بالأحداث السياسية والاجتماعية . وكان من أول المصريين الذين انضموا إلى لجنة اللهجات فى المجمع ، واستمر فيها حتى النهاية ، وطلب إليه أن يدرس لهجة أسوان وهو بها جد خبير .

وفى دراسة العامية ما يساعد على تقريبها من الفصحى ، ولا شك فى أن مسافة الخلف بينهما تضيق باطراد ، ويعين على ذلك اليوم شيوع الصحافة والإذاعة والمسرح والسينما . وفى هذا التقريب ما ييسر فهم الفصحى لغير المتعلمين ، وما يسمح بأن تدخل فى صميمها مفردات نافعة من ألفاظ الحضارة ، ويمكن إجراؤها مجرى المفردات الفصيحة بدون تعديل أو ببعض التعديل .

وفيه بوجه خاص ما يقضى على تلك الدعوى التى تردد من حين لآخر، والتى ترمى إلى تغليب العامية على الفصحى، أو الاكتفاء بها فى الكلام والكتابة، وما أشبهها بالفتنة تنام حينا ويوقظها من يوقظها. ومن الغريب أن أنصار هذه الدعوى يستشهدون عادة باللاتينية واللغات المتفرعة عنها، وهو استشهاد يؤدى إلى عكس ما يراد منه. ذلك لأن هذه اللغات فى نشأتها ليست مجرد عامية اللاتينية بل هى لغات مستقلة نشأت كل واحدة منها نشأة خاصة بها، وأصبحت فى حكم اللغات المتفرعة على الآرية الجرمانية، أو على السامية فى عهودها الأولى.

وحقيقة الأمر أن ليس ثمة فصحى بدون عاميتها، أو إن شئت هناك لغة ثقافة وكتابة، وأخرى لغة تخاطب وحياة شعبية، وكلما ارتفع مستوى الثقافة العامة ضاقت المسافة بينهما. وثقافة العلوم والآداب لا تستغنى عن لغة خاصة، لا يحدها زمان ولا مكان، بل تبقى على الدهر ولا تقف عند بيئة معينة. واللهجة الشعبية بطبيعتها موقوتة، تتحول من جيل إلى جيل، ومن بلد إلى بلد، بل قد تتعدد فى البلد الواحد. ولا حرج من أن تستخدم فى بعض الفنون المحلية والموقوتة فى المسرح والسينما، لموضوعات لا تبقى مع الزمن ولا تعم سائر الأقطار. أما الفصحى فهى لغة الثقافة الدائمة، وسبيل الاتصال بين الشعوب العربية جميعها من الخليج إلى المحيط.

ومن هذه الدراسة اللغوية، نود أن نشير أيضاً إلى موضوعين فيهما جدة وطرافة وأولهما موضوع «السيمية»، وهو من الدراسات الحديثة فى المنطق واللغة. ويقوم على تلمس علاقة بين حروف الكلمة ومدلولها، بين اللفظ ومعناه. ولا شك فى أن هناك كلمات فى شتى اللغات نشأت عن الحكاية الصوتية، وتدل لذلك بلفظها على شىء من معناها فالسيف سمى سيفاً لأنه يشق، والقلم قلما لأنه يعلم، ويسمى الريشة فى الاصطلاح الحديث لأن أداة الكتابة عند الإفرنج كانت تتخذ من الريش. وعندما تكلم الإنسان الأول كانت اللغة مزيجاً من الأصوات الطبيعية كالتأوه والصياح والضحك، ومن أصوات الحكاية فى مقطع أو فى عدة مقاطع، ومن ملامح الوجه وإشارات الرأس واليدين، ومن طبقات الصوت ومبلغ ما فيه من الخفوت والإشباع. ثم انتقل الإنسان من تجسيم الكلمة على هذا النحو إلى تجريد المعنى، وفى مرحلة التجريد هذه يتعذر أن تعقد صلة بين الصوت والمعنى. وإذا كانت هناك كلمات تدل على شىء من معناها فإن هناك أخرى لا تلحظ فيها هذه الصلة وليس بين حروفها ومدلولها أية علاقة، ونخطىء إن حاولنا أن نطبق السيمية على مفردات اللغة جميعها. والمرء يتكلم ويفكر، ولتفكيره شأن فى لغته كما أن لكلامه شأناً فى تفكيره، والألفاظ التى توحى بها أفكار معينة لا يلحظ فيها النطق ولا الصوت مطلقاً.

والواقع أن الدراسات السيمية لا تزال بادئة، ولم تصل بعد إلى المذهب المفصل والنظرية المقررة، وإن فتحت باباً مفيداً من أبواب الدرس والبحث، ووجهت النظر إلى ضرورة مراجعة وسائل التعبير وتنبيه الذهن إلى أخطائها. ويرجى أن يصقلها الزمن كما صقل غيرها من دراسات أخرى.

وعالج العقاد أيضاً موضوع « الزمن فى اللغة العربية » ، ويلاحظ بحق أن علامات الزمن فى الأفعال دليل ارتقاء اللغة . « فاللغة التى تدل على الزمن بعلامات مقررة فى الفعل أعرق وأكمل من اللغة التى خلت من تلك العلامات ، وبمقدار الدلالة تكون العراقة والارتقاء » . وقد شاع بين اللغويين الغربيين أن اللغات السامية — ومن بينها العربية — ناقصة فى دلالة الأفعال على الأزمنة ؛ ويحرص العقاد على أن ينقض هذه الدعوى من أساسها مبيناً أن فى العربية ألفاظاً تدل فى دقة على لحظات الليل والنهار ومواسم السنة المختلفة . ومن علامات تطورها أن الفعل الماضى هو الأصل ، ويأتى الفعل المضارع بالتصريف . وفى لغات أخرى من أرقى اللغات يشيع استعمال المضارع أولا ، ويؤخذ منه الماضى بإضافة حرف أو مقطع أو تغيير الصيغة . وقسمة الزمن فيها إلى ماض ومضارع أوضح وأدق من قسمته إلى ماض وحاضر ، لأن الحاضر شىء نبحث عنه فلا نجده ، أو نجده على الدوام متصلا بالاستقبال . وهذا ما فطن له نحاة العرب ، وسموه مضارعاً يدل على الحال متصلا بالاستقبال . « فاللغة العربية لغة الزمن بأكثر من معنى واحد : لغة الزمن لأنها تحسن التعبير عنه ، ولغة الزمن لأنها قادرة على مسايرة الزمن فى عصرنا هذا وفيما يليه من عصور » .

وفى الخط العربى جمال وروعة ، ويعد بحق بين الفنون الجميلة ، ويؤدى المعانى والأصوات أداء صادقاً . ولم يحل رسم الكتابة قط دون تقدم العرب ونهوضهم فى الماضى ، ولا يمكن أن يحول اليوم . وليست صعوباته أشد من صعوبات لغات أخرى يتكلمها ملايين من الناس ، ففى الإنجليزية مثلا حروف تكتب ولا تنطق ، وأخرى تنطق على وجوه متعددة ، ولا أدل على هذا من أن معجماتها تحرص على أن تضبط نطق الكلمة ، ودرجة امتداد الحركات فيها ، وموقع النبرة فى مقاطعها .

ولم يتردد العقاد فى أن يقف موقفاً حاسماً من استعمال الحروف اللاتينية يوم أن أثير موضوعها فى مجمع اللغة العربية ، فرفضها رفضا باتاً ، وعارض فى ذلك عبد العزيز فهمى وهو خصم عنيف ، ورد على حججه المفحمة بحجج أخرى لا تقل عنها بياناً وقوة . وأعلن أن الحروف اللاتينية تقطع صلتنا بالماضى ، بل وبالبلاد العربية فى الحاضر ، وهى صلة وثيقة وعزيزة ، تقوم على وشائج شتى وتراث خالد .

وإذا كان فى الحروف اللاتينية ما ييسر القراءة ، فإنها لا تعين فى شىء على تيسير الكتابة ، وهى الهدف الأصلى . ذلك لأنها لا تستطيع أن تؤدى الأصوات العربية كلها ، ولا بد أن تضاف إليها حروف أخرى تزيد الأمر تعقيداً ، وتشغل حيزاً أكبر فى المطبوع والمكتوب . حقاً إنها تعين على رسم الحركات من فتح وضم وكسر ، وفى الإمكان تحقيق ذلك بواسطة علامات الشكل العربية المألوفة . والمهم هو ضبط الكلمات قبل كتابتها ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بفهم اللغة نفسها ومعرفة قواعد نحوها وصرفها .

والواقع أن ماقى الكتابة العربية من صعاب لا يرجع لا إلى الحروف ولا إلى الحركات ، وإنما مرده إلى طبيعة اللغة نفسها . لأنها لغة إعراب واشتقاق، تختلف فيها الكلمة من الماضى إلى المضارع ، ومن الفاعل إلى المفعول . وأولى بنا أن نختصر قواعد النحو والصرف ، لكى يحيط بها أوساط الناس ، ويقاربوا الصواب جهد المستطاع . وتكفينا مقاربة الصواب ، لأن العصمة من الخطأ لن تتيسر فى لغة ما ، ولن تتيسر أبداً فى عمل يتناوله جميع الناس من خاصة وعامة .

* * *

وللعقاد دراسات فى الأدب نعم بها المجمعيون ، واستمعوا إليها فى شوق ورغبة ، ونكتفى بأن نذكر اثنتين منها . فعرض « لموقف الأدب العربى من الآداب الأجنبية فى القديم والحديث » . وعنده أنه « يمكن أن يقال على وجه الإجمال أن تأثره بها فى الزمن القديم كان على أكثره من ناحية الحضارة ، وأن تأثره بها حديثاً كان على أكثره من ناحية الثقافة » .

ويراد بناحية الحضارة كل تأثر يأتى من ملابسة الأمم فى أصول المعيشة وعادات المجتمع ، ولا يستلزم الاطلاع على آداب لغاتها . وقد اعتز العرب بلغتهم كل الاعتزاز فى الجاهلية ، ولم يتجهوا نحو تعلم لغة أخرى . ثم جاء الإسلام ، ونزل القرآن بلغتهم ، فأضاف الاعتزاز بالعقيدة إلى الاعتزاز باللسان . ولكن العرب خالطوا حضارات مختلفة ، وإن لم يتكلموا بألسنتها ، وأخذوا عنها ما أخذوا . وكان لهذه المخالطة أثر فى الأدب ، وأغلب الظن أن أوزان القصيد ومعانيه قد أفادت قديماً من حضارة الفرس والروم . ولأمر ما شاع بحر الرمل والبحر الخفيف والبحر المتقارب لأول مرة فى الحيرة ، حيث امتدت آثار الحضارة الفارسية ، وهى أبحر تستخدم فى الرقص والإيقاع . ولا شك فى أن أثر الحضارات الأجنبية بعد الإسلام كان أشد وأعمق ، لتشابك العلاقات واتساع الرقعة وتنوع المراسم والعادات . فدخل فى أغراض الشعر كثير من مظاهر الحضارات التى تجمعت فى بلاد الدولة الإسلامية ، ومنها وصف المهرجانات والمواسم ورحلات الصيد .

ويراد بناحية الثقافة كل تأثر يأتى من الاطلاع على آداب الأمم فى لغاتها والتوفر على دراستها ، وأوضح ما يكون ذلك فى عهد النهضة العلمية والبحث والتمحيص . وقد نشط البحث العلمى فى صدر الدولة العباسية ، ولكن الاتصال الثقافى بين الأدب العربى والآداب الأجنبية فى العصر الحديث أقوى وأوضح . وكانت اللغتان الفرنسية والإنجليزية أقرب مسالك الثقافة الأوربية إلى البلاد العربية ، فقرأ أدباء العرب كتب القوم ، وهى تضيف مزايا التعبير العلمى إلى التعبير الأدبى . وكان من أثر ذلك دقة فى الأداء ، وتخصيص للفظ بمعناه ، واتساع أفق الشعر والنثر .

وكيفما كانت أسباب هذا الاتصال ، فإن العربية بقيت لغة حية قوية ، لها قوام ثابت وغذاء متجدد ، تأخذ عن غيرها دون أن تفنى فيه .

واستوقفت العقاد أزمة الشعر التى لفتت أنظار نقاد الأدب الغربى ، ورأوا أنها تصعد إلى « الثمانينات » من القرن الماضى ، وحاولوا ردها إلى أسباب مختلفة . فذهب بعضهم إلى أنها وليدة

تدهور حضارى ، وانحطاط اجتماعى ، وبلبلة فى الأفكار ، واضطراب فى المثل والمبادئ . وردها بعض آخر إلى قيام المجتمع الصناعي الذى يتوارى فيه الذوق المطبوع والشعور المستقل والخيال الطموح .

ويلاحظ العقاد بحق أن أزمات الشعر كثيرة فى جميع الأمم ، إلا أنها ليست كأزمات العلم فى دلالتها الاجتماعية . فقد يبلغ شاعر القمة فى عصر مَّا ، ولا يستلزم ذلك أن يظهر بعده فى العصر التالى شاعر أعظم منه ، وليس فى عدم ظهوره ما يدل على أزمة أو على نكسة عامة . ولعل الأمر يرتبط هنا بالأفراد أكثر مما يرتبط بالهيئات والجماعات وماالشعر إلا باب من أبواب الفن يتطلب عبقريات واستعداداً خاصاً .

وهو أيضاً تعبير عن العواطف الإنسانية ، وتلطيف للواقع بالأخيلة الصادقة والأحلام الرفيعة . وقد شاركه اليوم فى ذلك أمور شتى ، ووجد الناس منفذاً لعواطفهم ومسرحاً لأخيلتهم فى كثير مما يرون ويسمعون من مخترعات العصر الحديث ، فى المسرح والسينما والمذياع والتلفزيون ، والصحف المملوءة بالأخبار الطريفة والحوادث المثيرة والمغامرات المشوقة . وفى كل هذا ما يصرف عن الشعر ، أو يغنى عنه .

• • •

أما التاريخ والترجمة فقد ساهم فيهما العقاد بنصيب وافر ، وكم استقبل فى مجمع الخالدين من زملاء ، وكم ودع آخرين ! ! وكانت أحاديثه فى الاستقبال والتأبين دراسات ممتعة وتاريخاً جامعاً .

وشاء به القدر أن يستقبل إبراهيم المازنى ، أخا الصبا وزميل الشباب والكهولة ، وأن يودعه ولم يمض على استقباله عام أوبعض عام . وفى استقباله يقول : « ليس من حقى أن أسميها كلمة تقديم ، فإن المازنى مقدم ومتقدم ، له من بحوثه وقصائده ومقالاته وقصصه رسل شتى تتقدم به إلى كل مكان تصل إليه لغة الضاد . وليس من حقى أن أسميها كلمة تعريف ، فإننى لو ذهبت أعرف الناس بالمازنى ، لم آمن أن أسمع من العالم العربى كله ، كلمة يستعيرها من الفرزدق ، ليقول لى : العرب تعرف من عرفت . . . لكنى أستطيع أن أقول عن المازنى شيئاً جديداً فيما يتصل بى ، وشيئاً طريفاً فيما يتصل بالمجمع » . وقد قال عنه فعلا ، وأفاض فى القول :

ويوم أن أبَّنَهُ تفتحت أمامه أبواب الكلام مرة أخرى ، وبدأ يقول : « رحم الله أخانا المازنى ، وعوض الله الأدب والبلاغة خيراً فيه . لقد كان منذوراً للأدب بكل مانفهمه اليوم من معنى هذه الكلمة ، وقد كان الأقدمون إذا قيل لهم عن أحد من الناس إنه منذور لهذا المعبد أو هذا الحرم ، فهموا من ذلك أنه قائم فى خدمة معبده طول حياته ، وأنه لا يملك أن ينحرف عن خدمته باختياره ، لأن

أرواح المعبد وجنوده ترده إليه إذا انصرفت وجهته عنه، فلا تبقى من نفسه بقية لغير الوفاء بنذره ، وهكذا كانت صلة المازنى بالأدب ، صلة نذر وقسمة . علم منذ صباه الباكر أنه يهوى الكتابة وصناعة القلم ، ولكنه علم كذلك أنها صناعة لاتجدى على صاحبها شيئا فى معيشته . فخيل إليه أن يعطى مطالب العيش حقها ، فلم يلبث غير قليل حتى تبين له أنه للأدب وحده ، وأن الأدب يلاحقه أينما ذهب ، فلا يتركه حتى يعيده إلى جواره » .

ثم يفصل القول فى المازنى الأديب : الشاعر الناثر ، الصحفى والمعلم ، الروائى والقصصى ، المؤلف والمترجم . يحلله فى كل ذلك ، ويبين خصائصه ومميزاته . وليس فى مقدور كثيرين أن يؤرخوا للمازنى مثلما أرخ ، ولا أن يصفوا إنتاجه على نحو ما فعل . وسيبقى تأريخه له مصدرا هاما من مصادر الأدب المعاصر .

* * *

وإلى جانب هذا كله ، فى مناقشات العقاد وتعليقاته آراء وملاحظات قيمة ، وتحتفظ بها لحسن الحظ محاضر المجمع وملفاته . وقد تزاملنا نحو ثمانى عشرة سنة ، وأشهد أنه لم تثر أمامه مشكلة من المشاكل الكبرى فى الأدب واللغة إلا واتخذ فيها موقفاً وأدلى برأى واضح . ويتميز باتجاه عام ومنحى ثابت ، يقدس العقل ويحكمه ويسير وراءه ، منطقه صارم وحجته بالغة . وفى سعة اطلاعه ووفرة معلوماته ماغذى حواره وجدله بغذاء لا ينفد . وكان دون نزاع أميل إلى المحافظة ، فلا يسلم بالشعر الجديد أو المنثور ، ولا يشعر بحاجة إلى تيسير نحو أو كتابة . وهو على كل حال ممن يرون أن طبيعة الأشياء تأبى الطفرة ، وإن كان لابد من تجديد فليؤخذ بحكمة ، وليوكل إلى ذوى الرأى والخبرة . وهو لهذا يرضى لنفسه أن يجدد ويبتكر ، فى حين يتردد كثيراً فى قبول تجديد الآخرين . غذّى اللغة والأدب بنشاطه الجم وإنتاجه المتصل خارج المجمع وداخله .

وفى الهيئات العلمية والأدبية – عادة – اتجاهات واضحة المعالم وجبهات بينة الملامح ، ولقد كان العقاد جبهة قوية فى مجمع اللغة العربية . لايكاد يثار أمر إلا وتشرئب الأنظار إليه ترتقب مايبديه وما يلاحظه . واليوم ، ونحن نفتقده ، نذكره دائماً بما خلف من درس نافع ورأى قيم .

٧ ـ العقاد المؤمن (فى ذكراه السنوية الأولى)

سيداتى ، سادتى :

باسم الله أفتتح هذا الحفل ، وباسم الإسلام والعروبة نحيّ جميعا ذكرى عباس العقاد . وللفقيد الكريم جوانب شتى وميادين متعددة ، سيتحدث عنها أصدقاؤه وزملاؤه ما وسعهم الحديث ، وسيرددها تلاميذه ومريدوه جيلا بعد جيل .

وبودى هنا فى هذه القاعة وفى جمعية الشبان المسلمين أن أشير فقط إلى العقاد المؤمن ، ولن يتسع المجال لذكر كل ما خلف من آيات إيمانه . ولقد كان رحمه الله مؤمنا عميق الإيمان ، فهم الدين فهما حقيقيا، ودافع عنه دفاعا مجيدا . صدق به قلبه ، واقتنع به عقله ، فى وقت شككت فيه المادية فى كثير من أصول الأديان الثابتة .

* * *

كان العقاد يرى أن الدين ضرورة اجتماعية، تسموعلى المصلحة الوطنية والحاجات الحيوية. وجد قبل وجود الأوطان ، ولا يغنى عنه سد الحاجات المادية على اختلافها . وهو أبقى وأفسح من الزمان والمكان ، تستمسك به الأجيال ويتوارثه الخلف عن السلف ، وتؤمن به جماعات بشرية من بيئات وأجناس متعددة .

والإيمان عنده ظاهرة طبيعية فى حياة الأفراد والجماعات ، هو الأصل وما عداه الاستثناء. فغير المؤمن إنسان غير طبيعى ، هو شاذ فى حيرته واضطرابه ، شاذ فى يأسه وانعزاله . هو الشذوذ بعينه ، ينكره مجتمعه ، ولا يقوى على أن يواجهه بكل ما يجول بخاطره.. فى حين أن الإيمان ركن ركين المؤمنين ، ورابطة وثيقة بين الأخوة فى الدين .

والفلسفة المادية مهما تنكرت للأديان وأنكرتها ، تنتهى إلى آراء تريد بها أن تكون دينا وعقيدة. ولكنها فى الواقع عقيدة واهية لا تقوى على الزمن ، ولا تصمد لأحداث الدهر . وما إن تحل بالمادى محنة أو تنزل به كارثة حتى يفيق من غفلته ، ويخرج من ماديته ليلوذ بعالم الروح ، عالم الأمل والطمأنينة ، عالم النور والهداية . ومن نعم الله على خلقه أن يجدوه فى ساعات الشدة. وأن يلجأوا إليه فى الضراء .

والعقيدة الإسلامية ملاذ المسلمين جميعا فى مشارق الأرض ومغاربها ، تمنحهم ما تمنحهم من أمل ورجاء وثقة وطمأنينة ، وتربطهم برباط أخوة الإسلام الوثيق . هى عقيدة العدل والمساواة عقيدة الإخوة والمحبة ، عقيدة التعاون والتعاضد، عقيدة القلب والعقل ، عقيدة الدين والدنيا. تفتح للمسلمين أبواب المعرفة ، وتحث على البحث والنظر . تسمح لهم بقبول ما يستحدثه العلم والفن على مر الزمن ، ولا تحرمهم شيئا من خير العلم والحضارة .

وكم عرض العقاد للدين والعقيدة فى كتبه ومؤلفاته ، فى أحاديثه وإذاعاته ، فى مقالاته ومساجلاته ، فى عبقرياته وفلسفاته . ونكتفى بأن نشير منها إلى كتابين أثنين ، هما : « الله » ، «الفلسفة القرآنية » .

فنى الأول أثبت بوضوح أن التوحيد أشرف العقائد الإلهية ، وأجدرها بالفكر الإنسانى فى أسمى مراتبه ، وأن الإله الواحد ذاتٌ تخالف جميع الذوات. هو خير مطلق وكمال مطلق، وليس لعقولنا المحدودة أن تحيط بهذا الكمال . ولا يتنافى كماله مع وجود الشر فى العالم ، لأن فى وجوده حكمة بل ومصلحة . فنى الآفات عظة وعبرة ، وهى بلا نزاع سبيل من سبل الارتقاء وتنازع الأحياء . وللآلام غاية ، ولا شك فى أنها وسيلة من وسائل التهذيب والتطهير .

وفى « الفلسفة القرآنية» ، يشرح العقاد مبادئ الإسلام السامية ، ويبين أن دعوته قامت على الحق والحرية ، والعدل والمساواة ، وحددت علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، ورسمت للحكم نظما هى خير ما تساس به الجماعات .

ويحاول العقاد أيضا أن يرد على الشبه التى أثيرت حول بعض التعاليم الإسلامية ، إن فى الزواج والطلاق ، أو فى الرق والقصاص . ويظهر مدى تلاقى هذه التعاليم مع أرقى المبادئ الفلسفية والاجتماعية ، ويبرهن على أنها سبقت اتجاهات العلم الحديث : ويقرر فى اختصار أن الفلسفة القرآنية خير ما تتكفل به الأديان من عقيدة تعمر الضمير ، وتطلق للعقل العنان فى سبيل الخير والمعرفة ، وتحقيق سعادة الأرواح والأبدان .

* * *

هذا هو عباس العقاد المؤمن ، وليس ثمة شيء أخلد لذكراه من أن نردد بعض آرائه ، ونوجه النظر إلى دراساته .

أما العقاد العربى فمجال القول فيه ذو سعة ، فقد كان عربيا بروحه ودمه ، بقلبه ولسانه بصوته وقلمه. ولا أدل على عروبته من هذا الحفل الحافل الذى جمع ممثلين لتسعة أقطارعربية، وإنا على يقين من أن الأقطار الأخرى تشاركنا فى هذه الذكرى بكل مافيها من وفاء وإخلاص .

رحم الله العقاد العربى المؤمن رحمة واسعة ، وجزاه عن الإسلام والعروبة خير الجزاء .

٨ ـ الشبيبى فى مجمع الخالدين (فبراير ١٩٦٦)

السيد الشبيبي ربيب بيت من بيوت الأدب واللغة ، وشيخ من شيوخ العراق الأجلاء ، ورائد من رواد الفكر المعاصر ، وعلم من أعلام النهوض والإصلاح :

دخل مجمع اللغة العربية من أكثر من باب واحد ، فهو شاعر وأديب ، محقق ومؤرخ ، وشاءت الأقدار أن يشغل المكان الذى خلا بوفاة لغوى العراق الأسبق، الأب أنستاس الكرملى فكان خير خلف لخير سلف .

دخله عام ١٩٤٨ ، وارتبط به بأوثق رباط . فلم يتخلف قط عن مؤتمر من مؤتمراته، ولم يتوان عن دعوة من دعواته . اختير لبعض لجانه ، ورأس عدداً من جلساته . ساهم مساهمة جادة فى بحوثه ودراساته ، واشترك فى مناقشاته وتعليقاته . أحب المجمع ، وأحبه المجمعيون جميعاً على السواء .

وهنا عرفته ، فعرفت فيه الوقار الجم والسماحة العذبة ، ونعمت بأنسه ومجلسه ، وفهمت من نظرته الخاطفة وبسمته الناطقة ، أفدت من خبرته وتجربته . وكنا جميعاً فى القاهرة نرتقب مؤتمر المجمع السنوى لنلقاه ، فنجدد العهد ، ونواصل الدرس .

١ ـ الشبيبى الشيخ :

عرفته شيخاً كله حماس وقوة ، وشباب وفتوة . يسبق الركب ، ويصعد الجبل وتتوق نفسه دائماً إلى كشف الجديد . وقل أن نرى شيخاً فى حب استطلاعه ، يسأل ويستفسر ، ويحقق ويدقق فى آيات الكون وصنع الإنسان . يقبل على الرحلات ، ويحرص على زيارة المعاهد والمصانع ، وقد اشتركنا فى كثير من ذلك ، فكان دائماً المبكر فى الحضور ، والسباق إلى الهدف . لايقنع بأن يشاهد ويلاحظ ، بل يأبى إلا أن يسجل ويدون . وكأنما كان يحرص على أن يكتب عن رحلاته ، لكى يشاركه الآخرون فى مشاعره وإحساساته . وقد خلف لنا صحائف حافلة بالتحليل والتصوير لبعض رحلاته ، فيها تفصيل دقيق ، واستيعاب تام ، ورسم كامل للوحة تريك المنظر وكأنك تعيش فيه .

* * *

٢ ـ الشبيبى الزميل :

وعرفته زميلا يضطلع بالواجب ، ويؤدى الأمانة ، يعد العدة ، ويتأهب لكل جلسة ، فيقرأ ويبحث ، ويحقق ويراجع . ثم يصغى لما يقال ، فيؤيد مايؤيد عن بينة ، يرفض مايرفض عن اقتناع لايصدر إلا عن روية ، ولايعرض لما لايعرف ، وله فى محاضر المجمع ملاحظات قيمة وتوجيهات نافعة ، وقل أن تخلو جلسة من استدراك له أو تعليق .

ودون أن ندخل فى تفاصيل ذلك ،نكتفى بأن نشير إلى شيء منه. دعا غير مرة إلى توحيد المصطلح العلمى فى كل الأقطار العربية، وذلك بإحياء القديم منه، وكثيراً مانبه إلى كتب قديمة فى مصطلحات العلوم والفنون ،وكان يدعو المجمع إلى تحقيقها ونشرها ، مثل « كتاب النبات لأبى حنيفة الدينورى ، و« كتاب جامع أشتات النبات » للشريف الإدريسى و« كتاب تقويم القديم وعقبى النعيم المقيم » لفخر الدين وزير الصالح أيوب ، وهو معجم فى الحرف المصرية. ومن وسائل توحيد المصطلح عنده سهولة لفظه ، ويسر نطقه ، بحيث يمكن تداوله ، وقديماً عاب البلاغيون الألفاظ الثقيلة والمستهجنة .

ومن الألفاظ الثقيلة بعض المصطلحات الأعجمية والدخيلة التى ينبغى أن نتخفف منها ماأمكن : ولانلجأ إليها إلا عند الضرورة القصوى .ولم يكن الشبيبى ممن يرحبون بالتعريب : بل كان يمقت فيه— على حد تعبيره — سياسة الباب المفتوح التى تقضى بتدفق الكلمات الأجنبية حتى لتكاد تطغى على الألفاظ العربية الأصيلة .

وكانت دعوة التوحيد عزيزة لديه إلى حد أنه أراد بها أن تشمل أبواب الثقافة على اختلافها وكم نوّه بالعلاقات الثقافية بين مصر والعراق فى الماضى والحاضر . ووجه الدعوة إلى عقد مؤتمر للمجمع اللغوى فى بغداد ، وألح فى طلبها ، ولم ير زملاؤه بدا من أن يلبوا طلبه ، إيماناً منهم بأن ذلك سبيل من سبل التعاون اللغوى ، ويوم أن تحققت رغبته أبت الأقدار إلا أن تحرم من عونه ومشاركته .

وكان يرى بحق أنه ينبغى توحيد نطق أسماء الأعلام وتوحيد رسمها وصور كتابتها فى العالم العربى جميعه ، لأنها باب من أبواب البلبلة والاضطراب . فتنطق نطقا مختلفا ، وترسم رسما مباينا من إقليم لآخر ، ولابد لنا من توحيدها ، سواء أكانت أسماء أشخاص أم أسما أماكن ، وسواء أكانت قديمة أم حديثة . وكتب التاريخ والجغرافية المدرسية مملوءة بهذا الاختلاف والتباين ، وماأجدرنا أن نتخلص منه،ونلتقى فى أسماء الأعلام على كلمة سواء.

٣ — الشبيبى الباحث :

وعرفت الشبيبى الباحث، فعرفت فيه طول النفس وحب الاستقصاء . وكم كان يعز علىّ أن أشير عليه أحيانا بشيء من الاختصار والتركيز : كان يميل دائما إلى الاستيعاب ، فيلم بجميع أطراف الموضوع الذى يعالجه، ويأتى على دقائقه، وله ولوع بسرد النصوص والنقل عن القدامى والسابقين ، يستهويه ذكر الوقائع والأحداث ، ويعول على التاريخ كل التعويل . ويحرص فى هذا كله على وضوح المعنى وسهولة الأسلوب ، يكتب كما يتكلم فى غير ماتأنق ولاتكلف :

وهو مكثر بقدر ماهو مطيل ، تنوعت دراساته وتعددت أبحاثه ، وقد يعالج الموضوع الواحد من زوايا مختلفة . ويكفى أن نشير إلى أنه فى نحو خمس عشرة دورة من دورات المجمع استطاع أن يغذيه بخمسة وثلاثين بحثا ، وكثيرا ماكان يقدم فى المؤتمر الواحد بحثين أو ثلاثة ويمكن أن ترد هذه البحوث إلى أبواب ثلاثة : أبحاث ، ، ومصطلحات ، وتعريف ببعض الأشخاص والكتب :

وقد عنى باللهجات عناية كبرى ، فعرض لشيء من تاريخ اللهجة المصرية ووقف طويلا عند أصول اللهجة العراقية ، وأشار إلى بعض اللهجات فى جنوب الجزيرة العربية . ولم يرقه مجال تعدد هذه اللهجات وتباينها فى العالم العربى ، لأنها مبعث بلبلة واضطراب . ودعا جاهدا إلى درسها والبحث عن وسائل توحيدها ، أو تقريب بعضها من بعض على الأقل . وعنده أن أنجع وسيلة لذلك أن ينشر التعليم بين أبناء العروبة جميعا ، لافرق بين مدينة وقرية ، ولا بين حاضرة وبادية.وفى الإذاعة الناطقة والمرئية وسيلة أخرى لتسديد النطق وتقويم الألسن ، وماأحوجنا أن نأخذ بذلك كله ، كى يصبح شعارنا : « لغة واحدة » «وثقافة واحدة » ، «وأمة واحدة» .

ولم تكن عنايته بالمصطلحات أقل من عنايته باللهجات ، وكان يرى أنه ينبغى الكشف عن تراثنا العلمى ، ففيه مافيه من مصطلحات أغفلناها ، واستعمالات أهملناها ، وحاول أن يكشف بنفسه عن مصطلحات قديمة فى الطب وعلوم النبات ، والأدب والقومية . ولاحظ بحق أن المستعمرين والدخلاء أفسدوا لغتنا العلمية ، وقضوا على كثير مما استقر من أمورها . فحرّف الأعاجم بعض أسماء الأشخاص والبلدان ، وطغت الألفاظ الأيوبية زمنا على اللغة المصرية . وكان للتركية أثرها فى لغة الدواوين والشئون الإدارية .وقد بدأنا نتدارك ذلك ، ونعود بالعربية إلى سالف مجدها .

وفى مجال التعريف ينوه الشبيبى تارة بأعلام مشهورة ، ويكشف الحجاب أحيانا أخرى عن أمور خفية ، فيعرض مثلا لابن خلكان ، ويطيل الحديث عنه ، فيشرح منهجه التاريخى ويبين طريقته فى التراجم ، ويوضح وسائله فى الضبط والإتقان . وقد لفت صاحب « كتاب وفيات الأعيان » أنظار الباحثين من قديم ، وأقبل عليه العرب والمستعربون ، وعد كتابه فى مقدمة المصادر التى يعول عليها فى التاريخ للرجال . ويوجه فقيدنا النظر إلى مخطوط أشرنا إليه من قبل ، ولم ينشر بعد ، وهو « كتاب جامع أشتات النبات » للإدريسى ، وماأشبهه بمعجم فى علوم النبات قد لايجد له نظيرا فى العربية يعرض المصطلح ، ويعرّفه ، ويبين مقابله فى

لغات مختلفة بين شرقية وغربية .وللشبيبي بحوث أخرى « فى المعجم المساعد » للكرملى ، وفى « كتاب النيروز» لابن فارس ، وستبقى مجموعة بحوثه فى « مجلة المجمع » ذخرا للدارسين والباحثين :

هذا هو الشبيبي المجمعي ، أخلص للغة وتفانى فى خدمتها ، ورأى فيها دعامة كبرى من دعائم القومية .فقدناه ونحن أحوج مانكون إليه،وسعينا إليه فى بلده وعاصمة وطنه ، لنؤكد أو اصر الأخوة بين خدام اللغة فى مجمعى بغداد والقاهرة ، وأبت الأقدار إلا أن يكون سفرنا لتوديعه الوداع الأخير . تغمده الله برحمته ، وجزاه عن العربية والعروبة خير الجزاء .

---

٩ ــ مع أمين الخولى (مايو ١٩٦٦)

رحمه الله رحمة واسعة ، فقد كان أمة وحده ، أمة فى قوله ، يدلى بالكلمة فتحفظ عنه ، وتعزى إليه ويرسل الجملة فتصير مثلا ، تحيا بحياة الأحداث ، وتتردد فى شتى المناسبات ، وكان أمة فى علمه له مسلكه الخاص وطريقته المستقلة ، عرف بزيه كما عرف بمنجاه فى الحياة ، يأبى التقليد والمحاكاة ، ويمقت المجاملة والمسايرة فى غير اقتناع ، وكان أولا وأخيرا أمة فى رأيه ، يخرج به على المألوف ، ويعارض الشائع والمشهور ، يعتد به ويدافع عنه ، وما أبلغ حجته ، وما أعظم إقناعه .

* * *

عرفته أول ما عرفته فى مدرسة القضاء الشرعى ، فكان على قمة الهرم ، وكنت فى قاعدته . ولكن ثورة سنة ١٩١٩ أبت إلا أن تجمعنا فى سلك واحد ، فكنا نلتقى للتشاور والتداول . نعد العدة ، ونهيء أنفسنا للنضال والجهاد ، وقد خرجنا هاتفين محتجين . وإن أنس لا أنسى يوما قمنا فيه بمظاهرة كبرى . لقينا فيها ما لقينا من بطش الجنود البريطانيين وعدوانهم . وكان صوته المدوى ينسى المتظاهرين آلامهم . وكأنى به لا يزال يهتف :

اضربونا بالمدافع — مالأمر الله دافع .
اضربونا بالرصاص — فالحياة فى القصاص .

وتتلمذت له فى درس من دروس الأخلاق . وأشهد أنه لم يكن يعرف حين ذاك لغة أجنبية . ولم ينح بعد منحى فلسفيا . ومع ذلك استطاع بذهنه الوقاد وفطرته السليمة أن يفلسف كتب الأخلاق القديمة ، فيبحث فيها عن أصول ومبادئ ، ويقيمها على أسس ودعائم ، ويصوغها فى ثوب قشيب جذاب ، حتى بدت أشبه ما تكون بالدراسات الأخلاقية الحديثة التى تعنى بالطبائع البشرية ، وتحاول أن ترسم المثل الإنسانية . ومنذ ذلك التاريخ وهو ينفر من الحفظ والتلقين ، ويعنى العناية كلها بقوة الحجة ووضوح الشخصية .

ثم افترقنا لفترة غير قصيرة . واختير ليسهم فى تمثيلنا السياسى الأول فى ألمانيا وإيطاليا وأتيحت له الفرصة أن يرى الغرب بعينه ، وأن يعيش بين أهله ، وتفتحت أمامه آفاق فسيحة . ولم نلتق إلا عام ١٩٣٥ ، وعلى بساط العلم مرة أخرى ، فى كلية الآداب بجامعة القاهرة . التقينا هناك لقاء الزملاء ، وكانت أول كلمة قالها لى : ليس شئ أحب إلى الأستاذ من أن يزامل تلميذه . كان يتولى التدريس بقسم اللغة العربية ، وكنت أضطلع به فى قسم الفلسفة . وشاءت المصادفات أن يكون بيننا طلاب مشتركون ، فكانوا لا يملون الحديث عن نظراته العلمية وأفكاره الفلسفية . وفى الحق أنه كانت له آراء فى التفسير والبلاغة يعز عليهم أن يكشفوها . وقل من الباحثين من يهتدى إليها . تعنيه دائما القضايا الكبرى والمنهج العلمى الدقيق . ويعرف كيف يبرز ما فى الفكر الإسلامى من أصالة وابتكار . وليته اتجه نحو نشر دروسه جميعها فى البلاغة وعلوم القرآن

إنها ولا شك ثروة علمية يعتد بها . ولكنه فيما يظهر كان يؤثر الرسائل الصغيرة التى يعرض فيها رأيا جديدا ، أو يدافع عن قضية معينة .

وقدر لنا أن نفترق ثانية وبعد زمالة دامت سبع سنوات . وكان فراقنا هذه المرة أطول . فلم نلتق إلا سنة ١٩٦١ ، وفى مجمع الخالدين : وهناك استقبلناه فى شوق إليه وتعويل عليه . ويعلم الله أنه حقق آمالنا كلها ؛ فقضى معنا خمس سنوات أو تزيد قليلا ؛ فكانت كلها إنتاجا متصلا ونشاطا فياضا ؛ أغدق فيها ما أغدق على المجمع من ثمار ؛ انضم إلى لجنة الأصول وكان مقررها الذى يحمل رسالتها ويعبر عن رأيها ؛ ولم يمر مؤتمر من مؤتمرات المجمع الخمسة الماضية إلا وله تحقيق فى ترجيح رأى لغوى ؛ أو كشف عن رخصة تيسر أمر العربية على الباحثين والدارسين ؛ وأسهم فى لجنة معجم ألفاظ القرآن . وأعد جزءا من أجزائه ؛ ونأمل أن يخرج إلى القراء قريبا ؛ واشترك فى عدة لجان أخرى ؛ فكان له فى لجنة الأدب توجيه وتقويم . وفى لجنة القانون ملاحظات ومقترحات ؛ وكانت لجنة المعجم الكبير ترقب مشاركته وإسهامه ؛ أما المجلس فكان له فيه ركن يعرف به ، ويشع منه ضوءه ؛ وإذا ما تخلف يوما أحسسنا بغيابه . ويأبى الله إلا أن أحرم من زمالته ؛ وأن يغيب عنى ذلك الغياب الذى لا رجعة بعده ؛ افترقنا أخيرا وإلى الأبد ؛ وفقدته على غرة وكان ملء السمع والبصر .

* * *

أيها الأمناء

إن أستاذكم كان صاحب رسالة ، ولا شك فى أنه لقنكم إياها ، وكانت رسالته دعوة حارة وصادقة إلى التجديد والإصلاح . كان ينشد تجديداً شاملا فى المظهر والمخبر ، وأذكر أن مشكلة توحيد الزى شغلتنا معا فترة طويلة منذ نحو أربعين سنة . كان يؤمن بالإصلاح إيمانا جازما ويريد به أن يستوعب مظاهر حياتنا على اختلافها ؛ فينصب على العادات والتقاليد ، ويشمل الأنظمة والقوانين ، والفكر واللغة . فنادى بإصلاح الأسرة ، وكتب فى إصلاح الأزهر ؛ ورسم سبلا فى إصلاح النحو وتطوير اللغة . وكان يمقت الجمود الزائف والتقليد الأعمى ، ويرى أن الدين متين وأن الشريعة سمحة ، وقد قبلا ويقبلان كل تجديد وإصلاح لا يتعارض مع الأصول الكبرى والمبادئ المقررة ، ومن آخر مؤلفاته : « المجددون فى الإسلام » . أما مجرد محاكاة الغرب والافتتان ببدعه ومستحدثاته ، فلم يكن أقل تحاملا على ذلك من حملته على السلبية الجامدة التى تؤدى إلى الفناء . كان يهدف إلى إصلاح ينبع من صميمنا ، ويربط حاضرنا بماضينا ويبقى على معالم الحضارة الإسلامية التى تعتمد على أصول تختلف كل الاختلاف عن الحضارة الغربية.

أيها الأمناء

هذه هى الرسالة ، وإنها لأمانة فى أعناقكم ، وإن فى قيامكم عليها لتخليدا لذكرى أستاذكم فوق كل تخليد .

١٠ ـ على عبد الرازق (نوفمبر ١٩٦٦)

سيدى الرئيس ، سيداتى ، سادتى :

نجتمع اليوم لنؤبن شيخا جليلا ، وعالما فاضلا ، وفى التأبين عظة وعبرة ، نؤبن رجلا استطاع أن يقول كلمة الحق ، برغم بطش الملكية واستبدادها ، ولاقى فى سبيلها مالاقى ، ولا قيمة لقوم يضيع الحق بينهم . نؤبن تلميذا من تلاميذ الأستاذ الإمام ، وهم نخبة صالحة حملت المشعل وأنارت السبيل ، ورسمت مناهج الإصلاح والتجديد . نؤبنه هنا فى هذه القاعة ، لنرد إليه شيئا من اعتباره ، والتاريخ يصلح ماأفسد أحيانا . فبالأمس تنكرت له هيئة كبار العلماء وأنكرته وها هو ذا الأزهر جميعه يودعه اليوم الوداع الأخير فى تكريم وتبجيل . ويرحب بتأبينه فى هذه القاعة ، ليحشر فى زمرة محمد عبده ، ويسير فى وفده ميتا ، كما سار فيه من قبل حيا :

ولاسبيل إلى نهوض سياسى أو اجتماعى ، مالم تمهد له حياة فكرية يقظة سليمة وقد قدر لهذه الأمة أن تنبعث فيها فى القرن الماضى حركة من حركات الفكر والثقافة ، غذاها فى البداية أمثال الشيخين حسن العطار ورفاعة الطهطاوى ، ثم قام على أمرها جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ، ولم تلبث هذه الحركة أن آتت أكلها ، وأخرجت لناقادة فكر ، نذكر من بينهم قاسم أمين ، وفتحى زغلول ، ولطفى السيد ، والشيخين محمد شاكر ومصطفى المراغى ، وتلاهم رعيل آخر من الأصدقاء والمريدين ، كونوا مدارس مختلفة فى الفقه والتشريع والأدب واللغة ، والفلسفة والدين . وفى مقدمة هذا الرعيل الأخوان مصطفى وعلى عبد الرازق ، وهما صنوان لاينفصلان ، تزاملا طول حياتهما ، وكان فارق السن بينهما ضئيلا ، وتبادلا الرأى فيما عنّ لهما من أمر ، وخضعا لظروف متحدة أو متشابهة .

وقد عرفت على عبد الرازق القاضى والمحامى ، والنائب والشيخ . والوزير والسياسى ، وعرفت فيه فى مجمع اللغة العربية الأديب واللغوى :

ويطول بى الحديث إن عرضت لذلك كله ، ويكفينى هنا أن أقول كلمة :

(١) عن البيئة التى نشأ فيها.

(٢) وعن حياته ومؤلفاته .

(٣) وشيئا عن نزعته وآرائه.

(١) بيئته :

نشأ فقيدنا فى بيت عريق من بيوت العلم والقضاء ، تصعد أصوله إلى نحو قرن ونصف ، أو يزيد ، وله دون نزاع شأن يذكر فى الحياة الفكرية والثقافية فى النصف الأول من هذا

القرن ، يلتقى فيه الشرقى بالغربى ،والمصرى بالعربى ، ويدور حديثهم حول الماضى وأمجاده والحاضر فى آماله وأهدافه . يعالجون ألوانا من فنون الأدب واللغة ، ويتعمقون قضايا فى الدين والفلسفة وماكان أشبه مجلسهم بمنتدى يؤمه كبار العلماء ، ويثار فيه أدق المشاكل وأعمق الآراء ، ولايستطيع مؤرخ الحياة الثقافية المعاصرة فى مصر أن يغفل ماكان « لبيوت آل عبد الرازق » فيها من أثر. فى هذه البيئة الخاصة شب على عبد الرازق وترعرع ، أخذ عنها ، وأفاد منها ، وسمع فيها دعوات تناصر القديم وأخرى تؤيد الجديد .

وإلى جانبها بيئة عامة ، ملأها الأستاذ الإمام « محمد عبده » حياة وقوة ، وفجر فيها ينابيع للإصلاح والتجديد فكان يدعو إلى النهوض بالأدب واللغة ، ويقوم معوج الأفكارالدينية ، ويصور الإسلام بصورته الحقة ، ويحرر الفقه والتشريع من قيوده ، ويحاول بوجه خاص أن يصلح التعليم الدينى . عاش فى الأزهر ، وعرفه حق المعرفة ،ووقف على كتبه وطرائق التدريس فيه ، ورأى أنها أصبحت لاتلائم العصر ،ولاتحقق النهوض المنشود . وأخذ يغير الكتاب والطريقة معا، وضرب لذلك مثلا من درسه وبحثه ، فكان يدرس فى البيان « دلائل الإعجاز » لعبد القاهر الجرجانى ، بدلا من « تلخيص المفتاح » للخطيب القزوينى ، ويفسر القرآن على نحو يختلف عما درج عليه البيضاوى . وكل ذلك فى عبارة طلية ، وفكر واضح ، وروح صادقة ، ونقد أخاذ؛ فاستجاب له الشباب ، وأقبلوا عليه ، وتعلقت به أرواحهم وعقولهم واستطاع أن يرى فى حياته بعض ثمار غرسه ، وتضافر نفر من بعده على إنجاز ماأوصى به، فأنشىء معهد الإسكندرية الدينى قبل موته بعام واحد ، وقام على أمره الشيخ محمدشاكر أحد تلاميذه ، وشاء أن ينهج به نهجا جديدا . وأنشئت مدرسة القضاء الشرعى بعد موته بعامين وهدفها الأول تخريج جيل جديد من رجال الدين . وتوالت دعوة الإصلاح فى الأزهر نفسه منذ فجر هذا القرن ، وبدت لها صور متلاحقة ، آخرها «جامعة الأزهر » الناشئة التى تستضيفنا اليوم .

فى هذا الجو نشأ على عبد الرازق ، واتصل بالأستاذ الإمام عن قرب ، تتلمذ له مع أخيه مصطفى ، ورآه فى بيته يزور والده ، وقد ربطت بينهما صلات ود وزمالة فى مجلس شورى القوانين — واتصل أيضا بلطفى السيد فى « الجريدة » ، وكانت تضطلع بنشر تعاليم أخرى لجمال الدين ومحمد عبده . تعتز بحرية الرأى وصراحة القول ، ووضوح الكلمة وسمو الأسلوب ، وتنادى بالإصلاح والتجديد . نشأ فقيدنا فى هذاالجو ،وتابع السير فى حياة مليئة بالأحداث ،ولا نستطيع هنا إلا أن نرسم خطوطها الكبرى .

(ب) حياته ومؤلفاته :

ولد على عبد الرازق بأبى جرج ، من أعمال محافظة المنيا فى أخريات العقد التاسع من القرن الماضى (١٨٨٨م) وسلك سبيل أخيه مصطفى فى التعليم ، فألحق بكتّاب القرية حيث تعلم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب ، وحفظ قدرا من القرآن الكريم ، ثم وجه إلى الأزهر ، ففرغ له ، وأولع به ، وأقبل على درسه ، واتصل بكبار شيوخه ، وبخاصة الشيخ أبو خطوة ، وكان والده — وهو أزهرى قديم — يتذاكر معه ومع أخيه مصطفى بعض كتب الشعر والأدب. واستطاع فقيدنا أن يتابع فى الوقت نفسه دروس الجامعة المصرية القديمة وتتلمذ فيها لنلينو وليتمان وسانتلانا من كبار المستشرقين .

ولاشك فى أن على عبد الرازق كان مخلصا للأزهر الإخلاص كله ، يتعصب له ويدافع عنه ، وكان يرى أن إنشاء مدرسة القضاء الشرعى لم يكن إلا إصلاحا جزئيا مغالى فيه ، وكان الأولى أن ينصب الإصلاح على الأزهر نفسه ، فتهذب نظمه وكتبه وطرائقه ، ولم يرقه أن يقبل أخوه مصطفى ، وهو الأزهرى المرموق ، التدريس فى مدرسة القضاء الشرعى ، وما زال به حتى استقال من وظيفته . واشترك الأخوان فى إضراب الأزهر الكبير فى عام ١٩٠٨ ، وجدا فى تحديد مطالب الأزهريين ، وكانا قريبين كل القرب من الحلول التى انتهى إليها الموقف حين ذاك . وتابع على دراسته فى الأزهر إلى أن حصل على شهادة العالمية بعد أخيه بثلاث سنوات ، وعقد على الفور لنفسه حلقة درّس فيها متبرعا علم البيان ، وهذه أولى خطواته فى التدريس والتأليف :

ثم أريد به أن يضم الثقافة الغربية إلى ثقافته الشرقية ، ويظهر أنه لم يكن راغبا فى ذلك كل الرغبة . وكان يعيب على شقيقه مصطفى ، الذى سبقه إلى أوربا ، ولعه ببعض تقاليد الغرب وعاداته . وإذا كان مصطفى قد سافر إلى فرنسا ، فجدير بعلى أن يذهب إلى إنجلترة . وفى عام ١٩١٢ شد رحاله إليها ، وبدأ يدرس فى أكسفورد علمى الاقتصاد والاجتماع ، ولم يبق بها إلا ثلاث سنوات ، واضطر إلى العودة تحت ضغط ظروف الحرب العالمية الأولى . وليته استطاع أن يقيم أكثر من هذا ، لكى يفهم الثقافة الغربية على وجهها ، ويقف على أسرارها ودقائقها .

وبعد عودته أخذ يضطلع بأعباء الحياة ، ويذوق حلوها ومرها ، فعين قاضيا بالمحاكم الشرعية واستمر فى القضاء إلى أن ظهرت محنة الخلافة . ونحن نعلم أنه بعد أن ألغى مصطفى كمال نظام الخلافة فى تركيا ، شاء الاستعمار البريطانى أن يبحث لها عن مواطن آخر ، ويتخذ منها أداة لمطامعه وكانت مصر راغبة فيها ، ويأبى مصرى إلا أن يقف فى سبيل هذه الرغبة ، وأعلن على عبد الرازق فى جرأة وصراحة أن نظام الخلافة ليس من الدين فى شىء ، ولم ينص عليه فى كتاب ولا سنة. وما كان محمد صلى الله عليه وسلم خليفة ، ولا ملكا ، وإنما كان مجرد رسول يبلغ آيات ربه «فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر »، « وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا » . ومات النبى دون أن يعين خليفة من بعده ودون أن يحدد نظاما معينا للحكم . ثم كانت الخلافة ولم تلبث

أن جرت على المسلمين ما جرت من خصام وفرقة ، وتحولت إلى ملك وراثى يعدل حينا ويظلم أحيانا . ويقول على عبد الرازق : « إن ما يسمى عرشا لا يستقر إلا فوق أعناق البشر ، وإن ذاك الذى يسمى تاجا لا حياة له إلا بما يأخذه من حياة البشر ، ولا قوة له إلا بما يغتاله من قوتهم ولا عظمة ولا كرامة إلا بما يسلب من عظمتهم وكرامتهم ، وما أكثر ما يرتكب الملوك من شرور وآثام ، ثم يحاولون أن يكسوها بكساء الدين . »

صيحة جزئية حقا ، وحملة عنيفة موجهة مباشرة إلى الجالس على عرش مصر . وكيفما كانت حججها العقلية والنقلية ، فإنها تحمل دون نزاع طابعا سياسيا . وقد أثارت ما أثارت من جدل ، أيدها فريق ، وعارضها آخرون ، وطغت فيها السياسة على الاعتبارات الدينية والتاريخية ورأت هيئة كبار العلماء — نزولا عند رغبة أولى الشأن — أن تخرج على عبد الرازق من زمرتها . وكان لابد تبعا لهذا أن يفصل من القضاء ، وإن عارض فى ذلك عبد العزيز فهمى وزير العدل ، واضطر إلى التخلى عن الوزارة قبل أن يوافق على فصل قاض لا ذنب له إلا أنه رفع صوته جهرة بما يؤمن به . وحورب على عبد الرازق فى نواح كثيرة ، ولكن يكفيه فخرا أنه جهر بما كان يتهامس به آخرون ، وقال كلمة لم يجرؤ عليها أحد سواه .

ثم دارت الأيام دورتها ، وانغمس فقيدنا فى السياسة ، ويظهر أنها لم تكن من ميوله الأولى ، برغم أنه نشأ فى بيت كبير من بيوتها ، وربما كان لمحنة الخلافة شأن فى هذا الاتجاه الجديد . فانتخب عضوا فى مجلس النواب ، ثم جاوزه إلى مجلس الشيوخ . واختير وزيرا للأوقاف ، وأضحى قطبا من أقطاب حزب الأحرار الدستوريين . وفى وسع مؤرخه أن يكتب صفحات عن حياته السياسية وما خالطها من أحداث . ويتحصن السياسيون أحيانا بشىء من الحذر والحيطة والشك والريبة ، ولا يقنعون بظواهر الأمور ، ويأبون إلا أن ينفذوا إلى ما وراء الستار . ولقد انغمس فقيدنا فى السياسة إلى حد أنه طبع بطابعها ، وبدت آثارها فى تفكيره ومسلكه ، فكان إلى الشك أميل ، وإلى الحذر أقرب ، حتى فى مواطن لا تدعو إلى حذر أو ريبة .

انتخب على عبد الرازق عضوا فى مجمع اللغة العربية عام ١٩٤٨ ، ويبدو أنه صادف هوى من نفسه ، وعاد به إلى ما كان يطمئن إليه . وإذا كانت بعض أعبائه السياسية قد صرفته عنه فى البداية قليلا ، فإنه تفرغ له فى الخمس عشرة سنة الأخيرة ، ووقف عليه كثيرا من وقته وجهده . فاشترك فى أربع من أهم لجانه ، ولم يتخلف إلا نادرا عن جلسة من جلسات مجلسه ومؤتمره . وله فى ذلك كله ملاحظات دقيقة ، وتوجيهات نافعة ، ومناقشات ممتعة . اكتمل ذوقه ، واتسع اطلاعه ، فلا يحكم إلا عن إحساس وشعور ، ولا ينطق إلا عن بيّنة . وفى محاضر المجمع ومجلته صور من هذا الذوق السليم والحكم الدقيق .

لم يمتهن الفقيد التدريس ، وإن تاقت نفسه إليه ، فتطوع له عاما أو بعض عام على حصوله على شهادة العالمية ، ودعى إليه فى عدة مناسبات فلبى . درس تاريخ الأدب فى الجامعة الأمريكية إبان نشأتها ،وانتدب ، وهو قاض بالإسكندرية ، للتدريس بمعهدها الدينى : وبعد ذلك بنحو عشرين سنة، ألقى سلسلة من المحاضرات فى قسم تخصص الشريعة بكلية الحقوق فى جامعة القاهرة ، ومنذ خمس سنوات فقط حاضر فى معهد الدراسات العربية العليا ، ودارت محاضراته حول موضوع محبب إليه ، وهو « حياة محمد عبده » ، وله نشاط قديم فى الصحافة الأسبوعية والشهرية ، يكتب مايكتب على انفراد ، أو بالاشتراك مع أخيه مصطفى :

بيد أنه لم ينشر كل إنتاجه ، وفى مخلفاته بحوث ودراسات نرجو أن تخرج إلى النور ، ويخيل إلينا أن التدريس كان يستحثه على التأليف ، فأخرج أول ما أخرج :

١ — « أمالى على عبد الرازق » ، وهى رسالة فى علم البيان وتاريخه،جاءت ثمرة لتلك الدروس التى تطوع بها عام ١٩١١ — وتمتاز بوضوح الأسلوب ، وسعة الاطلاع ، يستعرض فيها تاريخ علم البيان ، ويوضح بعض قضاياه . وأسوة بالأستاذ الإمام يميل إلى المتقدمين ، ويرى أن علم البيان الحق ماقال به عبد القاهر الجرجانى ، أما السكاكى فقد حجره ،ووضعه فى قوالب جامدة ، ولو ترك مفتوحا لضمت إليه أسرار جديدة :

٢ — وفى عام ١٩٢٥ ، ظهر كتاب « الإسلام وأصول الحكم » الذى أشرنا إليه من قبل ، وهو كتاب رأى ، عالج فيه مشكلة سياسية شغلت الأذهان ، أعد له منذ سنين،وكان هدفه أن يكتب فى تاريخ القضاء ، ورأى أن يمهد له بشرح نظرية الخلافة والحكم فى الإسلام : وقد عول فيه على عدة مصادر عربية وأجنبية ، واستعان ماوسعه بالتاريخ والنصوص الثابتة : وعالج فيه ثلاث قضايا أساسية . فلاحظ أولا أن لاحياة للمجتمع بدون حكومة تنظمه وتدبر شئونه ، وماالخلافة إلا ضرب من نظم الحكم ، وإن لم ينص عليها كتاب ولاسنة ، ولاحظ ثانيا أن الخلفاء والملوك فى الإسلام شاءوا أن يجعلوا من الخلافة والملك مقاما دينيا يستظلون بظله ،ويحتمون وراءه . ودعا أخيرا دعوة صادقة إلى طلب العلوم الحديثة والجد فى تعلمها ، لكى نستعيد بها مجد الماضى ، وننافس فى الحاضر ، وعنده أن « لاشئ فى الدين يمنع المسلمين من أن يسابقوا الأمم الأخرى فى علوم الاجتماع والسياسية كلها » . ولانزاع فى أن كتاب الاسلام وأصول الحكم يعد من الأحداث الكبرى فى حياتنا الفكرية المعاصرة .

٣ — وفى عام ١٩٤٧ ، أخرج على عبد الرازق كتاب الإجماع فى الشريعة الإسلامية وهو جملة المحاضرات التى ألقاها على طلاب دبلوم الشريعة بجامعة القاهرة : ويحاول فيه أن يوضح حقيقة الإجماع ، وإمكان حدوثه ، وحجيته ، وحكمه ، ومنزلته بين أصول الفقه . وهو

حريص دائما على الجمع أو النقل ، وربما زاده كتاب الإسلام وأصول الحكم حرصا : فينقل عن السابقين نقلا أمينا فى وقوف على المصادر ، واطلاع واسع ، وتحرير لمواطن الخلاف .

٤ — وبعد وفاة شقيقه الشيخ ، أخرج عام ١٩٥٧ « من آثار مصطفى عبد الرازق » ، وله فيه نبذة طويلة عن تاريخ حياة أخيه تشتمل على نقد وتحليل ، وتستكمل أحداثا ووقائع لاسبيل لوقوفه عليها عن طريق السماع أو الرؤية .

ويعنى على عبد الرازق العناية كلها بوضوح الأسلوب ، ودقة العبارة ، فيتخير ألفاظه ويصفى جمله ، ويقسم بحوثه إلى أبواب وفصول ، وقد يبالغ فى هذا زيادة فى الضبط والتقسيم وهو مولع بالضبط والتحقيق ، يضبط أسماء الأعلام كلما صادفها ، ويحقق تاريخ الميلاد والوفاة، يصعد إلى المصادر الأولى فيما ينقل ويروى ، ويعزو كل قول إلى صاحبه ، ويكاد تأليفه أن يكون مجرد رواية خالصة : وإن بدت منه إشارة أو ملاحظة ، رجح أن وقف عليها فى قراءاته ، وكأنما يعز عليه أن يعزو شيئا إلى نفسه .

(ج) نزعته وآراؤه :

على عبد الرازق محافظ بفطرته ، سلفى فى ميوله وتفكيره ، لآراء السابقين وزن كبير عنده ، يجلها ويتمسك بها ، ويتردد كثيرا فى التعليق عليها أو العدول عنها ، ولم تغير بيئة الإصلاح والتجديد التى عاش فيها كثيرا من هذه الفطرة ، ولم تخرج به إقامته القصيرة فى إنجلترة عن مألوفه وعادته يقول بالإصلاح ولكن فى هوادة ، ويأخذ بالتجديد ولكن فى تحفظ . ويظهر أنه مر بمرحلتين متميزتين : مرحلة شباب وفورة تحاول أن تغير وتبدل وأن تصلح وتجدد، ومرحلة كهولة وشيخوخة تجنح إلى الهدوء والسكينة ، وتنفر من المجهول وغير المألوف ، وكأنما كانت محنة الخلافة حدا فاصلا بين هاتين المرحلتين .

ودون أن نعرض لآرائه الاجتماعية والسياسية نكتفى بأن نشير إلى شىء من آرائه فى الأدب واللغة . وسنقف عند كلمته الأولى فى مجمع اللغة العربية . فيها يتحدث عن آراء الفتوة والشباب فيقرر « أن فى قواعد النحو كثيراً من التكلف يجعلها معقدة معسرة . . . وأن فى الإمكان استنباط قواعد جديدة أحسن ضبطاً وأقرب تناولا » . قال هذا قبل أن يظهر إحياء النحو لإبراهيم مصطفى ، وقبل أن تفكر وزارة المعارف فى تكوين لجنة لتيسير النحو ، وقبل أن يعرض مجمع اللغة العربية لهذا الموضوع ، ويقر مقترحات هذه اللجنة كلها تقريباً .

ويلاحظ أيضاً أن علماء البلاغة حصروا أبحاثهم فى تلك الأبواب التى نعرفها فى علم المعانى والبيان والبديع ، والأمر أوسع من ذلك ، وحسن الكلام وروعته يأخذان صوراً شتى ، ويخضعان لاعتبارات كثيرة . وليست البلاغة بمقصورة على العربية وحدها ، بل لكل لغة بلاغتها ، وجدير بنا

أن نقف على أوجه البلاغة وأسرارها فى لغات أخرى ، ففى ذلك ما يفتح أمامنا آفاقاً جديدة فى البلاغة العربية نفسها . والواقع أن البلاغة فن من الفنون الجميلة التى تتوارد على إدراك جمالها والتأثر بها أمم مختلفة .

تلك خواطر — أو أطياف كما سماها على عبد الرازق نفسه — كانت تجول بذهنه أيام شبابه ، وقد استذكرها حين انضم إلى زمرة الخالدين ، ويظهر أنها استعيدت فقط لمجرد الذكرى . ولم يكن لها أثر ملحوظ فى عمله المجمعى ، بل على عكسها كان يسير ، يحمل راية السلف ، ويستمسك بالقديم . وقد قال عن أخيه مصطفى : « هو رجعى فى أكثر نواحيه ، ولكن فى حدود النظر الذكى والفطرة السليمة ، فلا تتسرب إليه خرافة ، ولا تشوبه شائبة من شوائب الشرك الخفى ، وهو تقدمى فى بعض نواحيه ، ولكن مع الاستمساك بكثير من التقاليد الموروثة ، ومع الرجوع إلى سنن من سلف ، واتباع أحسنها . ولعله كان فى جملة الأمر إلى المذهب الرجعى وحب القديم أقرب » .

وعندى أن هذا القول يصدق على فقيدنا أكثر من صدقه على الشيخ الأكبر ، تغمدهما الله برحمته ، وأجزل لهما الجزاء عما قدما للعلم والدين .

١١ — حسن حسني عبد الوهاب (يناير ١٩٦٩)

منذ أسبوعين أو يزيد قليلا ، كان من حظى أن أزور تونس الخضراء موفداً من مجمع اللغة العربية ، وذلك أداء لواجب مقدس ، وتوديعاً لراحل عظيم ، هو المرحوم حسن حسني عبد الوهاب وتلك أول مرة يوفد فيها المجمع إلى بلد آخر من ينوب عنه فى إحياء ذكرى أحد الخالدين ، وإن فقيدنا لجدير بكل تقدير وتكريم .

وأشهد أن تونس اشتركت كلها فى وداعه حكومة وشعباً ، شيوخاً وشباباً ، كتاباً وشعراء ، صحافة وإذاعة . ودعت فيه الابن البار ، والشيخ الجليل ، والخلق السمح ، والعلم الغزير . ودعت فيه الرائد الصادق ، والمصلح الحكيم ، والإمام الذى خلف وراءه التلاميذ والأتباع : ولقد قضيت فى نادى أبى القاسم الشابى نحو ثلاث ساعات استمع لأصدقائه وأبنائه يرددون مآثره ، ويلهجون بأياديه . وزرت ذلك المعرض الذى جمعت فيه مخلفاته ، وأريد به أن يمثل مراحل حياته ، فجاء آية من آيات الوفاء والإخلاص . وفى الحق أنه أحب تونس فأحبته . ووقف عليها حياته كلها فتعلقت به . قضى عمره يتحدث عنها ، ويحيى أمجادها ، ويسهم بعقله وقلمه فى نهوضها . واليوم أود أن أقول كلمة مصر قبل أن أقول كلمة المجمع والمجمعيين ؛ فقد كان حسن حسني عبد الوهاب مصرياً بقدر ما كان تونسياً . عدّ مصر وطنه الثانى . عرف من شئونها ما لم يعرفه كثيرون ، وتوافرت له فيها صداقات قل أن يحظى بها أحد سواه من أصدقاء مصر الكثيرين . زار القاهرة منذ عهد مبكر ، وأحبها حبه لتونس أو القيروان ، ولا غرابة ؛ فالقاهرة المعزية التى نحتفل بعيدها الألفى هذا العام يمكن أن تعد بنت القيروان ، وكان يتردد عليها كلما سنحت له الفرصة ، ويطيب له المقام فيها . ألم بدقائق تاريخها ، وعرف أحياءها القديمة التى قد لا يعرفها بعض أبنائها . وكان يروقه أن يقف إخوانه ومواطنوه التونسيون على آثارها ، وأن يزور معهم مختلف معالمها .

وقد سئل مرة : كيف وجدت مصر ؟ فكان جوابه ، على نحو ما صنع مغربى سابق هو المقرى صاحب « نفح الطيب » : « من لم يزر مصر لا يعرف عز الإسلام » . ولقد أعزته مصر بقدر ما أعزها ، فاختارته عام ١٩٣٢ من بين شيوخ المغرب وعلمائه ، ليكون أحد مؤسسى مجمعها . ونشرت المطبعة الأميرية عام ١٩٤٤ فى طبعة ثانية كتابه « تاريخ الأدب التونسى » ، بعد أن انقضى على طبعته الأولى فى تونس نحو خمس وعشرين سنة . وفى عام ١٩٥٠ منحته جامعة القاهرة ، أو جامعة فؤاد الأول حين ذلك ، درجة الدكتوراه الفخرية فى اللغة العربية والدراسات الإسلامية .

سيداتى ، سادتى

إن مجال القول فى الراحل الكريم ذو سعة ، ومن العسير أن يوفى حقه فى موقف كهذا . وحسبى أن أعرض لنشأته ، وأنوه بشيء من نشاطه الإدارى والعلمى ، وأقف قليلا عند حسنى عبد الوهاب مؤرخ الحضارة .

(ا) نشأته :

إن حياة فقيدنا خصبة وممتعة ، طويلة وعريضة ، « وخيركم من طال عمره وحسن عمله » ؛ ملئت كلها بالجد والعمل والبحث والدرس ، وآتت ثماراً يانعة ، وخطت بتونس خطوات فسيحة نحو النهوض والتقدم . ولد فى عهد الاستقلال ، وعاش طويلا تحت حكم الاحتلال ، وأقر الله عينه بأن يستعيد الوطن استقلاله فى حياته ، وأن تنعم أمته بالحرية قبل مماته ، وكان فى هذا كله مثال المواطن الصادق الذى يخدم وطنه برغم الظروف ، ويرعى حقوقه ومصالحه إزاء اضطهاد الغاصب المستعمر :

وهو سليل أسرة من أسر تونس العريقة التى كان لها شأن فى الأدب والسياسة . ولد عام ١٨٨٤ ونشيء تنشئة إسلامية عربية ؛ فألحق فى سن مبكرة بكتاب سيدى الموحد ، ونقل بعد قليل إلى المدرسة الابتدائية ، حيث حفظ الربع الأخير من القرآن ، ودرس شيئاً من علوم الدين واللغة ، وتعلم مبادىء اللغة الفرنسية ، ثم ألحق بالمدرسة الصادقية ، وكانت بعد « الزيتونة » منارة العلم فى تونس ، تجمع بين الثقافتين التقليدية والعصرية ، وتضم الرعيل الأول من المجددين والمصلحين .

وما إن أتم دراسته بها حتى سافر إلى فرنسا ، والتحق « بمدرسة العلوم السياسية » بباريس ، حيث توسع فى دراسة الاقتصاد والسياسة والقانون ، وكان مولعاً بتتبع كبار الأساتذة والمحاضرين ، واتصل بنفر منهم ، أمثال شاركو المشهور Charcot عامين أو يزيد قضاهما فى باريس طالباً ومحصلا ، فضم إلى ثقافته العربية الثقافة الفرنسية ، واكتمل نضجه ، وتأهب لما هو مقبل عليه من أعباء جسام . وشاءت الأقدار أن يموت والده ، وهو فى سن العشرين ، فاضطر أن يعود إلى وطنه عام ١٩٠٤ ، ليؤدى واجبه نحو أهله وقومه .

(ب) نشاطه الادارى :

وما إن عاد إلى وطنه حتى دعى إلى خدمة بلده ، فانخرط فى السلك الوظيفى ، متنقلا بين إدارات مختلفة . التحق أولا بإدارة الفلاح مشرفاً على شئون الريف والزراعة ، ومنها إلى الإدارة الاقتصادية التى تعنى بشئون المال والتجارة . ثم انتقل إلى إدارة المحفوظات التى كانت فى حاجة ماسة إلى التنسيق والتنظيم ، فوضع لها نظماً سارت عليها إلى اليوم . تجارب ولا شك متنوعة ونافعة ، أهلته لأن يشرف على شئون الولايات فى الأقاليم . وقضى فى ذلك نحو خمس عشرة سنة ، وتلك ناحية تعين على النهوض بالقاعدة ، وخدمة عامة للشعب على نطاق أوسع : فتولى بالتتابع أمر عدة ولايات تونسية ، وحاول أن ينهض بها ثقافياً وعمرانياً : فأسس المدارس والمكتبات وعبّد الطرق ،

وزود القرى بوسائل الإضاءة ومياه الشرب الصالحة . وكان يضرب من نفسه المثل للإرشاد والتوجيه فكان يلقى على أهل ولايته محاضرات مختلفة ، ويدخل معهم فى حوار مشترك ، وكثيراً ما أهدى المكتبات التى أنشأها فى الولايات بعض كتبه الخاصة . وبرغم بلوغه السن القانونية عين مديراً لمصلحة الأوقاف ، فحملها من أيدى الطامعين والمعتدين . ثم اختير وزيراً للقلم فأشرف على شئون الداخلية ، وتولى أمر التراسل مع الدول والهيئات الأجنبية . أربعون سنة أو يزيد قضاها فى خدمة بلاده ، وتصريف بعض الشئون العامة ، وبذل فيها من نفسه وماله وصحته ، وخطا بأمته نحو الاستقلال والحرية .

وفى عام ١٩٤٧ حق له أن ينال حظه من الراحة ، وأن يعفى من هذه الأعباء الثقال ؛ غير أن حماس التحرر والاستقلال اجتذبه إلى ميدان الجهاد والعمل المضنى ، ففى عام ١٩٥٧ دعى فى شيخوخته ، وكان مملوءاً بالنشاط دائماً ، إلى الإشراف على « المعهد القومى للآثار والفنون » ، وقد وقف عليه خمس سنوات كاملة ، كانت مثار نشاط لا ينقطع ،أعانه عليه تلاميذه ومحبوه ؛ فنقل مصلحة الآثار من مقرها القديم البالى إلى دار فخمة كان يسكنها قائد الجيش الفرنسى ، وأسس خمسة متاحف : أربعة منها للآثار الإسلامية ، وخامسها فى قرطاجنة للآثار الرومانية ؛

(ج) نشاطه العلمى والأدبى :

لقد كان فقيدنا يعرف دائماً كيف يلائم بين عمله ودرسه ، فلم يفته أن يفيد الطلاب والتلاميذ من درسه النافع وعلمه الغزير ، ولم ينقطع عن البحث والكتابة منذ أتم دراسته فى باريس ، وعلى الرغم من أعباء وظائفه لم تحرم من دروسه المدرسة الخلدونية ، ولا المدرسة العليا للغة والآداب العربية بتونس ، وامتد نشاطه العلمى إلى ما وراء تونس ؛ فدعى إلى إلقاء محاضرات فى معهد الدراسات الإسلامية بباريس .

وعنى بالكتابة والتأليف منذ أوائل هذا القرن ، وبقى على ذلك إلى أن لقى ربه . وكانت مكتبته أحب شىء لديه ، فهى صومعته التى كان يأوى إليها للبحث والتأمل . كتب بالعربية كما كتب بالفرنسية ، وغذى الصحافة التونسية والأجنبية ، وأمد دائرة المعارف الإسلامية بعدة فصول ، وشجع تلاميذه وأبناءه ؛ فقدم لكتبهم ، وعلق على بحوثهم ، وكان مورداً عذباً لا ينقطع :

أخرج عشرات من الكتب والرسائل فى الأدب واللغة ، والتاريخ والسياسة ، والاقتصاد وعلم النميات : ويمكن ردها إلى بابين هامين : تحقيق وتأليف . وقد أولع منذ شبابه الباكر بجمع النفائس من تحف ومخطوطات ، وفى مكتبته قدر من المخطوطات النادرة ، كشف عنها ، وجهد فى استنساخها أو الحصول على صورة منها ، وأخرج منها قدراً فيه جدة وطرافة . وقد سلك فى تحقيقه مسلكاً علمياً دقيقاً جمع الأصول وراجعها ، وبنى عليها ما ينشره . وكان يحرص على أن يقدم لتحقيقه ، وأن يشرح غامض النص ، ويبين فكرته الأساسية . استطاع أن ينشر تسعة تحقيقات

كشفت عن ذخائر مدفونة ، وبرهنت على ما امتاز به من حسن الاختيار ورهافة الحس : وحسبي أن أشير إلى مثلين اثنين : أولهما « التبصير بالتجارة» للجاحظ ، والجاحظ بحر زاخر ، لا نزال نكشف عن جوانبه المجهولة ، وقد عاش النصف الأول من حياته فى البصرة بين تجارها المهرة الذين كانوا يربطون الشرق الأقصى بالشرق الأدنى . أما النص الثانى فهو « ملقى السبيل » لأبى العلاء المعرى ، وهو رسالة صغيرة وضعها الشاعر الفيلسوف فى أخريات حياته ، فخرج فيها من الشك إلى اليقين ، وأرسل آيات فى الوعظ والحكم ، وقد حرص المحقق على أن يقارن بينه وبين شوبنهاور ، شيخ المتشائمين فى الفكر المعاصر .

وفى ميدان التأليف أخرج الفقيد عدة كتب ورسائل بالعربية والفرنسية ، ومنها ما قصد به معونة طلاب الدراسة الثانوية ، « كخلاصة تاريخ تونس» ، و«المنتخب المدرسى فى الأدب التونسى » ومنها ما اتجه نحو تحقيق بعض الأحداث التاريخية ، «كاستيلاء المسلمين على صقلية » ، و« نهوض الموسيقى العربية بالمشرق والمغرب» وأود أن أشير بوجه خاص إلى كتاب أخرجه فى السنوات الأربع الأخيرة ، وهو « ورقات عن الحضارة العربية بتونس» ، ظهر منه جزآن ويعد الجزء الثالث والأخير للطبع الآن . وهذا الكتاب وثيق الصلة بكتاب آخر شغل به الفقيد طويلا ، وسماه « كتاب العمر » . والأمل معقود على أن ينشر هذا الكتاب قريبا ، كى نعيش مع الراحل الكريم فى تأملاته ، ونتابعه فى بحوثه ودراساته .

وأسلوب الفقيد من السهل الواضح ، ينفر من الغريب والغامض ، ويتحاشى الصنعة والتكلف . ويتخير ألفاظه ويزنها بميزان دقيق ويؤثر الجملة القصيرة ذات الدلالة المباشرة . وهاكم نموذجا من عباراته العذبة يتحدث فيه عن البحر المتوسط ، فيقول : « إن هذا البحر المتوسط لشأن عجيب ! مهد الحضارة ، ومبعث الرسالات ، ومنبع الشعر والفن والسحر . البحر المتوسط قلب الدنيا النابض وفلك العالم الدائر ، وقطبه المنير . على ضفافه الهادئة المعتدلة ، نشأت مدنيات ومدنيات ، قديمة وحديثة ، وظهرت آيات التفكير البشرى ، وعجائب الحقائق ، ونبعت معجزات سرمدية » .

وفقيدنا علم بين المستشرقين ، عرفهم وعرفوه منذ ستين سنة أو يزيد ، اشترك معهم لأول مرة فى مؤتمر الخرطوم عام ١٩٠٥ وتوثقت صلته بشيوخهم ، أمثال جورج براون بين الإنجليز ، ونولدكه بين الألمان ، وجولد زيهر بين النمساويين ، وأسين بلاسيوس بين الأسبان ، وماسنيون بين الفرنسيين . وحرص على أن يشهد مؤتمراتهم بانتظام ، وكان له فيها إسهام ملحوظ . وإن أنس لا أنسى موقفه فى مؤتمر كوبنهاجن عام ١٩٠٨ من لامانس وشيخو فيما كتبا عن محمد صلى الله عليه وسلم ، وكان لرده عليهما صدى كبير بين جميع المؤتمرين .

وللراحل الكريم تاريخ حافل فى مجمع اللغة العربية ، عاش معه منذ نشأته إلى اليوم ، فأسهم فى تأسيسه ووضع نظمه ، واشترك فى كثير من لجانه ، ورأس بعض جلسات مؤتمره ولن أعرض فى تفصيل لما قدم للمجمع من رأى وبحث ، وقد عرضت لشئ من ذلك فى حديثى بتونس عن « حسنى عبد الوهاب المجمعى الرائد » . وأكتفى بأن أشير هنا إلى موقفه من الاقتراح الخاص باتخاذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية ، وكان واضحا وصريحا فى معارضته له كل المعارضة ، لأنه يرى الكتابة العربية موفية بجميع الغرض المطلوب منها ، وهو التعبير عن مخارج الحروف فى لغة « الضاد » ، وفوق هذا ، استعملت هذه الكتابة فى لغات غير لغتنا ، فكتبت بها الفارسية والأردية ، كما كانت تكتب بها التركية ، ويكتب أهل الملايو بحروف عربية — وأكثر من هذا استطاع العرب قديما أن يكتبوا الأسبانية بحروف عربية ، ويحرص الأسبان اليوم على أن يصححوا لغتهم ويكملوها فى ضوء ما كتب بالعربية .

(د) حسنى عبد الوهاب مؤرخ الحضارة :

لقد كان مؤمنا الإيمان كله بوطنه وأمته ، فكان يرى أن البلاد التونسية قسمت البحر المتوسط قسمين مستويين ، وكانت همزة وصل بين الشرق والغرب ، وأفادت من الحضارة الإنسانية المختلفة . وأخذت عن القرطاجنيين الملاحة ، والتجارة ، وغرس شجرة الزيتون المباركة ، وعن الرومانيين سن القوانين ، وتنظيم المدن ، وتعبيد الطرقات ، وعن البيزنطيين الترف ، والتأنق فى المآكل والملبس ، وعن العرب الدين ، واللغة ، ومكارم الأخلاق . أخذت ذلك كله واستوعبته وهضمته وجعلته تونسيا خالصا . وقد وقف حياته على درسها ، والكشف عن ماضيها ، فأرخ لها وحقق بعض الكتب المتصلة بها ، مثل : « وصف إفريقية والأندلس » لابن فضل الله العمرى « ورحلة التيجانى » فى البلاد التونسية وطرابلس . وكتب ما كتب عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، وكأن « كتاب العمر » الذى لم نقف عليه بعد ، وقف عليها .

والتأريخ للحضارات أمر جد عسير ، يستلزم درسا واسعا ، وقراءة مستفيضة ، وإلماما وقد توافر كله لحسنى عبد الوهاب ، وكان حجة فى الحضارة الإسلامية عامة ، والحضارة التونسية خاصة تتبع دقائقها ، وأحاط بتفاصيلها . وكم يذكرنى بمواطنه التونسى الكبير عبد الرحمن بن خلدون ، كانا معا إمامين فى العمران وطبائع البشر . وعندى أن حسنى عبد الوهاب تأثر كثيرا بسلفه ، وحاكاه فى صنيعه ، وإذا كان صاحب « المقدمة » هو مؤرخ الحضارة العربية الأولى فى القرن الرابع عشر ، فإن فقيدنا يعد من أئمة مؤرخيها فى القرن العشرين .

سيداتى ، سادتى :

هذا هو حسنى عبد الوهاب فقيد تونس ومصر ، بل فقيد الأمة العربية جمعاء ، كان رائدا ومجددا فى حياته ، ومثلا يحتذى بعد مماته . اختط لنفسه خطة ، والتزمها طوال ستين سنة أو يزيد ، وما أحوجنا إلى رسم الخطة واطراد السير . تغمده الله برحمته ، وجزاه عما قدم لدينه وعروبته خير الجزاء .

١٢ ــ مصطفى جواد اللغوى (فبراير ١٩٧٠)

هناك أناس يقفون أنفسهم على الدرس والبحث ، يولعون بهما ، ويجدون فيهما لذة ومتاعا لا يعدلهما متاع آخر . يبحثون وينقبون، يقرءون ويطلعون، يحققون ويراجعون، يشرحون ويعلقون، يكتبون ويؤلفون . ذلك همهم وتلك غايتهم ، لايرجون وراءها جزاء ولا شكورا ، وكأنما خلقوا ليعطوا ، وسواء لديهم بعد هذا مايأخذون . ومصطفى جواد واحد من هذا النفر القليل قضى حياته كلها فى الدرس والبحث ، وحببت إليه العربية وعلومها منذ شرخ الشباب ، فعكف على درسها ، وأعد لذلك العدة اللازمة . حصّل ماحصّل فى مدارس العراق ومعاهده ، ثم سعى إلى مصر فى منتصف العقد الثالث من هذا القرن ليتزود من الفرنسية يزاد ، وقدر له أن يسافر إلى باريس وأن يحصل على الدكتوراه فى أخريات العقد الرابع فاكتملت ثقافته وتوافرت وسائل بحثه ، وضم إلى العربية لغتين أجنبيتين هما الفارسية والفرنسية ، وتنوعت قراءته ، واتسع اطلاعه.

ثم أخذ ينتج ، وإنتاجه غزير ومتنوع ، فيه أدب ولغة ، تاريخ وجغرافيا ، جله تحقيق وتعليق ، وينصب قدر منه غير قليل على التأليف . أربعون سنة أو يزيد قضاها فى تتبع الحركة الأدبية واللغوية فى العالم العربى جميعه فلا يكاد يظهر كتاب أدبى أو لغوى إلا وله فيه رأى وله عليه تعليق ، وحظيت مجلات المجامع العلمية واللغوية بكثير من آرائه وتعليقاته ، ولمجلة المجمع العلمى العراقى منها الحظ الأوفر .

* * *

ومجال القول فى الفقيد الكريم ذو سعة ، وبودى أن أقف قليلا عند مصطفى جواد اللغوى . وقد اتسم رحمه الله بسمات عالم اللغة الضليع : قراءة مستفيضة ، واطلاع واسع ، وذاكرة قوية ، وفهم دقيق ، وتفكير عميق ، ومقارنة للنصوص والروايات ، واستخلاص لبعض النتائج والأحكام وانتهى إلى طائفة من الآراء والمبادئ التى كان لها شأنها فى نهضتنا اللغوية الحاضرة .

فكان يؤمن بأن اللغة متطورة بتطور الزمان والمكان ، ومن الظلم أن نقول بجمودها ، أو أن نقف بألفاظها وتراكيبها عند أوضاع ثابتة . وعنده أن فكرة التطور هذه ليست بجديدة ، فقد تنبه إليها القدماء ، وعلى رأسهم الزمخشرى الذى كثيرا مافرق فى « الأساس » بين لغة نجد ولغة الحجاز . ولم يفت أصحاب المعاجم المتأخرين أن يشيروا إلى ما جد من ألفاظ وأساليب . وما اللهجات إلا صورة من صور التطور المكانى ، وما المولد والمعرب إلا صورة من صور التطور الزمنى . وزاد مصطفى جواد فى التدليل على ذلك كله وفير ، وفى « مجلة المجمع العلمى العراقى » أمثلة منه متعددة وخاصة فى مقال : « مبحث فى سلامة اللغة » :

وإذا كانت اللغة متطورة فمن الغلو أن نقول بلغة مثالية لا نقبل سواها وأن نقصر الفصحى على عصر بعينه ونرفض ماعداه . وعلى عكس هذا اللغة فى تطورها كل متصل الأجزاء يكمل لاحقه سابقه ، ويرتبط حاضره بماضيه . والوقوف باللغة عند عصر معين جمود . وتضييق لمدى نشاطها ، وتحديد لمجال حياتها وحيويتها . وكثيرا ما يستشهد مصطفى جواد بشعر القرون المتأخرة ونثرها وبرغم دعوته إلى التجديد يؤثر شأن بعض اللغويين ، استعمال أمثال المقريزى والسيوطى على استعمال المعاصرين .

ومادام باب الاجتهاد فى اللغة قد فتح ، أو أنه لم يغلق قط ، فمن حقنا أن نجدد فى متنها وتراكيبها ، وأن نعدل بعض قواعد نحوها وصرفها . ويلاحظ مصطفى جواد بحق أن العلم والحضارة جاءا بمعان ومدلولات كثيرة لابد لها من ألفاظ تؤديها . وواجبنا أن نفتش أولا عن مصطلحاتنا القديمة فى العلوم والفنون والآداب ، ولعل فيها مايسد الحاجة ، وهذا أمر كثيرا ما نفعله ، مع أن لنا فيه تقاليد متصلة ، فوضع العرب معاجم فى المصطلحات بدأت فى عهد مبكر « كمفاتيح العلوم » للخوارزمى الذى وضع فى القرن الرابع الهجرى . ثم تلاحقت فى القرون التالية ، ومن أهم ما ظهر منها « كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم » للتهانوى ، وهو من رجال القرن الثانى عشر الهجرى . وأحيا بعض الباحثين المعاصرين هذه السُنَّة كالأب أنستاس الكرملى فى بغداد والأمير الشهابى بدمشق ، والدكتور أمين المعلوف ببيرت والدكتور شرف ، والدكتور أحمد عيسى بالقاهرة ، فإن عز علينا أن نجد فى الاستعمال القديم ما يسد الحاجة ، فلا ضير فى أن نضع ألفاظا جديدة وسبيلنا إلى الاشتقاق والتعريب . ولا شك فى أن اللفظ المأنوس والشائع المشهور ، وإن كان دخيلا أو مولدا ، خير من الغريب والمهجور . والمصطلحات الحديدة ذات حظوظ مختلفة ، فمنها ما يقدر له البقاء والانتشار ، ومنها مايحل محله غيره ولايحظى بحياة طويلة .

والنحو والصرف متطوران تطور اللغة نفسها ، وفى وسعنا أن نجدد فيهما ونعدل . ونحو اللغات الحية ، وفى مقدمتها الفرنسية ، متغير ومتطور ، ونعنى بتطوره أنه لم يلتزم فيه دائما آراء النحويين السابقين ، وقد بذلت فى وضع النحو العربى جهود كبيرة ، وقام على أمره أئمة أعلام ، إلا أن بعض أحكامه غير مستوعب ومنها ماضيق الواسع ، ولا أدل على هذا من اختلاف مدارسه ومذاهبه. وفى وسعنا أن نتدارك بعض مافات وأن نبدع فى النحو كما أبدع قدامى النحاة . ويحاول مصطفى جواد فى كتابه « المباحث اللغوية فى العراق » أن يقدم نماذج لما يمكن أن يستدرك على النحو القديم ويلاحظ أنا فى مؤلفاتنا المدرسية نميل إلى نحو البصريين ويأسف لهذا ، ويراه من أسباب جمود النحو وعده غاية لا وسيلة ، وعنده أن فى نحو الكوفيين مايفضل آراء البصريين .

وليست مشكلة الصرف بأهون من مشكلة النحو ، فالتعبد به سر جموده ، وتعقيده أحيانا صرف الشباب عنه . فيه قضايا شائعة لا يمكن أن تقبل على علاتها ، كالقول مع البصريين بأن

المصدر أصل المشتقات ، وقصر الاشتقاق عليه ، وكأفعال المطاوعة التى يعدها مصطفى جواد خرافة عجيبة ، لأن المطاوعة تنصب على المفعول لا على الفعل . ورفض الصرفيون النسبة إلى الجمع ، مع أنه مقصود أحيانا لذاته ، وورد السماع به كالشعوبى والأنصارى والحواليق ؛ وأغفلوا بعض أوزان تدعو الحاجة إليها كأسماء الآلة والأداة ، ومنعوا بعض الصيغ مع أنه لاغبار عليها ؛ والعربية وهى لغة اشتقاقية ، جديرة بأن تيسر هذا كى يؤدى - ما أمكن - كل معنى بلفظ خاص به . وقدم مصطفى جواد لمؤتمر مجمع اللغة العربية فى دورته الثالثة والثلاثين سبعة مقترحات شاركه فى بعضها مجمعيون آخرون ، وترمى إلى تيسير الاستعمال العصرى . وقد أقر المجمع منها ثلاثة ، وهى أولا جواز لحوق التاء بصيغة فعول بمعنى فاعل وجمعها جمع تصحيح للمذكر والمؤنث ، فيقال فخور وفخورون ، وفخورة وفخورات . وثانيا قياس صيغة فعيل للدلالة على المشاركة ، مثل جليس وخليل وأكيل ووكيل . وأخيرا إباحة جمع فعل على أفعال ، فيقال مجد وأمجاد وبحث وأبحاث وكثيرا ما أنكر هذا على الكتاب والمؤلفين .

وقد عاش مصطفى جواد مع المعجمات العربية زمنا غير قصير ؛ درس قديمها ، وعلق على حديثها ، وعرفها معرفة حقة . ولاحظ على المعجمات القديمة قلة تبويبها ، ونقص تنسيقها ، وقصورها فى تناول الألفاظ المولدة والمعربة ، ومنها مالا يخلو من تحريف وتصحيف . وكثيرا ما قنع أصحابها بمجرد الأخذ عن سابقيهم دون تجديد أو تمحيص ، وهم يعنون فى الغالب بالمفردات أكثر مما يعنون بالجمل والتراكيب ، مع أن للجملة قيمة استعمالية هى القيمة الحية للغة وتأخذ اللغات بعضها عن بعض جملا وأساليب ، كما تأخذ ألفاظا ومفردات . وقد سرى إلى العربية المعاصرة سيل من الأساليب الأجنبية ، ويحرص مصطفى جواد على أن يثبتها ، وبخاصة ما كان منها موضع نقد أو ملاحظة . وهو لا ينكر هذا الأخذ من حيث المبدأ ، ولكنه لا يقبله على إطلاقه ، ويدعو واضعى المعجمات الحديثة إلى أن يتعقبوا هذه الأساليب والتعبيرات ، ويدلوا برأيهم فيها . وقد لا نتفق معه فى بعض ما أقره ، أو فى بعض ما رفضه ، ونعتقد أن الأسلوب الجديد ثروة لغوية مكتسبة ، ما دام لا يتعارض مع أصول العربية وقوانينها .

ويقف مصطفى جواد طويلا عند نقطة سبق إليها ، وهى أن المعجمات اللغوية القديمة لم تستوعب مفردات اللغة وتراكيبها جميعها ، بل فاتها منها قدر ملحوظ ، وعلينا أن نتلمسه فى كتب الأدب والتاريخ والعلم والفلسفة . وهذا ما دفع مستشرقين كبيرين إلى محاولة تكملة المعجمات العربية واستدراك ما فاتها ، وهما لين (١٨٧٦ م) الإنجليزى ، ودوزى (١٨٨٦ م) الهولندى . وقد شغل مصطفى جواد بذلك منذ سن مبكرة ، وتابعه طوال حياته ، وأخذ يسجل ما لفت نظره وجمع جملة صالحة من المستدركات تبلغ أن تكون مجلدة كبيرة ، فيها شواهد لغوية ، ونكت نحوية ، ودقائق صرفية . وقد عرض نماذج منها فى مؤتمر الدورة الثانية والثلاثين لمجمع اللغة العربية

الذى عقد ببغداد عام ١٩٦٥ . وبقدر ما نعلم لم ينشر هذا المعجم المستدرك بعد ، وليس شئ أبلغ فى الوفاء لمؤلفه ، ولا أنفع فى تخليد ذكراه من نشر معجمه هذا .

لا أظننى فى حاجة أن أشير فى ضوء ما تقدم إلى أن مصطفى جواد لغوى حق ومعجمى صادق أسهم مع كبار المعجميين فى حمل راية النهوض بالعربية ، وجعلها وافية بحاجات العصر ومقتضياته ؛ آمن بخصبها ومرونتها ، ولمس قدرتها على الوفاء بمطالب العلم والتكنولوجيا . أحاط بها ، واستوعب نصوصها وشواهدها ، فإذا ما عرض جديد ناقشه فى ضوء الماضى حتى ليخيل إلينا أنه يقول مع القائلين : « ما ترك الأول للآخر شيئا » . ولكنه فى سعة أفقه ينفذ من ناحية أخرى إلى ما ينبغى ابتداعه وابتكاره وما يجب إضافته وتجديده . فهو مثال حسن للغويين الذين يجمعون بين المحافظة والتجديد .

وقد عده مجمع اللغة العربية بالقاهرة من قديم شريكا له فى مهمته وسعد أخيرا بزمالته وعضويته والتقى معه فى كثير من آرائه وأخذ بقدر من مقترحاته ، واعتز بما أدى من أمانة ، وما حمل من رسالة . وهو يشاركم تمام المشاركة فى رزئه ، ويبعث إليكم مرة أخرى بخالص عزائه . عوضنا الله جميعا فيه خيرا ، وجزاه أحسن الجزاء بما قدم لأمته ولغته .

---

١٣ ـ محمد الفاضل ابن عاشور (فبراير ١٩٧١)

اودع اليوم شيخا جليلا ، وزميلا كريما اختطف منا على عجل ، وحرمنا من علمه وفضله ونحن أحوج ما نكون إليه .

والموت نقاد على كفه   جواهر يختار منها الجياد

نودع الفاضل ابن عاشور ، وقد كان فاضلا حقا ، سماه كذلك ، جده لأبيه ، وكأنما كان يكتنه الحجب . فجاء ابن ابنه فاضلا فى زيه وسمته ، يملأ العين جلالا ووقارا ، والقلب تقديرا واحتراما ، وفاضلا فى قوله وعمله ، حديثه جد لا هزل فيه ، ومسلكه قدوة حسنة ، أدب جم ، وتواضع بالغ ، وعطف ورأفة ، وبذل للنفس والمال فى سبيل الخير والناس .

ونودع عالما كبيرا ، إماما من أئمة الأدب واللغة والفقه والتشريع ، ورائدا من رواد الإصلاح والتجديد : وكم نعمنا نحن هنا بأدبه الرقيق ، وبحثه العميق ، ودرسه الواسع . لا يعنى إلا بدقائق الأمور ، ولا يعرض إلا للمعضلات ، كان حجة فى تراثنا الإسلامى جميعه ، وبخاصة ما خفى منه من أخبار المغرب وبلاد الأندلس ، ومحيطا بثمار الثقافة الغربية وما انتهت إليه من علم وفلسفة ، فاستكمل وسائل الدعوة إلى الإصلاح والتجديد ، واضطلع بها فى إيمان ويقين وجد وإخلاص . حريصا على أن يربط الحاضر بالماضى ، وأن يلائم بين الجديد والقديم .

ومجال القول فيه ذو سعة ، وفى سيرته عبرة ، وفى علمه نفع كبير . وحسبنا الآن أن نؤرخ له فى اختصار ، وأن نعرض لشىء من جوانب نشاطه وثقافته الواسعة .

* * *

ولد الفقيد الكريم فى الثانى من شوال عام ١٣٢٧هـ ، الموافق ١٠ من أكتوبر عام ١٩٠٩م ، ونشأ فى بيت علم وفضل ، وتتلمذ لوالده ، وهو إمام فى علوم الدين واللغة ، قبل أن يتتلمذ لمعلم آخر . تتلمذ له فى صباه ، فبدأ تحت إشرافه فى حفظ القرآن ولما يجاوز الثالثة ، وفى تعلم القراءة فى بعض كتب المطالعة المصرية ، وحفظ بعض المتون كالأجرومية والألفية وهو فى السادسة . ووجه فى العاشرة إلى تعلم اللغة الفرنسية على أيدى معلمين خصوصيين فى منزله . وكأنما أريد به أن تقتصر طفولته على بيته وأسرته ، فلم يدخل المكتب الابتدائى ، ولم يعرف من الأطفال إلا أبناء الأقارب . وفى الثالثة عشرة من عمره بدأ يدرس القراءات والنحو والفقه والتوحيد . وفى العام التالى التحق بجامع الزيتونة ، وبقى به إلى أن تخرج فيه ، ومنذ ذلك لم تنقطع صلته به ، تولى التدريس به فى سن مبكرة ، وبقى يتدرج طبقة بعد طبقة إلى أن أصبح أستاذا ، وقد جاوز الأربعين بقليل ، ثم

عميدا للكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين عام ١٩٦١ ، ولكنه لم يبعد قط عن والده وأستاذه الأول ، عاش إلى جانبه طول حياته ، واستمع إلى دروسه فى الأدب والتفسير والحديث بجامع الزيتونة مدة خمس سنين ، ودرج طول حياته على أن يقرأ بين يديه كل ليلة من ليالى رمضان بعد صلاة التراويح قدرا من كتب الحديث والرجال واللغة ، كالبخارى ومسلم ، والإصابة والنهاية ، ولسان العرب وقد نعمت بلقاء الأب والابن ، وأشهد أنى لم أر مثله ابنا هو سر أبيه وصورة كاملة له .

وإلى جانب هذه البيئة الخاصة تفتحت أمامه آفاق شتى ، واتصل بالحركات الثقافية فى العالم الإسلامى عامة ، وفى شمال إفريقية خاصة ، ولم يفته أن ينهل من حياض الثقافة الغربية ، رحل إلى فرنسا لأول مرة وهو فى سن السابعة عشرة ، وكان لهذه الرحلة أثر كبير فى نفسه ، ثم توالت رحلاته إلى أوربا وبعض بلاد الشرق الأدنى واشترك فى عدد غير قليل من الندوات والمؤتمرات ، ودعى للتدريس فى كثير من المعاهد والجامعات وأسهم فى عدة هيئات ، كالرابطة الإسلامية بمكة والجامعة الإسلامية بالمدينة ، وجمعية الجامعات الإسلامية بفاس ، واختير عضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٦١ ، وعضوا بمجمع البحوث الإسلامية فى العام التالى .

وللقاهرة فى نفسه منزلة خاصة ، يحن إليها عن بعد ، ويطيب له المقام فيها عن قرب ، يتابع نشاطها الثقافى ، ويجد فى لقاءاتها الفكرية متاعا لا يعادله متاع . ولا أزال أذكره وهو واقف بيننا فى العام الماضى يقول : « حياك الله يا أرض الكنانة » ، وبارك لك فى هذا الجارى من صعيدك إلى شطك يتدفق خيرا ، ويترقرق ريا ، ويتألق نورا ، ويترفع طهرا وصفاء وهل يجد أليف عهدك — يامصر — خيرا من نيلك السعيد ، يحييك به وهو الذى تحيين به أنت كل وافد عليك ، كما كان آل جفنة فيما شهد حسان ، يسقون قاصدهم : « بردى يصفق بالرحيق السلسل ». فهذه تحيتك — يامصر — تعود إليك ، لا نجد أحسن منها حتى نحييك بها »

اضطلع الفاضل بالإفتاء والقضاء ، إلى جانب عمله فى الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين ، وكان التدريس أحب إلى نفسه ، حاضر فى القرية كما حاضر فى المدينة وخطب فى العامة كما خطب فى الخاصة ، وكان محببا إلى طلبته ومستمعيه ، يحرصون على حضور درسه ويسارعون إلى استماع خطبه ومحاضراته . وجل مانشر من مؤلفاته إنما هو مجموعة دروس ومحاضرات ألقاها أو بحوث أعدها لندوة أو مؤتمر . فدعى عام ١٩٥٥ إلى معهد الدراسات العربية العليا بالقاهرة وألقى سلسلة من المحاضرات أخرجت فى كتاب كبير تحت عنوان : « الحركة الأدبية الفكرية بتونس » ونشر له مجمع البحوث الإسلامية أخيراً بحثا قيما : « فى التفسير ورجاله » . وله فى مجلة مجمعكم ومجموعات محاضراته بحوث لها وزنها وقيمتها ولو تخفف من بعض أعبائه ومد فى أجله لغذى المكتبة العربية بغذاء أوفر . وله دراسات بالفرنسية قدمها فى بعض المؤتمرات

الدولية : ويغلب على الظن أن له مخلفات لم تنشر بعد، ونعتقد أن أصدقاءه وتلاميذه لن يترددوا في إخراجها إلى النور ، كي يفيد منها القراء و الباحثون.

هذه في إيجاز هي حياة الفقيد التي كانت ملأى بالنشاط والعمل، غنية على قصرها بالدرس والبحث، ونود أن نقف عند ثلاثة فقط من جوانبها :

١ — الفاضل ابن عاشور مؤرخ الفكر الاسلامي :

في وسعنا أن نقرر أن تاريخ الدراسات الإسلامية على اختلافها لم ينل بعد حظه ، ولم يكتب كتابة دقيقة مستوعبة ؛ فلم يكشف عن أصولها ، ولم تتضح مراحل نموها وتطورها ولم تعرف آثارها في الحركات الفكرية الأخرى ، ولم تبين أسباب جمودها وتخلفها : ولا تزال في ذلك كله عالة بوجه خاص على ابن خلدون في « مقدمته » ، وقنعنا في الغالب بالصورة الأخيرة التي وصلت إلينا : وقد أحس بهذا النقص فقيدنا ، كما أحس به معاصرون آخرون ، ومكنته ثقافته الواسعة من تدارك شيء منه : ومن أوضح ماحاوله في هذا الباب مؤلفه الذي أشرنا إليه من قبل « التفسير ورجاله » ، والذي ظهر بعد موته بقليل ، ويقع في نحو ١٨٠ صفحة من القطع الصغير :

ويعالج هذا المؤلف تاريخ علم التفسير منذ نشأته إلى اليوم ، من ابن عباس إلى محمد عبده و « تفسير المنار » ، ويوضح مناهج التفسير المختلفة من أخذ بالمأثور ، أو بالنظر والمعقول أو من جمع بينهما ، ويربط التفسير بموضوع إعجاز القرآن الذي كان له شأن في نمو هذا العلم وتنوع أبحاثه وطرائقه ، وفسر هذا الإعجاز على صورتين ، فقيل بالإعجاز الغيبي ، والإعجاز العلمي : والإعجاز البلاغي ، ويعرف المؤلف بكبار المفسرين واهم كتبهم في المراحل المتلاحقة ، ويقف طويلا عند بعض الأعلام ، كالطبري والزمخشري والرازي والبيضاوي بين القدامى ، وكالألوسي ومحمد عبده بين المحدثين : وله في كل هذا ملاحظات دقيقة ومقارنات شائقة :

ويمكن أن يضاف إلى هذا بحثان آخران لايخلوان — على قصرهما — من جدة وطرافة ، وهما أولا : « الاجتهاد ، ماضيه وحاضره » ، وقد ألقي في المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية ، ويستعرض فيه باختصار الأدوار التي مر بها الاجتهاد والتشريع الإسلامي منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا : فيشير إلى كبار المجتهدين من الصحابة والتابعين ، وإلى نشأة المذاهب الفقهية الكبرى ويعرض لاختلاف المجتهدين ، باختلاف طبائعهم وميولهم ، ومدى تفهمهم للنصوص من كتاب أو سنة ، و تباين العادات والتقاليد من بلد إلى آخر : وقد عرف من قديم تسامح ابن عباس وتشدد عبد الله بن عمر ، واختلاف تشريع المدينة عن تشريع العراق والشام ومصر : ويلاحظ فقيدنا بحق أن المشرعين من الصحابة والتابعين ورجال القرنين الثاني والثالث للهجرة كانوا أكثر منا طلاقة وحرية في قياس الأشباه والنظائر واستنباط الأحكام الشرعية : ويوم أن استكملت المدارس الفقهية بحوثها ، واستقرت أصولها وفروعها ؛ قنع أتباع كل مدرسة بالأخذ عنها ، وضاق منذ القرن الرابع مجال الاجتهاد والاستنباط في التشريع ، وذهب

إمام الحرمين في القرن الخامس إلى أن ليس ثمة موضوع لم يعرض له الفقهاء السابقون . وتنوسي الاجتهاد أو كاد ينسى ، واستمسك العامة والخاصة بالتقليد ، الأمر الذي لم يرق ابن تيمية ولا تلميذه ابن قيم الجوزية في القرن الثامن ، ورفضا معا تقليد المذاهب الأربعة ، ودعوا إلى الرجوع إلى ما كان عليه السلف . وظهرت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بوادر دعوة إلى شيء من التحرر على أيدي الدهلوي في الهند والشوكاني في اليمن ، وعززها الأستاذ الإمام في القرن الرابع عشر ، وترتبت عليها اتجاهات عملية تختار من المذاهب السابقة أنسبها للظروف الحاضرة . ولا يشك في أن العالم الإسلامي كان عرضة منذ الماضي لاعتبارات وأوضاع جديدة لم يعرفها السلف ، ولا بد من مواجهتها بتشريع واجتهاد طليق على نحو ما صنع الأوائل . ولم يكن الاجتهاد التشريعي منذ بدأ من عمل العامة والدهماء ، وإنما اضطلع به الخاصة ، وحبذا لو تكون — كما يرى الأستاذ الكبير الطاهر ابن عاشور والد الفقيد — مجلس إسلامي يضم كبار فقهاء المسلمين في العالم أجمع لمواجهة التطورات الحديثة ، وما أشبه هذا المجلس بمجمع البحوث الإسلامية في مصر .

وأما البحث الثاني فيدور حول « السند التونسي في متن اللغة » ، وقد نشر في الجزء التاسع عشر من مجلة المجمع — وفيه عرض شامل للدراسات اللغوية وشيوخها في الأندلس وشمال إفريقية من القرن الرابع إلى آخر القرن الثامن الهجري ، ثم انتقل السند إلى مصر ، وتلقاه ابن حجر والسيوطي والمرتضى الزبيدي . ويشهد هذا البحث مرة أخرى على مدى تمكن الفقيد من تاريخ الثقافة العربية في نواحيها المختلفة ، وعلى مدى معرفته لكبار الرجال ، إن في الفقه ، أو في الأدب أو في اللغة .

٢ — الفاضل ابن عاشور المجمعي :

لا ترجع صلة فقيدنا بمجمع اللغة العربية إلى عام ١٩٦١ فحسب ، يوم أن اختير لعضويته العاملة بل تصعد إلى أبعد من ذلك — فقد كان يتتبع نشاطه منذ إنشائه ، وكان يعتز باشتراك عضوين عاملين فيه كانا من أحب الناس إليه ، وهما الخضر حسين ، وحسن حسني عبد الوهاب ، واشترك والده أطال الله بقاءه ، في بحوثه وأعماله بالمراسلة . وكان يعتز أيضا بشيوخ المجمع الآخرين من عرب ومصريين ، ويقدر ما انتهوا إليه من اقتراحات وقرارات ترمي إلى تطويع اللغة لحاجات العصر ومقتضيات العلم والحضارة الحديثة . كان يؤمن بهذه الرسالة إيمانا جازما قبل أن يدخل المجمع ، ويوم أن دخله لم يتردد في أن يسهم فيها بكل ما وسعه من علم وخبرة . ولقد قضى معنا عشر سنوات كاملة كلها خصب وإنتاج ، ولم يتخلف عن مؤتمر من مؤتمراتنا إلا لضرورة قاهرة . وأخذ الكلمة في افتتاح مؤتمر الدورة الثلاثين والدورة السادسة والثلاثين ، وأبّن فقيد تونس الكبير الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب في الدورة الخامسة والثلاثين . وغذى المجلة ببحث قيم سبق أن أشرنا إليه ، وقدم للمؤتمر بحثين هامين في الدورة الثلاثين والدورة الرابعة والثلاثين ، أولهما : « تحرير أفعل التفضيل من ربقة قياس نحوي فاسد » ، والثاني : « المصطلح الفقهي في المذهب المالكي » . وإن نقف عند

ملاحظاته الدقيقة وتعليقاته النافعة علي بحوث وموضوعات عرضت في المؤتمرات الماضية ، ويكفينا أن ننوه بهاتين الدراستين :

فأما الدراسة الأولى فوليدة تجربة لرجل عاش مع القواعد النحوية والصرفية زمنا غير قصير ، ولمس ما فيها من أقيسة جاوزت الحد ، واستنتاجات لم تبن على تحر تام للاستعمال القديم ، لا سيما لدى البصريين المحدثين . ورأى أن فيها « مجالا للنظر ، وأن من الخير أن نقللها ، وأن نتحرر من وثاقها ما أمكن توسيعا للغة ، وتيسيرا على طلابها » . ومن أوضح الأمثلة على ذلك أفعل التفضيل وهو من التصاريف التي تتجلى فيها عبقرية العربية ، ويشيع استعماله اليوم لتقدير النسب وضبط القيم ، وتفضيل صفة أو أمر على آخر : ولكن النحاة ضيقوا أوزانه ، وأثقلوه بشروط كثيرة تعقد استعماله : وفي بحث جاد عميق حاول الفاضل ابن عاشور أن يفك هذه القيود ، وأن يبين ما في هذه الشروط من تزيد وتعسف . وقد استقبل المجمعيون بحثه بحماس وتقدير بالغين ، وقضت لجنة الأصول بالمجمع في نظره زمنا طويلا ، وعقبت عليه بدراسات أخرى متعددة : وانتهت إلى الأخذ بكثير مما قال به من تيسير أمر هذه الصيغة ، وتمكين الناس من استعمالها في طلاقة . وعنده أن باب الاجتهاد مفتوح في النحو كما هو مفتوح في التشريع ، وعلينا أن نيسر قواعده ، للدارسين والباحثين ، لأن اللغة ملك أبناء العروبة جميعا ، ونحن نريد بهم أن ينطقوها ويكتبوها في يسر : وقد كان الفقيد ينوى أن يتقدم إلى المجمع برسائل لتعلم النحو بطريقة تضمن تطهير العربية من اللحن ، ولا شك في أن هذا أملنا جميعا وغايتنا المنشودة .

وأما الدراسة الثانية فبيان لنشأة المصطلح الفقهي في الإسلام ، وأنه ضرب من الوضع أدى إلى تكوين مجموعات من الحقائق العرفية التي تتميز من الحقائق اللغوية — وتعرض الفقيد لتاريخ المصطلح الفقهي في المذهب المالكي ، مبيناً أنه نشأ في القرن الثاني على أيدى مالك بن أنس إمام دار الهجرة ، ووريث الحركة الفقهية النشيطة بالمدينة في عهد الصحابة والتابعين ، وقد عرف بمتانة السليقة وقوة الارتجال . وفى « الموطأ » قدر لابأس به من هذه المصطلحات توارثه تلاميذ مالك من بعده ، وغذوه وصقلوه : ثم أخذ المذهب المالكي ينتشر في أقطار مختلفة مما أدى إلى اتساع لغة التعبير الفقهي وتنوعها . وفى القرن الثالث وضع سحنون « المدونة » التي تشتمل على أربعين ألف مسألة ، وتعد الموسوعة الأولى في الفقه المالكي ، فزادت المصطلح وضوحاً وضبطاً ودقة : وجاء ابوزيد القيرواني ، فوضع في القرن الرابع عدة كتب ساعدت على الضبط والتحديد ، ولخص « المدونة » ، ففتح باب المختصرات التي شاعت في القرون التالية : ومن أهمها ما صنعه فقهاء مصر المالكيون كابن الحاجب والقرافي في القرن السابع ، وخليل في القرن الثامن . ولم يقنع هؤلاء الفقهاء بوضع المصطلحات ، بل عرفوها وجهدوا ما وسعهم في ضبط هذه التعريفات ، وانضم إلى هذا كتب القضاء والأحكام ، والوثائق والفتوى ، التي طبقت المصطلحات النظرية تطبيقاً عملياً ،

والوافر بهذا ثروة لغوية فقهية أفاد منها أساتذة الحقوق وعلماء القانون فى العصر الحاضر ، وعليها عولوا فيما ترجموا وألفوا . ويذهب الفاضل إلى أن للفقه المالكى خاصة شأنا فيما ترجم من كتب القانون من الفرنسية وإليها بشمال إفريقية فى المائة سنة الأخيرة .

ولانزاع فى أن الفقه كان أسبق الدراسات الإسلامية إلى تكوين لغته الخاصة ، وعنها أخذت دراسات إسلامية أخرى نشأت معه أو ظهرت بعده . وقد لوحظ أن فى النحو والمنطق مثلا ألفاظا يمكن ردها إلى المصطلح الفقهى : وحبذا لو عولج على هذا النحو المصطلح الفقهى فى المذاهب الأخرى وجمع فى قوائم ثابتة . وتتبع تطوره فى المراحل المتعاقبة ففى ذلك ما يعين على ربط المصطلحات الفقهية بعضها ببعض ، وما يمكّن من إحياء ما ينبغى إحياؤه منها .

٣ — الفاضل ابن عاشور احد رواد الاصلاح والتجديد :

وختاماً لابد لنا أن نقول كلمة عن الفاضل ابن عاشور المصلح ، ودعوة الإصلاح فى تونس قديمة العهد ، تصعد إلى أخريات القرن الماضى ، وتحذو حذو حركات النهوض فى العالم الإسلامى ، وفى مصر خاصة ، تتصل بجمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وجمعية العروة الوثقى ، وكان لهذه الجمعية فرع فى تونس ، يتلقى صحيفتها ويروج دعوتها وعلى رأسه الشيخ محمد السنوسى الذى طوف بالبلاد الإسلامية ، واتصل بكبار مفكريها ، وعد عنوانا لعصره فى الدعوة إلى النهوض والتجديد ، وكان على علاقة مستمرة بالأستاذ الإمام . ويوم أن عطلت جريدة العروة الوثقى سافر محمد عبده إلى تونس عام ١٨٨٤ . وأقام نحو أربعين يوما التقى فيها أعضاء العروة الوثقى من التونسيين ، وتبادل الحديث معهم فى شئون الإصلاح الدينى والاجتماعى وكان لزيارته أثر كبير ، وما إن سافر إلى بيروت حتى أخذت سلطات الاحتلال تنكل بأنصاره وبخاصة السنوسى .

وقد تهدأ دعوات الإصلاح أحيانا لكى تتفادى العاصفة ، ثم لاتلبث أن تستأنف نشاطها ، وفى عام ١٨٩٦ أنشئت الجمعية الخلدونية على هدى من تعاليم الأستاذ الإمام ، لنشر العلوم العصرية باللغة العربية من جغرافيا وتاريخ واقتصاد ، وعلوم طبيعية ورياضية . وأقبل عليها طلاب الزيتونة ورغبوا فى أن يمتد هذا التعليم إلى معهدهم ، واستجاب المسئولون لذلك . وأخذت حركة الإصلاح تقوى وتشتد ، متأسية بما كان يجرى فى مصر على أيدى محمد عبده وما كان ينشر فى « مجلة المنار » وغذاها فى أول هذا القرن شاب من طلبة الزيتونة والخلدونية ، غريب الشكل والنزعة والمنطق والقلم وهو عبد العزيز الثعالبى : عاش فى مصر زمنا ، ثم عاد إلى تونس يردد أفكار جمال الدين ومحمد عبده ، ويدعو إلى فهم الدين والوجود . وفى هذا كله ما دفع محمد عبده إلى أن يزور تونس مرة أخرى فى عام ١٩٠٣ ، قبل وفاته بعامين ، واهتزت لزيارته أندية العلم والأدب ، والتف حوله

رجال الإصلاح ، ومن بينهم شاب فى الرابعة والعشرين هو الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور والد الفقيد ، أطال الله بقاءه ، وكان من أبرز مدرسي الزيتونة ، شبابا وذكاء ، وعلما وأدبا ، وهذه الأستاذ الإمام سفير دعوته فى الزيتونة :

فى هذا الجو نشأ الفاضل ابن عاشور ، وربى فى بيت من بيوت شيوخ الإسلام ودعاة الإصلاح وكان طبيعيا أن يسير فى ركب أبيه . وفى سن العشرين أخذ يتصل بحركات الإصلاح ، فانغمس فى العمل بالجمعية الخيرية ، وارتبط بالجمعية الخلدونية ، وبدأ يحاضر فيها إلى جانب الشيوخ الكبار : واتصل أيضا بجمعية قدماء الصادقية ، وهى دعامة جديدة من دعائم الإصلاح فى تونس ، ربى أعضاؤها على أساس من الثقافة الفرنسية ، ولكنهم مالبثوا أن يمزجوها بالثقافة العربية ، وتلاقوا مع الخلدونيين فى الدعوة إلى الإصلاح . ولقد كان الفاضل مؤمنا بالحضارة الإسلامية الإيمان كله يراها حضارة تعتد بالإنسان كل الاعتداد ، وتقوم على دعامة روحية دون أن تهمل شأن المادة : وكان مليا إلماما دقيقا بأسرارها ، ومتفتحا لما فى الحضارة الغربية من جوانب نافعة. وكان همه أن يلائم بين هذين الطرفين وأن يبين أن تعاليم الإسلام لا تتعارض فى شيء مع النهوض الجاد والتقدم السليم: نفذ إلى روح الإسلام ، وأدرك فى وضوح رسالته الخالدة ، وأخذ ينشرها بلغة العصر ، فقرب المسافة بين القديم والجديد ، وربط الماضى بالحاضر : وحبب إلى الشباب الذين رأوا فى درسه ما تطمئن إليه قلوبهم ، وما تدعو إليه حاجة النهوض والتقدم :

أخذ بما ارتآه الأستاذ الإمام من أن النهوض الحق هو ماقام على دعائم ثقافية سليمة ، فعدل مناهج الدراسة بكلية الشريعة وأصول الدين : وما إن تولى رياسة الجمعية الخلدونية عام ١٩٤٥ ، حتى أنشأ بها معهد البحوث الإسلامية ، ونظم مؤتمر الثقافة الإسلامية عام ١٩٤٩ ، وكان مضرب المثل فى درسه وبحثه ، فى حديثه وكتابته ، لاتكاد تعرض مشكلة من مشاكل الحضارة إلا واجهها مواجهة تامة ، وقدم لها الحلول السليمة ، وجهد ما وسعه فى أن يوفق بين تعاليم الدين ومقتضيات الفكر الحديث : وكان يرى أن الثقافة الإسلامية إن فهمت على وجهها لم يبق محل للاختلاف عليها ، وهى خير وسيلة لجمع كلمة المسلمين وضم شملهم ، وقد أنفق جهدا غير قليل فى الدعوة إلى الإخاء والوحدة : وحدة المغرب الكبير ، ووحدة العالم العربي ، بل وحدة المسلمين عامة :

* * *

هذا هو الفاضل ابن عاشور الإنسان الذى أسر القلوب بإنسانيته ، والمسلم الصادق الذى وقف حياته على خدمة الدين ونصرته ، والفقيه الضليع فى فقهه ، واللغوى الحجة فى لغته. فقدناه ، ففقدنا مرشدا حكيما ، عرف كيف يحبب الناس فى دعوته : فقدناه ، ففقدنا طرازا من دعاة النهوض والتجديد الذين ليس من اليسير أن نجد من يخلفهم أو يحل محلهم . بكته تونس ، وبكته معها مصر أحر البكاء ، وبكاه كل من عرفه من أبناء العروبة والإسلام . تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جناته ، وألهمنا وآله الصبر والسلوان :

١٤ ــ طه حسين مكافحا (ديسمبر ١٩٧٣)

هناك أناس خلقوا للكفاح ، يستعذبونه ويستطيبون كل شئ فى سبيله . يرون فيه أداء للواجب وإرضاء للضمير ،وسبيلا ناجعا للنهوض والإصلاح ، ويضربون فيه مثلا للجرأة والشجاعة . « وطه حسين » مكافح مناضل ، تلك ظاهرة ملحوظة فى حياته كلها ، كافح فى صباه وشبابه ، كما كافح فى كهولته وشيخوخته ، وبرغم مرضه فى سنيه الأخيرة بقى قوله وفكره يحملان شارة الكفاح والنضال . كافح وناضل فى ميدان العلم والتعليم ، فى ميدان الأدب واللغة ، فى ميدان الوطنية والسياسة . وكلفه كفاحه ماكلفه من عنت ومشقة ، وجلب عليه ماجلب من خصومة وعداء ولا يخلو الكفاح أحيانا من غلو وشطط . وكان يرى أن الرجل ليس رجلا إذا استقامت له الحياة كلها ، فلم يكن له فيها خصم ، إنما الرجل كل الرجل هو الذى تستقيم له حياته كما يريد هو أن تكون وكما يريد ضميره القوى النقى أن تكون ، وكما يريد عقله الذكى أن تكون .

ويطول بنا الحديث إن وقفنا عند جوانب كفاحه المختلفة ،ويكفى أن نعرض نماذج منها. كافح فى صباه بعد أن فقد بصره ، وكأنما شاء أن يعوض ماحرمته الطبيعة منه ، فحفظ القرآن كله ولما يبلغ العاشرة . واستمر يكافح ليتزود علميا وثقافيا بأكمل زاد ، ويتسلح بأجود الأسلحة ، فالتحق بالأزهر وهوفى حدود الثالثة عشرة من عمره وتتلمذ على كبار الشيوخ حين ذلك أمثال الشيخ بخيت ، ومحمد العدوى ، ومصطفى المراغى ، وسيد المرصفى ، ولم يفته أن يستمع إلى آخر درسين ألقاهما الأستاذ الإمام فى الرواق العباسى . وكان يتابع دروسه صباحا ومساء ، لا يكل عملا ولا يدخر وسعا ، وقد عرف بين شيوخه بالجد والتحصيل ، وقوة الحجة والحذق فى الحوار والجدل ، وانتهى به جدله أن طرده شيخ الأزهر مع زميلين له ، ولم يعد إلى درسه إلا بعد أن شفع له لطفى السيد الذى رحب به فى « الجريدة » وشجعه ، وأخذ على عاتقه رعايته وتوجيهه .

وما أن فتحت الجامعة المصرية القديمة حتى طرق بابها ، وتابع دروس كبار أساتذتها ، فاستمع لأحمد زكى (باشا) ،وأحمد كمال (باشا) ،وإسماعيل رأفت (بك) ،ومحمد الخضرى، ومحمد المهدى بين المصريين ، ولجويدي وليتمان ، وسانتلانا من الأوربيين ولم ينقطع مع هذا عن الدروس الأزهرية ، وكان يستصحب أحياناً أستاذه وصديقه « سانتلانا » إلى درس الشيخ سليم البشرى فى التفسير ، ودفعه ولوعه بالجدل إلى أن يناقش بحضور الضيف الأجنبى الشيخ البشرى فى مشكلة الجبر والاختيار ، وكان له أيضا حوار وجدل مع بعض أساتذته فى الجامعة ، وأثار غضب الشيخ محمد المهدى الذى رفع أمره إلى مجلس الجامعة ، وطالب بفصله ودفعته دراسته الجامعية إلى تعلم اللغة الفرنسية ، ولقى فيها عنتاً كبيراً ولكنه لم يجودها إلا أثناء مقامه فى فرنسا وختم مطافه فى هذه الجامعة بتقديم رسالة « فى ذكرى أبى العلاء » للحصول على الدكتوراه،

ونالها بتقدير «جيد جداً» ، وكان يمكن أن يحصل على تقدير « فائق » لولا حفيظة الشيخ المهدى الذى لم ينس حملات تلميذه السابقة ، وما أن نشرت هذه الرسالة حتى أثارت ضجة ، واتهم صاحبها بالإلحاد والزندقة ووجه سؤال إلى الجمعية التشريعية يطالب بحرمانه من حقوقه الجامعية ولو لم يتدخل سعد زغلول : وكان رئيس الجمعية التشريعية حين ذلك ، لقضى على مستقبل الشاب النابه الجرئ .

ولم يقف طه حسين عند هذه الغاية ، بل تابع الكفاح وواصل الدرس والبحث فأوفدته جامعته إلى فرنسا فى أواخر عام ١٩١٤ تحت نيران الحرب العالمية الأولى وقضى فى مونبلييه نحو عام ثم اضطر للعودة إلى القاهرة بسبب ضائقة مالية ألمت بالجامعة الموفدة ولكنه لم يلبث أن عاد إلى فرنسا بعد شهرين ، واستأنف درسه هذه المرة فى باريس نفسها واتصل بكبار أساتذة « السربون » فى الاجتماع والتاريخ أمثال « دوركايم » ، « وليفى بريل » ، « وسينيوبوس » وأولع بالحضارة اليونانية والرومانية ، وبدأ فى دراسة اللغتين اليونانية واللاتينية وتمكن من الأخيرة بوجه خاص ، واستطاع أن يدرك فى يسر نصوصها ويستخرج منها مدلولاتها وتزود بزاد وفير من الأدب الفرنسى وفى عامين اثنين حصل على الليسانس فى الآداب وبعد ذلك بنحو عام أو يزيد تقدم برسالة فى « ابن خلدون » للحصول على الدكتوراه من جامعة باريس فتوافر له بذلك درجتان فى الدكتوراه ، إحداهما من القاهرة والأخرى من باريس ولم يبق إلا أن يعود إلى وطنه ليؤدى رسالته .

وقد عاد إلى مصر فى أواخر عام ١٩١٩ وسنه ثلاثون سنة بعد أن اكتمل نضجه العلمى والفكرى وبدأ نضالا طويلا واسع المدى متعدد الألوان عمر نحو أربعين سنة ، وعول فيه بخاصة على سحر الكلمة ، وسلطان العقل ، وبداهة المنطق . كافح داخل الدرس وخارجه ، فلم يستهن بدرس ألقاه ، بل كان يحفل له ما وسعه ، ويعده أكمل إعداد ، ولا أظنه ألقى درسا يوما دون إعداد . ولم يتهاون مع واحد من تلاميذه ، أخذهم جميعا بالجد ، وحاسبهم على أعمالهم فى غير هوادة وتخرج منهم على يديه جيل اعتمدت عليه حياتنا الجامعية والثقافية . وكان لمحاضراته العامة جمهور كبير يرقبها ، ويقبل عليها فى حماس . أخذ مستمعوه بأسلوبه . وفتنوا بنغمة صوته وحاكوه فى كثير من التعبيرات ، وكان لهذه المحاضرات صدى كبير لدى الخاصة والعامة . وفى عام ١٩٢٦ أخرج كتاب « الشعر الجاهلى » الذى لم يكن شيئا آخر سوى سلسلة من المحاضرات ألقاها بكلية الآداب ، وما إن ظهر هذا الكتاب حتى أثار حملة شعواء اختلط فيها الأدب بالسياسة فعارضه من عارضه على أعمدة الصحف ووضعت عدة كتب للرد عليه ومناقضته ، وقدم استجواب إلى مجلس النواب يرمى إلى محاكمة مؤلفه وطرده من الجامعة ولولا معارضة « عدلى يكن » رئيس الوزراء وهو من نعرف فى شخصه ومنزلته لكان لهذا الاستجواب شأن

آخر ولم تكد تسكن العاصفة فى البرلمان حتى هبت فى النيابة العامة، فحقق مع المؤلف وبحث أقواله وآراوه ولايبدو أنه وجد فيها ما يدينه واكتفى بمنع تداول كتابه فى الأسواق وبرهن طه حسين فى ذلك كله على صلابة ورباطة جأش بالغتين وخاض معارك فى جبهات ولم يمسسه منها سوء يذكر، بيد أنه لم تكد تمر هذه الأزمة حتى تلتها أزمة أخرى فى الجامعة كانت أشد عنفاً فعورض فى تعيينه عميدا لكلية الآداب وأجل إلى حين ، ويوم أن عين استمسك باستقلال الجامعة ودافع عنه بكل قواه، ولكن دكتاتورية « إسماعيل صدقى» لم تتردد فى أن تعدو على هذا الاستقلال ، فأبعدته عن عمله ، وأحالته على المعاش .

وكافح طه حسين أيضاً فى ميدان الصحافة، وصلته بها قديمة العهد، ترجع إلى أوائل هذا القرن. نشىء فيها على أيدى رائدين عظيمين هما : عبد العزيز جاويش ولطفى السيد ، فجمع بين التطرف والاعتدال ، ولعله كان إلى التطرف أميل ، وقد كتب أول ما كتب فى « مجلة الهداية » بتوجيه من « عبد العزيز جاويش » الذى وكل إليه أمرها . وشجعه على ماتتوق إليه نفسه من نقد جرىء وجدل عنيف . واضطر رائده هذا إلى أن يهجر مصر على غير انتظار، فلجأ إلى رائده الثانى وأفاد منه كثيراً. والحق أن الجريدة على قصر عمرها كانت مدرسة كبرى تخرج فيها طائفة من أعلام الفكر والقلم ، وكان لها أثر عظيم فى حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية والثقافية ؛ ونعتقد أنه لم يكشف بعد تماما عن أثرها فى اللغة وأسلوب الكتابة المعاصر ، فقد أتمت ما بدأه « رفاعة الطهطاوى » و « محمد عبده » من التخلص من السجع والجناس والمحسنات اللفظية ، وتخرج فيها طه ، وهيكل ، وعزمى ، ومنصور فهمى ، والزيات ، الذين كانوا قدوة فى الأداء الفنى السائغ السهل . وقد أخذ على طه حسين شىء من التكرار وبالغ فى ذلك خصومه ومنافسوه ، ولو كان فى وسعه أن يكتب لتفادى منه الكثير ، على أن هذه هنة هينة إلى جانب سلاسة أسلوبه وعذوبته ، ولعله تأثر فى هذه السلاسة بشىء من الأدب الفرنسى ، ولكن أسلوبه من أصفى الأساليب العربية المعاصرة ، ولا يحمل أى طابع أجنبى ، وهو أقرب ما يكون إلى أسلوب كبار كتاب الصدر الأول ، أمثال « عبد الحميد » ، و « ابن المقفع » و « الجاحظ » .

وبعد أن رجع فقيدنا من أوربا عاد إلى شرقه القديم ، واتصل بصحيفة « السياسة » ، وهى إلى حد ما امتداد « للجريدة » وأسرتهما واحدة تقريباً ، وفيها التقى «طه حسين» بزميله القديم «هيكل» واشترك معه فى إدارة الصحيفة ، وناب عنه أحياناً فى رياسة تحريرها . وكان له فى « السياسة الأسبوعية » مجال فسيح ، وكم كان قراوه ينتظرون فى شغف « حديث الأربعاء » الذى فتح أبواباً ثقافية متعددة، وقاد حركة نقدية حية نشيطة ، وكم نود أن نحييها . وإذا كان طه حسين ، قد كتب فى « الجريدة » ، و « السياسة » هاوياً ، فإنه بعد إحالته على المعاش أصبح محترفا ، وطلب إليه الوفد عام ١٩٢٣ أن يرأس تحرير صحيفة « كوكب الشرق » ، وأصبح يؤيد حزباً سياسياً طالما

تحاربه فى عنف ، غير أن تعاونه مع « حافظ عوض » ، صاحب امتياز هذه الصحيفة لم يدم طويلا واضطر أن ينفصل عنه ، وأن يشترى « صحيفة الوادى » ، وأن يديرها لحسابه الخاص نحو عام ، وكبدته خسائر فادحة . ثم قنع بعد هذا بمواصلة الكتابة للصحف هاوياً مرة أخرى فى بحوث ودراسات أدبية ، وربما كانت له علاقة منتظمة ببعضها « كالجمهورية » و « الأهرام » فى العشرينات الأخيرة .

وكافح طه حسين أخيراً فى ميدان السياسة ، وما أقساه من ميدان ! ورحم الله الأستاذ الإمام الذى قال فيه قولته المشهورة ولا أظن أن فقيدنا كان مذهبيا متحزباً تحزب التبعية والانقياد فيما أخذ به من اتجاهات سياسية ، وإنما هى تيارات ، أو بعبارة أدق صداقات جاراها يميناً تارة ويساراً تارة أخرى ، وما كان أشد تأثره بهذه الصداقات ، وما كان أسرع استجابته لها . وقد نال من هذه التيارات ما نال من صعود وهبوط ، وتقدير واستنكار ، وحظى بالغضب والرضا السامى فى لحظات متباعدة أو متلاحقة . وكان شأنه فى البداية شأن كل مواطن مستنير عاش فى جو الثورة العرابية وأدرك حركة « مصطفى كامل » ، فهو ينكر الاحتلال البريطانى ، ويطالب بالاستقلال .

وفى اتصال فقيدنا « بعبد العزيز جاويش » و « لطفى السيد » ما اجتذبه نحو السياسة ، كما اجتذبه نحو الصحافة ، على أنا لانلحظ له فى الحقيقة نشاطاً سياسياً واضحاً طوال مرحلة الدراسة والطلب ، لا فى مصر ولا فى فرنسا . ولم يبد هذا النشاط إلا يوم أن انضم إلى صحيفة « السياسة » ، واندمج مع أصدقائه الأحرار الدستوريين ، وحسب معهم . وانتهى به عمله الصحفى إلى الدخول فى مهاترات حزبية ما كان أغناه عنها ، وأثارها شعواء ضد الوفد والوفديين ولم يعف سعد زغلول من حملته برغم ما كان له من أياد عليه . ونتساءل هل اشترك فعلا فى التنظيم الداخلى لحزب الأحرار ؟ وهل عد من أعضائه ؟ أغلب الظن أنه كان مجرد صديق ومناضل خطير ناصر الحزب مناصرة كبيرة . ولم يختلف عن ذلك كثيراً يوم أن انضم إلى صفوف الوفديين ، وحمل رايتهم ، ودافع عن مواقفهم وأصبح أحد وزرائهم . وود كثير من أصدقائه أن لو عاش للأدب والثقافة وحدهما . وقد وصل فيهما إلى القمة وأحرز مجداً يزيد على مجد كثير من السياسيين وودوا بخاصة أن لو لم يغل فى المضمار السياسى ذلك الغلو الذى أساء أحياناً إلى مقامه فى الأدب وبين الأدباء .

وفى عام ١٩٤٠ دخل طه حسين مجمع اللغة العربية فى زمرة كريمة من قادة الفكر والرأى ، نذكر من بينهم «لطفى السيد » و «عبد العزيز فهمى » ، « والشيخ المراغى » ، « وهيكل » ، «ومصطفى عبد الرازق » . دخله وقد جاوز الخمسين ، وحق له أن يركن إلى شئ من الهدوء والراحة ؛ ولكن أنى له وسجيته الكفاح والنضال . وهكذا نراه يعنى بالتنسيق والتنظيم ، ويسهم فى كثير من اللجان . ويحاول جهده أن ينهض بالعربية لتلائم حاجات العلم ومتطلبات الحضارة ، ويدخل مع زملائه فى جدل محكم وحوار ممتع . اشترك على أثر دخوله فى مكتب المجمع الذى عهد إليه بتعديل اللائحة الداخلية . وكان همه أن يبرز فيها شخصية المجمع ، ويؤكد استقلاله .

وكم طالب بأن تكون له مطبعة خاصة . واقترح أن تضم إليه مطبعة دار الكتب بقسمها الأدبى ولا يزال المجمع يعانى من شئون الطبع ما يعانى إلى اليوم . وأراد « لمعجم ألفاظ القرآن » أن يقوم على

أساس من المنهج التاريخى ، وأن يسلك به ماسلك فى كتب العهد القديم ، وكان له فى ذلك حوار متصل مع الشيخ المراغى . ولا نزال نذكر ما كان بينه وبين زميله « عباس العقاد » من محاورات كانت تبعث فى جلساتنا نشاطا وحيوية ، وإذا حمى وطيسها تدخل فيها «لطفى السيد» فهدأت وسكنت .

وتحمس طه حسين لتيسير النحو تحمسا شديدا ، ورحب بالمشروع الذى بعثت به وزارة المعارف إلى المجمع ، ورغب فى أن يوضع له كتاب يوضحه ويطبقه ، وأعلن أنه مستعد أن يتولى بنفسه وضعه . ويوم أن يئس المجمع من إخراج معجم « فيشر » التاريخى ، اتجه نحو فكرة وضع معجم كبير ، وأبى طه المكافح إلا أن يضطلع بعبء التنفيذ . وهذه مهمة عشت معه فيها ، وزاملته فى تنفيذها . وأشهد أنه بدأ أولا فى رسم منهج هذا المعجم ، وقضى عدة سنوات يتابع إعداد قدر من مواده ، ويراجعها فى أناة وروية . واستطاع أن يخرج منها نموذجا فى نحو ٥٠٠ صفحة ، وقد دفع به المجمع إلى الباحثين والمتخصصين ، راجيا أن يوافوه بما يعن لهم من ملاحظات وتعليقات وكان هذا النموذج أساسا سار عليه المجمع فى إخراج معجمه الكبير . تلك أمثلة من جهوده المتصلة فى مجمع الخالدين ، وقد كنا نحس جميعا أنه بماضيه الحافل ركن ركين من أركان المجمع ، وأن رسالته وثيقة الصلة برسالته . ولقد كانت رحلته فيه خصبة طويلة ، بلغت ٣٣ عاما ، وهى أطول رحلة لمصرى من الخالدين .

هذا هو كفاح طه حسين ، ولا أظننى أغلو فى شئ إن قلت إن حياته كانت كفاحاً كلها ؛ كفاح فى الإعداد والتكوين ، وكفاح فى البذل والعطاء ؛ كفاح فى الأزهر ، والجامعة المصرية القديمة ، والسربون ، وتلاه كفاح آخر دام نحو خمسين سنة ، تعددت ألوانه وتنوعت سبله ، فشمل الصحافة والسياسة ، والأدب واللغة ، والعلم والتعليم ، والجامعات الجديدة ، ووزارة المعارف . لجأ فيه أحيانا إلى قارعة أو قنبلة يلقيها فيهز المشاعر ويستلفت الأنظار ، ولا شك فى أن كتاب «الشعر الجاهلى» من أولى هذه القنابل ، ثم جاءت مجانية التعليم الابتدائى والثانوى فى خاتمة المطاف وقد يكون من كفاحه ما ذهب مع الريح ، ولكن منه قدرا باقيا على الزمن . فهو دون نزاع من الأصوات القوية التى جهرت ، منذ أول العشرينيات الثانية من هذا القرن ، بضرورة فك الأغلال وتحطيم القيود الفكرية ، اعتد بحرية الرأى وتحكيم العقل ، استنكر التسليم المطلق ، ودعا إلى البحث والتحرى ، بل إلى الشك والمعارضة ، وأدخل المنهج النقدى فى ميادين لم يكن مسلما من قبل أن يطبق فيها . استن فى الكتابة والتعبير لونا عذبا من الأداء الفنى حاكاه فيه كثير من الكتاب ، واضحى عميد الأدب غير منازع فى العالم العربى جميعه .

وشاء القدر أن يختم حياته بكفاح مرير ، فبلى بعلة طويلة تحملها بصبر الصابرين وجلد المجاهدين سيداتى ، سادتى :

ليس على طول الحياة ندم ... ومن وراء المرء ما يعلم
يموت والد ويخلف مو ... لود وكل ذى أب يتيم

تغمد الله فقيدنا برحمته ، وجزاه عما قدم لأمته ولغته خير الجزاء .

١٥ ــ طه حسين المجمعى

قضى طه حسين فى مجمع الخالدين ثلث قرن تقريباً كان لى حظ مصاحبته فى معظمه، دخله فى نوفمبر من عام ١٩٤٠ ، وبقى به إلى أن لقى ربه فى نوفمبر من عام ١٩٧٣ . دخله فى زمرة من كبار الخالدين ، هم : لطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، ومصطفى المراغى ، ومصطفى عبد الرازق وهيكل ، وعلى إبراهيم ، والعقاد ، وأحمد أمين ، وعبد القادر حمزة ، عشرة كاملة يعدون حقاً فى مقدمة البناة والمشيدين ، دخله ولما يمض على إنشائه بضع سنوات ، فلم يكن قد استقر له عرف ولا اتضح له تقليد وشاء مع هذا الجمع الكريم أن يدعم أسسه ، وأن يعيد النظر فى خطة عمله . فوضعت له لائحة داخلية جديدة تعتبر نبراساً لما نسير عليه حتى اليوم ، وكونت لجانه المتخصصة . وأثيرت طائفة من المشاكل الكبرى التى تتصل بمتن اللغة ، ونحوها ، وتيسير كتابتها ، ورسم حروفها وبعثت فى المجمع حركة تحاول أن تنهض فى غير طفرة ، وأن تجدد دون عدوان على أصول اللغة . ولا شك فى أن هذه المرحلة فى تاريخ مجمعنا تعد بداية نهوض ملحوظ ، وفاتحة عصر ذهبى أسهم فيه طه حسين بعقله وقلبه ، بلسانه وقلمه ، بإيمانه وحماسه ، بحميته ونشاطه .

ولقد كان على بينة من نظم الهيئات والمجامع العلمية واللغوية الكبرى ، يسترشد بها ، ويأخذ عنها ، وكثيرا ما نوّه مع أستاذه لطفى السيد بالأكاديمية الفرنسية وما استقر لها من نظم وتقاليد . وكان جامعياً حقاً يؤمن بالبحث والدرس ، ويعول على التخصص ، ويعتد بالمتخصصين . فربط المجمع بالجامعيين وعزز الاستعانة بالأساتذة والخبراء . وأيد ما وسعه استقلال المجمع مالياً وإداريا ، وقد كان يوم أن دخله مجرد فرع من فروع وزارة المعارف يتبعها فى ميزانيته وموظفيه ، ولم يلبث أن أصبح هيئة مستقلة فى شئونها المالية والإدارية ، ولرئيسه فى ذلك سلطة الوزير . وفى مناسبتين متلاحقتين شاء أن يكون للمجمع مطبعة خاصة يشرف عليها وتضطلع بمطبوعاته ، وعرض عليه فعلا مطبعة دار الكتب مرة ، ومطبعة الكاتب المصرى مرة أخرى ، ولو أخذ مجمعنا بهذا العرض الكريم لتفادى كثيراً من صعوبات الطبع والنشر التى تصادفنا كل عام . وأملنا كبير فى أن تتوفر للمجمع مطبعة حديثة ملائمة فى مبناه الجديد ، وكم كان فقيدنا الكريم شغوفاً بأن يرى هذا المبنى الذى دعا إليه غير مرة ، ورأى فيه ما يحقق لمجمع الخالدين مظهراً من مظاهر مكوناته .

وطبق طه حسين لأول مرة سُنّة استقبال المجمعيين الجدد خير تطبيق. وتقضى هذه السنة بأن تعقد جلسة علنية يضطلع بها اثنان على الأقل : عضو قديم يستقبل باسم المجمع زميله الجديد ، ويتولى هذا الزميل الحديث عن العضو الراحل الذى حل محله ، وفى ثنايا الحديثين أدب وحكمة ، وعلم وفلسفة . ولطه حسين كلمات استقبال خالدة ، أولاها تلك التى استقبل بها صديقه عبد الحميد بدوى وقد انبعثت من القلب ، فنفذت إلى نفوس السامعين جميعاً . وتلتها كلمات أخرى ليست أقل روعة فى

أستقبال تيمور ، وتوفيق دياب ، والأستاذ توفيق الحكيم ، وفضيلة الشيخ الباقورى : والحق أن هذه الكلمات قطع من الأدب الرفيع ، ولوحات أخاذة تصور أصحابها تصويراً دقيقاً ، وتكشف عن بعض الأعلام فى حياتنا الحاضرة : وما أجدرها أن تنشر بين الناس ، وأن ينعم بقراءتها الطلاب والدارسون :

والخالدون دائماً بين استقبال ووداع ، « سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا » .وبقدر ما يحفلون باستقبال الوافدين ، يحرصون على أداء واجبهم نحو الراحلين . وقد اضطلع طه حسين بتوديع أربعة من الخالدين هم على التوالى : عبد العزيز فهمى ، وهيكل ، وعبد الوهاب عزام ، ولطفى السيد . عاشرهم جميعاً ، وعرفهم عن قرب ، فكان أقدر المجمعيين على الوفاء بحقهم . وكانوا فوق هذا من أحب الناس إليه . وأقربهم إلى قلبه . وإنا لنحس فى تأبينه لهيكل بحرقة الصديق ، وهو يتأسى بقول الشاعر .

لا يلبث القرناء أن يتفرقوا   ليل يكر عليهم ونهار

وفى تأبينه للطفى السيد ، وكان منه بمثابة الابن من أبيه يتأسى بقول آخر :

ليس على طول الحياة ندم   ومن وراء المرء ما يعلم
يموت والد ويخلف مولو   دوكل ذى أب يتيم

* * *

ويوم أن فكر المجمع فى الاتصال بجمهور المثقفين ، نظم سلسلة من المحاضرات العامة دعا إليها طائفة من العلماء والأدباء وأساتذة الجامعات ، وفتح فيها باب التعليق والتعقيب . وكان طبيعياً أن يفتتح طه حسين هذه السلسلة ، وتخير لحديثه « مشكلة الإعراب » ، وهى مشكلة شكا منها قديماً بعض الخلفاء والأمراء ، بله العامة والدهماء . وأشهد أن طه ، وقد سمعته كثيراً محدثاً ومحاضراً ، لم يقع فى لحن قط ، وإن لجأ إلى التسكين أحياناً.ولكنه سبق الاشتراكيين جميعاً فى الدعوة إلى مجانية التعليم ونشر الثقافة الشعبية ، وكان يشفق على النشء وشباب المتعلمين من فلسفة النحو وصعوباته ، وكثيراً ما دعا إلى تيسيره . وقد استجابت وزارة المعارف لهذه الدعوة ، ورغبت فى تذليل هذه الصعاب وفى عام ١٩٣٠ شكلت لذلك لجنة كان طه حسين أحد أعضائها ، وانتهت إلى طائفة من القرارات التى لا تمس أصلا من أصول اللغة .وحرصت الوزارة على نشرها بين العلماء والمتخصصين ولم تخل من نقد وملاحظة . وبعد عشر سنوات أو يزيد ، أحيلت على مجمع اللغة العربية الذى عنى بها عناية خاصة . فدرست طويلا فى لجنة الأصول ، ووقف عليها مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثمانى جلسات ملئت بالأخذ والرد ، والتحليل والتعليل ، وأبلى طه حسين فى شرحها وتوضيحها بلاء

حسناً ، ثم أقرها المؤتمر فى تعديل يسير . ودون أن أدخل فى تفاصيل هذه القرارات ، أود أن ألاحظ أنه ليس من بينها ما يؤدى إلى تغيير جوهرى فى أصول اللغة ، بل هى مجرد محاولة للتخفيف والتيسير ،وتنصب أساساً على تحديد ما ينبغى تقديمه لصغار الناشئين . ودعا المجمع إلى وضع كتب مدرسية على أساسها تحت إشرافه ، وأعلن طه حسين ، وهو المؤمن دائماً بما يدعو إليه ، أنه مستعد للاشتراك فى هذا التأليف . ومع هذا أهمل الموضوع مرة أخرى ،وبقى فى طى النسيان نحو ١٥ سنة . ولم يحرك إلا عام ٦١ دون علم المجمع أو عرض الكتب المدرسية عليه . وكم صارحنى طه ، رحمه الله ، أنه يخشى فشل التجربة ، لأنه لم يعد لها الاعداد اللازم ، وهذا ما حدث فعلا .

سيداتى ، سادتى :

هذا موقف من مواقف طه حسين الإصلاحية والمجمعية إزاء أمر آمن به ودعا إليه ، وله مواقف أخرى لا يتسع المقام لسردها ، ويكفى أن أشير إلى اثنين منها . ويتصل أولهما بالمصطلح العلمى ، وللمجمع فيه جهد عظيم ومتصل . وقد حاول المجمعيون فى البداية أن يضعوا بأنفسهم مصطلحات للحقائق العلمية المختلفة ، وربما لجأوا إلى بعض الألفاظ الغريبة والمهملة ، دون اعتداد باستعمال المتخصصين وما اصطلحوا عليه . وهذا ما أنكره طه حسين ، ودعا إلى البحث أولا عن استعمال أهل الفن والصنعة ، وللعلم لغة يعرفها أهله ، وواجب المجمع أن يستمع إليهم ، وأن يصدر عنهم ما دامت استعمالاتهم لا تتعارض مع أصول اللغة ، بل عليه أن ييسر مهمتهم وأن يفسح صدره لاجتهادهم . ولا بأس من التعريب إن دعت إليه ضرورة ،وبخاصة تلك الألفاظ التى ترجع إلى أصل لاتينى أو يونانى احتفظت به اللغات العالمية الكبرى ، والعلم لا وطن له .وهذا ما يسير عليه المجمع اليوم ، ومن الخطأ أن يظن أنه مصنع ألفاظ أو دار لوضع مصطلحات .

وكان طه حسين كبير الرجاء فى أن ينجز المستشرق الألمانى فيشر مهمته ،وأن يخرج « المعجم التاريخى » الذى تعاقد مع المجمع عليه . ولكن مع الأسف حالت الحرب العالمية الثانية دونه ومتابعة السير ،وعاجلته المنية بعد ان وضعت هذه الحرب أوزارها بقليل . فلم يكن بد من أن يتولى المجمع الأمر بنفسه ، وأن يعد له عدته ، ورأى أن يستبدل « بالمعجم التاريخى » ما سماه «المعجم الكبير» وألف له لجنة خاصة حرص طه حسين على أن يكون مقررها . وقد زاملته فيها ، ووقفت على ما أنفق فى سبيل المعجم الكبير من وقت وجهد ، ولم تصرفه الوزارة يوم أن اضطلع بأعبائها عن متابعة تأليفه ، وفى عام ٥٦ استطاع أن ينشر منه جزءاً فى نحو خمسمائة صفحة من القطع الكبير عده مجرد تجربة دعا المتخصصين فى اللغة من عرب ومستعربين إلى قراءتها ،وتسجيل ما يمكن أن يلاحظوه عليها . وقد رسمت هذه التجربة المنهج ، وحددت الغاية ،وكانت الدعامة الأولى لهذا المؤلف الطويل النفس . ولولا المرض لتابع طه حسين السير ، واستمر فى تحمل هذا العبء الثقيل .

* * *

تلكم نماذج من ثمار طه حسين المجمعى ، وسيبقى ذكره دائماً بين الخالدين .

١٦ ـ مع طه حسين

عشت معه زمنا غير قصير ، وإن لم أكن قد لقيته بعد ، يوم أن قامت معركة الشعر الجاهلى ، ويالها من معركة ! فقد كانت حامية الوطيس ، اشتبكت فيها جهات مختلفة ، وتألبت طوائف متعددة ، وهى ولا شك حدث هام من أحداثنا الثقافية فى بدء العشرينيات من هذا القرن . لم تقف عند الخاصة ، بل امتدت إلى العامة ، وكانت مثار حديث فى المجالس والأندية . وبلغت فيها الخصومة أشدها ، والحملة أقصاها ، إلى حد أن رمى صاحب الشعر الجاهلى بالخروج على الأدب واللغة ، بل على الدين . وإمعانا فى النكاية أثير موضوعه فى مجالسنا النيابية الناشئة ، وأريد أن يحاسب المسىء على إساءته ، وقيض الله للموقف حين ذاك وزيرا للمعارف انتصر لحرية الرأى أولا ، وترك للمتهم البرىء أن يدافع عن نفسه بلسانه وقلمه . وقد فعل ، وخلف لنا فى هذه القضية صحائف فيها أدب رفيع ، وحجة بالغة ، وجدل مفحم . وشاءت الأقدار أن يصبح خصم الأدب واللغة عميدا للأدب فى العالم العربى جميعه ، ووزيرا للمعارف ، ورئيسا لمجمع اللغة العربية . ويوم أن انتقل إلى جوار ربه عد بطلا شعبيا ، وسارت الأمة كلها وراء نعشه ، وخطر ببالى وأنا سائر فى جنازته ذلك التباين التام بين الأمس واليوم ، « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

والتقيت به لأول مرة فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد بهولندا عام ١٩٣٢ ، وكنت لا أزال طالبا بجامعة باريس . ورغبت فى أن أشهد هذا المؤتمر الذى شدت له مصر الرحال ، وأوفدت إليه جمعا كريما من رجال العلم والأدب ، وعلى رأسهم سفيرنا فى إنجلترا وهولندا ، ولا أظننا حفلنا قط بمؤتمر المستشرقين مثلما صنعنا تلك المرة ، وما ذاك إلا لأنا كنا نحمل إليه اقتراح « حروف التاج » التى عنى بها الملك فؤاد عناية خاصة . وكانت مظاهرة استلفتت نظر علماء الاستشراق على اختلافهم ، ولكن لم يعد صداها تلك اللحظات التى عرض فيها هذا الاقتراح . ومشكلة الكتابة العربية أوسع بكثير من « حروف التاج » ، وأشهد أن حديثى مع طه حسين لم يدر حولها مطلقا ، ولم أظنه كان مؤمنا بها . والذى تحدثنا فيه بخاصة هو ربط الثقافة الفرنسية بالثقافة العربية ، وشعرنا بحاجاتنا الماسة إلى شباب يجيد العربية والفرنسية معا ، كى يتم التبادل على وجه أكمل . وإذا كنا قد شعرنا بذلك فى أول العقد الرابع من هذا القرن ، فإنا نحس اليوم أنا لم نخط خطوات تذكر فى هذه السبيل ، بل بالعكس نحن فى ضعف زائد ومستمر .

وما أن عدت من بعثتى عام ١٩٣٥ حتى دعيت للتدريس بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، والتقيت بطه حسين للمرة الثانية ، وبقيت على اتصال به منذ ذلك التاريخ . وإذا كانت عضوية مجلس الشيوخ قد شغلتنى خمس عشرة سنة فيما بين عامى ٣٧ ، ٥٢ ، فإنها لم تصرفنى عن الحياة الجامعية

بحال . وأعتقد أن العقد الرابع من هذا القرن كان من أزهى عصور جامعة القاهرة ، تأكد فيه استقلالها ، واستقرت شيئا فشيئا تقاليدها . وكانت كلية الآداب بوجه خاص رائدة فى وضع هذه التقاليد ، ورمزا حيا لهذا الاستقلال : وقد أبلى فى هذا طه حسين بلاء حسنا ، وناصره أستاذه وراعيه منذ البداية لطفى السيد مدير الجامعة . ورغب رغبة أكيدة فى أن تكون آداب القاهرة ، وهو أول عميد مصرى لها : على غرار كليات الآداب فى الدول العظمى ، فإلى جانب اللغات الحية استمسك باللغات القديمة : شرقية كانت أو غربية ، كالسريانية والعبرية ، واليونانية واللاتينية ، واستعان على ذلك بالمختصين من الأجانب ، وأعد العدة للمستقبل بمن أوفدهم إلى الخارج من شباب الجامعيين للتمكن من هذه اللغات : ولاحظ أن المدرسة الثانوية القديمة لاتفى بحاجات النهوض والتقدم ، وليس فى خططها ولابرامجها مايمكنها من الإعداد للتعليم الجامعى ، وفكر فى أن تكون للجامعة مدارس خاصة تعد لها ، ولعل هذا هو الذى دفع إلى إصلاح التعليم الثانوى الذى تقرر عام ١٩٣٥ .

وكان مؤمنا الإيمان كله بأن العلم لا وطن له ، وأن الثقافة الإسلامية إبان نهضتها قامت على الأخذ والعطاء فى غير ما تحيز ولاتحزب ، « والحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها » : ولذلك سعى سعيا حثيثا فى أن يوفد إلى الخارج من أبناء كلية الآداب أكبر عدد ممكن ، لكى ينهلوا من حياض العلم والمعرفة : ولاشك فى أن هذا الرعيل من أبنائه وتلاميذه هو الذى تابع السير وحمل الأمانة إن فى الجامعة أو خارجها : وكم كان يعتز بمبعوثيه ويتودد إليهم ، ويحرص على أن يلقاهم إن مر بالبلد الذى يعيشون فيه : وما نشكو منه اليوم من فقر أو نقص فى التخصصات المختلفة ، إنما يرجع إلى أنا لم نلتزم هذه السياسة ، ولم نتابع السير فى هذا الطريق ، برغم توسعنا فى التعليم الجامعى : ذلك التوسع الذى يتطلب عدة أقوى وسلاحا أمضى : ورحم الله لطفى السيد الذى كان يقول : نحن فى حاجة ماسة إلى قيادات حازمة حكيمة ، والجامعة هى المكان الوحيد لإعداد هذه القيادات .

ولم يقنع طه حسين بمن أوفد من بعوث ، بل حرص على أن تحظى كليته بكبار المتخصصين الأجانب فى الدراسات الإنسانية على اختلافها : فدعا نفرا من الفلاسفة وعلماء النفس والاجتماع ، و من الأدباء وأساتذة اللغات القديمة والحديثة ، ومن المؤرخين والجغرافيين ، دعاهم لإقامة طويلة أو لزيارة مؤقتة : ومنهم من كان يخاطب طلابنا بلغتهم ، وأغلبهم كانوا يلقون دروسهم بالفرنسية أوالإنجليزية ، ولم يعز على هؤلاء الطلاب أن يتابعوا الدرس ، وأن يفيدوا منه : ويسوءنى أن أقرر أن عامة شباب اليوم لايقوون على ذلك ، وزادهم من اللغات الأجنبية جد ضئيل ، وليس فى وسع الجامعة أن تتدارك كل مافات المدرسة الثانوية : وما كان أشبه كلية الآداب حين ذاك بمؤتمر دولى يجمع بين الشرق والغربى ، بين الفرنسى والإيطالى ، بين الإنجليزى والألمانى ، وأريد بأقسام

اللغات الأجنبية خاصة أن تغذى بواحد أو أكثر من الأساتذة الناطقين بها الذين ربوا عليها ، وفقهوا أدبها وتاريخها . وربما نكون قد توسعنا فى هذا بعض الشئ أو لم نحسن الاختيار أحيانا ، ولكن لاشك فى أن هؤلاء الأساتذة الأجانب كانوا همزة وصل نافعة ، ومصدر غذاء جديد ، لهم علمهم وتجربتهم ، ومن الخير أن نفيد من مناهجهم فى البحث والدراسة . ويبدو أنا لانرحب الآن بهذا التبادل ولانشجع عليه ، وما أحوجنا إليه بالقدر الذى تتمسك به الجامعات الكبرى فى أوروبا وأمريكا :

* * *

تلك صور من مواقف طه حسين وآرائه ، وبعض جوانب من مظاهر نشاطه ، ومجال القول فيه ذو سعة . ولن يقف الحديث عنه عند مانكتب ونصور اليوم ، بل سيبقى مابقى أثره وإنتاجه :

١٧ ـ طه حسين ومشكلة النحو

أخذ طه حسين نفسه بضروب من الإصلاح والتجديد فى ميادين الأدب واللغة ، والتربية والتعليم ، وأنجز منها ما أنجز ، وعز عليه ما عز . وقد عاش مع النحو العربى منذ شبابه الباكر درسه مع أقرانه فى الأزهر تلك الدراسة الطويلة المتصلة ، وشغل به كثيراً وإن كان درس المرصفى فى الأدب أحب إلى نفسه . ثم أوفد إلى باريس ، وكان لابد له أن يدرس اللغة الفرنسية ، وأن يتعمق فى درسها ، وأضاف إليها شيئا من اللاتينية واليونانية . وأتاح له هذا أن يقارن بين نحو العربية وأجرومية بعض اللغات الأخرى ، وبخاصة أجرومية اللغة الفرنسية . وبعد أن عاد من بعثته إلى مصر استوقفته الخصومة الثائرة بين أنصار العامية ورجال الفصحى ، وأدرك ما للنحو من شأن فى ذلك ، وأحس بالضرورة الماسة إلى اصلاحه وتيسيره .

ولا شك فى أن النحو العربى حظى بعناية لم يحظ بها نحو فى لغة أخرى ، نشأ فى أخريات القرن الأول الهجرى ، ونما وتكون فى القرنين الثانى والثالث ، واستمر يبسط ويفصل فى القرون الخمسة التالية . تعددت مدارسه ، وتعاصرت أو تلاحقت ، تآلفت تارة أو تعارضت تارة أخرى تأثرت دون نزاع بما حولها من دراسات فى الفقه والكلام ، والمنطق والفلسفة ووضعت فى النحو كتب شتى : بين منظوم ومنثور ، بين متن وشرح ، وسما بعضها إلى مرتبة الأمهات كـ «الكتاب» «لسيبويه» و« الألفية» لابن مالك ، « والمغنى » لابن هشام . أولع به خاصة الخاصة ، فوقفوا عليه حياتهم ، وتفننوا فيه ما وسعهم . وامتد النحو إلى الدراسات الإسلامية الأخرى من فقه وكلام وأدب وبلاغة ، فاختلط بها وامتزج فيها . ونستطيع أن نقرر أن الدراسات النحوية كادت تستوعب النشاط الفكرى والثقافى فى المعاهد العلمية العربية الكبرى طوال القرون الستة الأخيرة .

وقد غلا النحاة فى فلسفة النحو كثيراً ، أو ما سمى ميتافزيقا النحو ، أولعوا بنظرية العلية وهى نظرية فلسفية فى أساسها ، وأسرفوا فى ذكر العلل وأنواعها ، واستخدموا العلة الواحدة فى إثبات الشئ وضده . ووقفوا طويلا عند نظرية العامل ، وهو ضرب من العلة . وتوسعوا فى «التوجيهات والألغاز »النحوية ، وعقدوا بعض القواعد التى يصعب استيعابها . ويقال إن الكسائى وهو شيخ الكوفيين ، مات وهو لا يحس «نعم وبئس » ، وأن تلميذه الفراء فارق الدنيا وفى نفسه شئ من «حتى» اللهم إلا إن كان من تحامل البصريين . على أنا لانزال نشكو حتى اليوم من العدد وتمييزه ، ولا النافية للجنس أو للوحدة ، ومن بابى التنازع والاشتغال .

ولم تسلم هذه الفلسفة وهذا التعقيد من النقد قديما ، فلاحظ ابن حزم أن «علل النحو فاسدة» ودعا ابن مضاء الأندلسي إلى إلغاء نظرية العامل ، ونشر كتابه « الرد على النحاة » عام ١٩٤٧ ،

وحرص طه حسين على أن يلقى عنه كلمة فى الدورة الثالثة عشرة لمجمع اللغة العربية ، معلنا أن فيه ما يؤيد وجهة نظره من ضرورة إصلاح النحو وتجديده . وسبق لابن تيمية أن خطأ سيبويه فى عشرات المسائل ، وخالف ابن قيِّم الجَوْزِيَّة فى كتابه « بدائع الفوائد » علماء النحو والصرف مخالفة صريحة .

ولم يكن بد لطه حسين أن ينكر هذه الفلسفة لأنها لا تلائم العصر ، ولا تتفق مع سياسة « التعليم للجميع » ، ودعا إلى إصلاح النحو وتيسيره على شباب المتعلمين . وشاءت الأقدار أن يقوم الدكتور بهى الدين بركات على أمر وزارة المعارف عام ١٩٣٠ ، وكان يلمس ما يكتنف تعليم اللغة العربية من صعاب ، فأمر بتكوين لجنة كان طه حسين أحد أعضائها لتيسير النحو واقتراح قواعد جديدة على ألا تمس أصل من أصول اللغة . ومضت اللجنة فى عملها ، وانتهت إلى طائفة من المقترحات التى تخلص النحو من فلسفته ، وتقدمه إلى النشء فى صورة سهلة ميسرة . والأصل فى الأجرومية أن تكون ذات طابع محلى تعليمى ، بعيد عن الفلسفة والتعمق ، والغموض والتعقيد . واستطاعت اللجنة أن تحذف التفاصيل التى لا داعى إليها ، وأن تقتصد فى المصطلحات وما أكثرها ، وصوبت إلى صميم القواعد النحوية من تكوين الجملة وأجزائها ، وهونت من أمر الإعراب ، وهو عقدة العقد ، وصدرت فى كل ما ذهبت إليه عن قواعد مقررة وآراء سابقة ، فلم تخرج — كما طلب إليها — على أصل من أصول اللغة ، ولم تغير فيما اتفق عليه النحاة إلا بمقدار ، وتخيرت من مذاهب القدماء أقربها إلى الفكر الحديث ، وأيسرها على الناشئين . وبدا النحو الذى اقترحته أشبه ما يكون بأجرومية بعض اللغات الحية كالفرنسية أو الإنجليزية . ومع هذا أبى التغيير الوزارى إلا أن تهمل مقترحاتها ، وأن تبقى مطوية فى وزارة المعارف عشر سنوات أو يزيد .

ولم تنشر إلا يوم أن أحيلت على مجمع اللغة العربية ليدلى فيها برأيه ، وقد عكف على درسها طويلا ، فتفرغت لها لجنة الأصول زمنا ، ووقف عليها مؤتمر الدورة الحادية عشرة ثمانى جلسات . ودافع عنها طه حسين فى صدق وإيمان ، أراد أن يسلك بها مسلك التنفيذ . فدعا إلى تكوين لجنة لتأليف كتاب تطبيقى لهذه المقترحات ، وأظهر استعداده للاشتراك فى هذه اللجنة ، بل ما كان يرفض أن يضطلع بالعبء وحده . ولكن وزارة المعارف لم تحرك ساكنا ، برغم توجيه نظرها مرة ثانية إلى قرارات التيسير فى مؤتمر الدورة الخامسة عشرة ، وبقى الموضوع فى طى النسيان نحو عشر سنوات أخرى :

وفى جلسة علنية من جلسات المجمع شاء طه حسين أن يعرض مشكلة النحو على جمهور المثقفين ، وقد دعت إلى ذلك وزارة المعارف من قبل . فألقى عام ١٩٥٥ بدار الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والإحصاء والتشريع محاضرة عنوانها « مشكلة الإعراب » ، وشهدها جمع من كبار العلماء والأدباء وأساتذة الجامعات . ودعا فيها إلى تيسير الكتابة وتيسير النحو معا ، وقال : « إن علم

النحو من أحب العلوم العربية إلى نفسى ،لأنى أجد لذة فى قراءة الكتب النحوية المعقدة—على مافيها من فلسفة وتعقيد — مثلما أجد عند قراءتى لشعر رائع لجرير أو لبشار» .ولكن «إذا كان هذا النحو مستحبا إلى الاخصائيين وإلى الذين يفرغون لمثل هذه الدراسات ، فمن الحمق كل الحمق أن يفرض على الشباب فى القرن العشرين» أقول من الحمق ومن الخطأ أن نأخذ عقول الشباب بتعلم هذا النحو والخضوع لمشكلاته وعسره والتوائه ، لأن ذلك لايلائم الحياة الحديثة ولاالتفكير الحديث : ولابد من تيسير النحو تيسيرا يتيح للشباب أن يتعلم العربية فى يسر وفى غير عنف : ولم يفته أن يشير إلى أن المشروع الذى أقره مجمع اللغة العربية يفى بهذا الغرض ، « وهو نائم فى وزارة المعارف منذ أعوام ، ولايزال نائما إلى الآن فى وزارة التربية والتعليم ينتظر من يوقظه » :

والواقع أن فى هذا المشروع تيسيرا ملحوظا ، فإنه يرى الاستغناء عن الإعراب التقديرى والمحلى ، وعن التفرقة بين علامات الإعراب الأصلية والفرعية،وعدها كلهاعلامات إعراب: وصرف النظر عن الضمائر المستترة وجوباً وجوازا ، وعد الضمائر البارزة المتصلة حروفا دالة على نوع المسند إليه أو عدده ، ولم ير ضرورة للنص على عائد الموصول : واعتبر التعجب ، والتحذير والإغراء ، ونحوها ، تراكيب تشرح على أنها أساليب ، دون وقوف عند تفاصيل إعرابها . واكتفى من الصرف بتصريف الفعل وصوغ مشتقاته ، وفى الاسم بالتثنية والجمع : ولاحظ طه حسين بحق أنه ليس فى"هذا"ما يغضب الله ورسوله"،"ولا مايضير لغة القرآن فى شئ" : وعندما أنزل القرآن لم يكن النحو موجودا ، "وقد تلاه المسلمون قبل أن يعرفوه ، ولايزالون يتلونه اليوم دون تفكير فى القواعد النحوية ، ويعدونه"فوق النحو والصرف معا ، والنحاة بصنعتهم هم الذين حاولوا أن يطبقوا قواعدهم على ألفاظ القرآن وجمله ، وربما عز عليهم ذلك أحيانا : ومشروع التيسير فى حقيقته لا يلغى علم النحو" القديم ، وإنما يكل أمره إلى الاخصائيين والمتفرغين ، ولهم أن"يكتبوا "فيه"ماشاءوا ، وأن" يبحثوا ويتعمقوا : "أما"النشء فرفقا به ، وحرصا على وقته وجهده ينبغى أن يعلم العربية من أيسر"سبيل" ، و نحن "نريد"له أن يتعلمها فى الحقل والمصنع ، "فى"القرية وفى المدينة على السواء" :

وحاولت فعلا وزارة التربية والتعليم عام ١٩٦١ أن تضع مشروع تيسير النحو موضع التنفيذ ، ومضت فى ذلك نحو عامين : فوضعت فى النحو كتب جديدة على أساسه ، ولم تعرض على المجمع كما كان متفقا عليه ، ولم يشترك فى وضعها أحد من أعضائه : وبدأ التلاميذ"يتعلمون النحو الميسر ، لافى مصر وحدها ، بل فى سوريا أيضا ، وكم كان طه حسين معنيا بهذه المحاولة ، تابعها عن قرب ، تمنى لها التوفيق ، وود أن لو استطاع أن يعززها ، ودفع زميل الشباب أحمد حسن الزيات إلى أن يساندها ولأمر مّا عدل عنها ،وأغلب الظن أن فريقا من المعلمين لم يتهيأ لتدريس النحو الميسر تهيؤ التلاميذ

لتعلمه ، ولنشهد اليوم شيئا شبيها بذلك فيما يتعلق بتدريس الرياضة الحديثة . وإذا كان فى الكتب التى وضعت عيوب ، ففى الإمكان تلافيها ، والمهم هو الإيمان بفكرة التيسير والعمل على مقتضاها :

والزمن يسير ، ولابد من متابعة سيره : ونحن لا نزعم مطلقا أن النحو وحده هو السبيل لتعلم اللغة وجل ما يراد منه أن يقوم الألسنة ويعصمها من الزلل . وأهم منه أن يتعلم الشباب اللغة نفسها ، يتعلمونها فى البيت والمدرسة ، فى لغة الخطاب والقراءة ، كما هو الشأن فى اللغات الحية الأخرى : يتعلمونها لا فى دروس النحو والبلاغة فحسب ، بل فى دروسهم جميعها . وواجب علينا أن نوفر لهم وسائل القراءة السهلة الممتعة فى أوقات فراغهم ، فنعد لهم من الكتب ما يتلاءم مع مراحل سنهم المختلفة . وفى كثير من المدارس الأجنبية مكتبة خاصة لكل فصل ، فيها ما يتناسب مع سن تلاميذه ، وهى موضوعة تحت تصرفهم يقرءون فيها أو يستعيرون منها ما يشاءون . وتلك قراءة مبعثها الرغبة لا الرهبة ، وهى من أقوى المؤثرات فى إتقان اللغة وإحسان العلم بها والتصرف فيها .

وفى صراحة ينبغى أن نجاهر بأن شبابنا بدءوا يستثقلون الفصحى ويبعدون عنها عاما بعد عام ، وعلينا أن نحببهم فيها ، وأن نقربها إليهم ، فنزيل منها الصعاب المتوهمة ، فضلا عن الحقيقية ، وإلا فقدنا الحولة وانقطع بهم الطريق : ولا نزاع فى أن النحو لغير المتخصصين ليس علما يقصد لذاته ، وإنما هو وسيلة من وسائل تقويم اللسان والقلم ، وجدير بنا أن نقف بهذه الوسيلة عند أضيق الحدود الممكنة . فندع جانبا فى تعليم النشء الألغاز النحوية ، والآراء المتشعبة ، والاستثناءات الكثيرة : ونقدم للتلاميذ قواعد مستقيمة لا لبس فيها ولا تأويل ، تقتصر على ضبط الحركات ، ولا تتعرض لما لا تتغير صوره . وقد قطعنا فى هذا السبيل شوطا ، وينبغى أن نتمه ، ولم تضق العربية ذرعا قط بأى تجديد أو إصلاح . ورحم الله أبا العلاء الذى قال ، وهو الغواص على دقائق اللغة ، لا يسخط عليك الله ولا المكان ، إذا كنت لا تدرى لماذا ضممت تاء المتكلم ، وفتحت تاء المخاطب .

١٨ — زكى المهندس (نوفمبر ١٩٧٦)

يعز على حقاً أن أقف الليلة مؤبناً لزكى المهندس ، فقد كنت معه بين عشرة من الخالدين ، دخلوا المجمع سوياً عام ٤٦ ، ثم رحلوا عنه الواحد تلو الآخر ، ولم يبق لى منهم سواه ، وها هو ذا قد جاء دوره ، فلم يتخلف ، وتركنى وحدى ، « وإنا لله ، وإنا إليه راجعون » .

وأبى هؤلاء العشرة إلا أن أكون المتحدث باسمهم فى حفل استقبالهم وإن كنت أصغرهم أو لأنى كنت أصغرهم ، فتحدثت فى الأمس البعيد باسم زكى المهندس يوم أن دخل المجمع وشاء القدر أن أتحدث عنه الليلة يوم أن رحل ، وما أعظم الفقد ، وما أقسى الحديث ! ويزيده قسوة أن زكى المهندس كان أوثق الزملاء صلة بى ، وأطولهم صحبة لى ، وأقربهم إلى قلبى . قضيت معه ثلاثين عاماً كاملة فى هذا المجمع ، نعمت فيها بزمالة كريمة ، كلها ود وإخلاص ، ورقة وعذوبة ، وسماحة ، وبشاشة لا مطمع فيها ولا مغنم ، ولا تنافس ولا تزاحم ، فلم نختلف يوما ما ، ولم تباعد بيننا الأحداث والتقلبات . وإن بدا شئ من التباين بين أبناء الأسرة الواحدة ، كان زكى المهندس همزة الوصل ، ونقطة الالتقاء ، ومبعث الرضى . اختلفنا مرة فيمن يكون نائب رئيس المجمع ، ويوم أن ذكرت اسمه زال الخلاف ، واتفق الجميع .

ويطول بى الحديث إن شئت أن أعرض لزكى المهندس المجمعى ، فقد كان مؤمنا الإيمان كله بأن العربية لغة علم وحضارة ، وأنها حية ومتطورة . وفى وسعها أن تسد حاجات العصر ومتطلباته ، وعلينا أن نيسرها فى مفرداتها وتراكيبها ، فى نطقها وكتابتها ، وأن نتوسع فى ألفاظها وأساليبها . وأشهد أنه من أنصار التيسير والتجديد ، لأنه كان يرى أن اللغة تعبر عن الحياة ، والحياة فى تطور مستمر . والعربية لغة طيعة مرنة ، قد اتسعت — وما زالت — لكل جديد ، وتصلح للتعبير عن كل مستحدث ، وحركة التطور مطردة ماضية متصلة ، تجرى إلى غاياتها فى سرعة وقوة .

وكان مؤمنا أيضا برسالة المجمع ، حريصاً على أدائها ، فأعطاه فى سخاء ، ووقف عليه جل جهوده فى سنين طوال « مرحلة النضج والخبرة التامة » ، مرحلة الشيخوخة الحكيمة المتزنة ، أعطاه علما وعملا ، توجيها ورأيا ، إشرافاً وإدارة . أسهم فى معظم لجانه ، وأولع بمجلسه ومؤتمره ، وندر أن تخلف عن جلسة من جلسات اللجان أو المجلس أو المؤتمر ، ولم تنقطع صلته قط باللجنة الإدارية التى ترعى نشاط المجمع وسير العمل فيه . وأشرف عدة سنوات على مجلة المجمع ، فجدد نشاطها ، ونوع غذاءها ، وحرص على أن تصدر فى مواقيتها ، واختير نائباً لرئيس المجمع عام ٦٤ ، وجدد انتخابه بعد ذلك ثلاث مرات . ووقف إلى

جانب المرحوم طه حسين رئيس المجمع فى سنى مرضه موقف الولاء والإخلاص . وألححت عليه بعد وفاته أن يقبل الترشيح لرياسة المجمع ، فاستعفى ، وأبى إلا يلقى العبء عن كاهله ، وأشهد أنه لم يضن علىّ برأى أو مشورة ، ولم يقصر فى عون أو مساندة .

* * *

هذا هو زكى المهندس الزميل والرئيس ، المشرف والإدارى ، أما زكى المهندس العالم والدارس فالحديث فيه طويل . وأكتفى بأن أشير إلى موقفه من ثلاث لجان من لجان المجمع كانت أثيرة لديه ، ارتبطت باسمه ، وحببت إليه ، وما أقساها من لجان ، وأعنى بها لجان : اللهجات وتيسير الكتابة ، والأصول .

ودراسة اللهجات ليست من الأمور الهينة ، فهى علم حديث النشأة يرجع إلى النصف الأخير من القرن الماضى ، ويتطلب ضرباً من الانتجاع والرحلة ، ولابد له أن يستعين ببعض الأجهزة والآلات ولم تعن به بعد الجامعات العربية العناية الكافية ، ومن حقنا أن نعول عليها أولا كى تمد اللغويين والمجمعيين بمادة يمكن أن يستخلصوا منها ما يستخلصون . وفى العربية لهجات قديمة وحديثة جديرة بالدرس والبحث ، وقد بذر البذرة الأولى لدراستها فى مجمعنا بعض زملائنا الأول . عرب ومستعربين ، ومنهم من كان يعد بين علماء اللهجات .

وأذكر أن الجارم حاول أن يدرس لهجة رشيد مسقط رأسه ، كما أخذ العقاد نفسه بدراسة لهجة أسوان ، ولفريد أبو حديد دراسة مفصلة فى اللهجة القاهرية . وحاول زكى المهندس أن يتابع هذا النشاط ، وأن يغذيه وينميه . فاتجه أولا إلى الجامعات ومعاهد الصوتيات ، لكى تعنى بدراسة اللهجات المعاصرة دراسة حقلية ، ولكننا لم نحظ منها حتى الآن برد يعول عليه . ولجأ ثانياً إلى كتب الأدب واللغة آملا أن يكشف فيها عن بعض اللهجات القديمة ، كعنعنة تميم وقضاعة ، وكشكشة أسد وربيعة . وبقى حريصاً على أن يكون للهجات درس وبحث فى المجمع ... برغم ما صادفها من صعاب ، وما أحوجنا فى هذا المضمار إلى دراسات ميدانية وبحوث متخصصة تواجه لهجات العالم العربى فى مختلف أرجائه .

واستوقفت مشكلة الكتابة العربية المجمع فى انعقاده الأول ، وأخذ يعالجها علاجاً متصلا منذ سنة ١٩٣٨ ، ووقف عليها دورة كاملة عام ١٩٤٤ لمناقشة مشروع الحروف اللاتينية الذى تقدم به عبد العزيز فهمى . وأعلن المجمع بعد ذلك بقليل عن جائزة محترمة فى مسابقة لتقديم أحسن اقتراح لتيسير الكتابة العربية ، وما إن أعلن عن هذه المسابقة حتى استجاب لها كثيرون ، وأربت المقترحات التى قدمت للمجمع على المائتين . وقدر لى أن أشترك مع زكى المهندس فى فحص هذه المقترحات ، ولم يكن من بينها مع الأسف ما حقق التيسير

المنشود ، واتصل عملي مع الفقيد الكريم في لجنة تيسير الكتابة العربية بانتظام .

والمشكلة في حقيقتها مزدوجة ، هي مشكلة قراءة وكتابة معاً ، وليس من اليسير أن يقدم لها حل يعالج الجانبين معاً. واتجهت اللجنة خاصة إلى معالجة مشكلة القراءة ، فأوصت بالتزام الشكل الكامل في كتب المرحلة الابتدائية ، وبشكل أواخر الكلم في كتب المرحلة الإعدادية ، وبشكل ما يتوقع خطأ التلميذ فيه في كتب المرحلة الثانوية ، ورحبت وزارة التربية والتعليم بذلك. وفي هذا ما ينشئ التلميذ على القراءة الصحيحة والنطق السليم . ودرست اللجنة في تفصيل صور الحروف والهمزات وعلامات الترقيم في صندوق الطباعة العربية ، ورأت الاكتفاء بصورة واحدة للحرف الواحد كيفما كان موضعه في الكلمة وخفضت صور الهمزة وعلامات الترقيم فهبطت بصندوق الطباعة العربية إلى ١٣٥ صورة ، واقترب كل القرب من صندوق الطباعة اللاتينية الذي تبلغ صورة ١١٥ .

ووضعت لذلك نموذجاً صادف نجاحاً ملحوظاً، وأخذ به كثير من دور النشر وسباك الحروف وكم كان زكي المهندس ، وهو أستاذ خط بقدر ما هو أستاذ أدب ولغة ، عوناً للجنة فيما انتهت إليه من صور وأشكال . ولا شك في أنا نقرأ اليوم أكثر مما نكتب، ولا تزال مشكلة الكتابة في حاجة إلى معالجة وتيسير ، وليتنا نقنع بخط الرقعة كتابة ، ونعرف كيف نمكن أبنائنا من تجويده .

وأما لجنة الأصول فهي لجنة التجديد والتطوير ، لجنة التشريع اللغوي إن صح هذا التعبير ، وواجب المشرع أن يلحظ الظروف والملابسات ، وأن يسعى جاهداً إلى سد حاجات العصر ومقتضياته .

ولجنة الأصول من أهم لجان المجمع ، بدأت تعمل في نشاط منذ دور الانعقاد الأول ، وأنتجت بعد بحث وتمحيص، واطراد إنتاجها دون انقطاع . واستطعنا عام ثلاث وستين أن نخرج ثمار هذا الإنتاج طوال ثلاثين سنة ، من الدورة الأولى إلى الدورة الثامنة والعشرين . أخرجناه في مجلد بعنوان : « مجموعة القرارات العلمية » ، ويقع في أربعة أبواب : أولها « في أقيسة اللغة وأوضاعها العامة » ، وثانيها « في الترجمة والتعريب وكتابة الأعلام » ، وثالثها « في وضع المعجمات والمصطلحات » ، ورابعها « في تيسير النحو والصرف والكتابة العربية » ، ويشتمل على ما يزيد عن ٢٠٠ قرار .

والتطوير في شد ومد دائماً بين تيارين متعارضين : تيار التيسير والتجديد، وتيار الجمود والمحافظة. وربما طغى أحدهما على الآخر. وللمجمعيين حوارهم وجدلهم . وقد تنزع مناقشاتهم أحياناً منزعاً نظريا ، وتسمو عن قصد أكاديمية ، فتنسى الملاءمة بين الماضي والحاضر وتعجز عن سد الحاجة ، وتبطئ بالنهوض المنشود . عاش زكي المهندس ١٥سنة أو يزيد رئيساً للجنة الأصول في هذا الجو

وتحت ضغط هذا التقابل، وقد واجهه فى حضور بديهة وسرعة خاطر ، فى مهادنة ومسالمة ، فى صبر وجلد نادرين . وكثيراً ما امتد بحث الموضوع الواحد فى هذه اللجنة شهراً أو شهرين، تقدم فيها البحوث تلو البحوث، وتثار وجهات النظر المختلفة ، فكان المخاض عسيراً والوصول إلى قرارات غير يسير . ومع هذا استطاعت أن تخرج فى هذه المدة مجلدين متلاحقين « فى أصول اللغة » ظهر أولهما عام ٦٩ ، وثانيهما عام ٧٥ ويشتملان على أعمال ١٤ دورة من دورات المجمع ، وفيهما ما يكشف عما بذل فى سبيلهما من جهد صادق وعمل دائب، أشرف عليه زكى المهندس ورعاه . فيها عود على بدء وتدارك لبعض ما فات ، أو تيسير وتجديد فى أقيسة اللغة وأوضاعها ، وفى بعض الألفاظ والأساليب العربية والمعربة .

رحم الله زكى المهندس بين العاملين الأبرار ، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ، ورحمه الله بين المخلصين الأوفياء ، والسلام عليكم ورحمة الله .

---

١٩ — جميل صليبا بين رواد الفكر الفلسفى المعاصر (١٩٧٦)

عرفته زميلا كريما ، وأخا صادقا ، عف اللسان ، حلو العبارة ، صافى الطويّة ، لا يتكلم إلاّ عن بينة ، ولا يعرض لما لا شأن له به . وعرفته أيضا باحثا مدققا ، وأستاذا فاضلا ، أحب تلاميذه وأحبوه . يؤثر الدرس والبحث على كل ما عداهما ، أولع بهما ، ووقف عليهما حياته ، طابت نفسه لقاعة الدرس ، فأعطى فيها أجزل العطاء ، علم وشرح فى أكمل عبارة وأوضح بيان .واطمأن قلبه لصومعة البحث ،فقضى فيها الساعات تلو الساعات ، ووجد فيها سعادة لا تعادلها سعادة . واستطاع أن يغذى المكتبة العربية بغذاء وافر . ويعنينى أن أقف قليلا عند جميل صليبا الباحث والفيلسوف ..

ولا سبيل إلى بحث أو فلسفة حقة إلا فى جو من حرية الفكر والقول ، وفى عصور القهر والغلبة تختفى الفكرة الحرة ، وتتضاءل وراء صيغ معقدة وعبارات غامضة . ومنذ القرن الرابع عشر الميلادى طغت على العالم العربى ظلمة قاتمة ، ضاق فيها الفكر والأفق ، فكثر المحرم ، وقل المباح ، وأجدبت العقول ، وأغلق كثير من معاهد العلم الكبرى ، وما بقى منها ظل يتحرك فى نطاق ضيق . وكانت الدراسات الفلسفية أول المحرمات ، حاربها من حاربها وأنكرها من أنكرها ،واتهم دارسوها بالإلحاد والزندقة . وإذا كانت العلوم قد قسمت فى العهود الأخيرة إلى منقول ومعقول ، فإن الأخيرة منها ما كانت تصدق إلاّ على علوم البيان والبلاغة والبديع ،والمنطق ، وآداب البحث والمناظرة ،على أنهم قالوا : من تمنطق فقد تزندق .

وفى القرن التاسع عشر ، هب نسيم الحرية ، وبدأنا نعود إلى أنفسنا ، نفكر فى استقلال ، وننظر فى أفكار غيرنا . ولا شك فى أن الحملة الفرنسية كانت القبس الذى انبعث منه أول شعاع للبحث والتجديد . وتلتها حركات استقلالية ر ت إلى العرب ثقتهم بأنفسهم ، ودفعتهم إلى التسلح بسلاح العلم الحر الصريح . وصاحبها وعى حيّ يقظ يطالب بالنهوض والتقدم ، ويسعى إلى إحياء مجد الماضى ومتابعة سير الحاضر . وعزز ذلك كله دعوة إلى التحرر الفكرى حمل رايتها نفر من المصلحين على رأسهم جمال الدين الأفغانى (١٩٢٠) . وتلاهم تلاميذ وأتباع لهم مخلصون كان لهم شأن فى الحركة الفكرية فى القرن العشرين ، ويمكننا أن نذكر من بينهم لطفى السيد ، ومصطفى المراغى ، وكرد على ، ومصطفى عبد الرازق ، وطه حسين ، وأحمد أمين .

* * *

فى هذا الجو نشأ جميل صليبا ، وتربى تربية عربية صافية ، تزود بزاد وفير من علوم اللغة وآدابها ، ونهل من حياض الثقافة العربية على اختلاف ألوانها . ولمح فيه كرد على آيات النجابة والجد فى التعلم والتحصيل ، فأوفده فى بعثة إلى باريس . وهناك جوّد لغته الفرنسية ، واستكمل

درسه واتجه بخاصة نحو الفلسفة الإسلامية. وكأنما أحس بأن حركة الاستشراق آخذة فى الأفول، وأن المستعربين إذا كانوا قد خدموا التراث الإسلامى فى القرن الماضى، وأوائل هذا القرن فإن على العرب أن يضطلعوا بالعبء معهم، وأن يسهموا فى هذا المضمار. وراقه الفكر الفلسفى الإسلامى، فتخصص فيه، وتعمق فى درسه، ووقف عليه الخمسين سنة الأخيرة من حياته. قضاها باحثا ومعلما، مؤلفا ومترجما، محققا وناشرا. وخطا بالبحث الفلسفى خطوات فسيحة، لا فى سوريا ولبنان وحدهما، بل فى العالم العربى جميعه. وأسمعوا إليه يقول: لما بدأنا تعلم الفلسفة فى العقد الثالث من القرن العشرين لم يكن بين أيدينا فى اللغة العربية إلا عدد قليل من الكتب: مثل كتاب أصول الفلسفة لأمين واصف، ومبادىء الفلسفة لأحمد أمين، وتاريخ الفلسفة لمحمد بدر، ولكنا حين أخذنا نعلم الفلسفة فى المعاهد الثانوية والجامعات، ازداد عدد المؤلفات والمقالات الفلسفية حتى غمرت المطابع والصحف الأسبوعية والمجلات الشهرية. وقد أسهم جميل صليبا فى هذا المضمار إسهاما كبيرا.

وسبق له أن تقدم فى عام ١٩٢٦ إلى جامعة باريس ببحث باللغة الفرنسية للحصول على درجة الدكتوراه، وكان موضوعه: «دراسة فى ميتافزيقا ابن سينا» والعنوان وحده كاف فى الدلالة على دقة البحث وعمقه، والبحوث الميتافزيقية كانت ولا تزال من أعمق الدراسات الفلسفية. وهو على كل حال معالجة جادة لأول مرة لجانب من جوانب فلسفة ابن سينا، ألم فيها بموضوعه إلماما مستوعبا. وجاء دون نزاع باكورة من بواكير المعاصرة فى دراسة الفكر الفلسفى الإسلامى باللغة الفرنسية. ولم يسبقه إلا رسالة أخرى باللغة نفسها قدمها طه حسين عام ١٩١٧ للحصول على الدكتوراه أيضا من جامعة باريس، وكان موضوعها: «دراسة نقدية وتحليلية لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية». ولا تزال رسالة جميل صليبا مرجعا يشار إليه فى موضوعه.

ثم توالى درسه وبحثه، فلم يقم مهرجان فلسفى، ولم تجىء ذكرى لفيلسوف عربى إلا وكان لجميل صليبا فيهما قول وإسهام. ففى عام ١٩٥٢ أقيم ببغداد مهرجان للذكرى الألفية لابن سينا، وكان لفقيدنا فيه بحث قيم حول «نظرية الخير عند ابن سينا». وفى عام ١٩٦٢ نظمت هيئة الدراسات العربية فى الجامعة الأمريكية ببيروت ندوة حول: «الفكر الفلسفى فى مائة سنة». فأمدها جميل صليبا ببحث موضوعه: «الإنتاج الفلسفى: الفلسفة عموما وفلسفة العلوم» وفيه نقد وتحليل وتصوير واضح للتيارات الفلسفية فى العالم العربى أبان المدة المحدث عنها. وله بحوث أخرى فى الصحف والمجلات لا يتسع الزمن للحديث عنها.

ولم يقف جميل صليبا عند البحث والتأليف، بل عنى أيضا بالترجمة والتحقيق، فترجم كتاب المقال لديكارت، على غرار ما صنع معاصر له بالقاهرة هو المرحوم محمود الخضيرى. ونشر مع زميله الدكتور كامل عياد أطال الله بقاءه كتاب المنقذ من الضلال للغزالى. وأخرج لنا تلك التحفة النادرة المفردة إلى إخوان الصفاء فى جزأين، وهى الرسالة الجامعة.

وإذا كان باحثنا قد عنى خاصة بالدراسات المتخصصة فإنه لم يفته أن ييسر الأمر على أبناء المدارس الثانوية ، فأخرج لهم عام ١٩٧٠ كتاب الفلسفة العربية ، وهو من آخر مؤلفاته . وقد لاءم بينه وبين المنهج اللبنانى ، وفيه نفع لطلاب الفلسفة بوجه عام . روى فيه ما وسعه ، وسلك فيه مسلكا واضحا ، يعرف بالمفكر أو الفيلسوف أولا ، ثم يعرض آراءه فى بسط وتفصيل ويحرص على أن يقدم مختارات من عباراته وأقواله . وهذا الكتاب ولا شك من أغزر الكتب المدرسية وأنفعها .

وشغل فقيدنا منذ زمن بالمصطلح الفلسفى ، لأنه لمس «أن المصطلحات الفلسفية المترجمة عن اللغات الأجنبية لا تخلو من اللبس والغموض ، وكل مؤلف يختار من الإصطلاحات ما يرضيه : حتى إنك لتجد للمعنى الواحد عند بعض المؤلفين ألفاظا مختلفة ، أو تجد للفظ الواحد عدة معان وقد أخذ نفسه بمواجهة هذا النقص ، وقدم فى مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق سلسلة متصلة من الدراسات حول المصطلح الفلسفى فى ماضيه وحاضره . وشاء أخيرا عام ١٩٧١ أن يجمع ذلك فى معجم فلسفى ضخم يقع فى جزأين وفى نحو ١٥٠٠ صفحة ، ويشتمل على ما يزيد على ١٠٠٠ مصطلح ، جمع فى كل واحد منها بين العربية والفرنسية والإنجليزية ، وشرحها شرحا مقبولا فى جملته . وهو أميل إلى الدراسات الموسوعية منه إلى قوائم المصطلحات المختصرة.

* * *

ذلكم هو جميل صليبا الباحث والفيلسوف ، درس وعلم ، بحث وأنتج فى مرحلة كان فيه البحث الفلسفى فى بدايته . فغذاه بغذاء كامل : دعا إلى نشر النصوص القديمة ، لأنها الأساس الذى يبنى عليه كل درس أو بحث . وقال بترجمة الأمهات عن الثقافات الأخرى ، وإذا كنا قد عنينا بالنشر والتحقيق فى الثلاثين سنة الماضية فإنا لم نعن العناية الكافية بالترجمة . وأخذ جميل صليبا نفسه بالبحث والتأليف ، وسلك فيه مسلكا واضحا يربط الجديد بالقديم ، ويرد الأشياء إلى أصولها ، ويدلى بأحكام لا غلو فيها ولا تفريط . ومنح المصطلح الفلسفى عناية كبيرة ، وحياة كل دراسة فى أن تسلم لغتها من الخلط واللبس . واستحق بهذا كله أن يكون رائداً من رواد الفكر الفلسفى العربى المعاصر .

٢٠ ــ أنيس المقدسى المجمعى (مارس ١٩٧٧)

سيداتى ، سادتى :

لقد فقدنا شيخاً من شيوخ الأدب واللغة ، ورائداً من الرواد الأول هو الأستاذ أنيس المقدسى :

والموت نقاد على كفه   جواهر يختار منها الجياد

فقدناه قبيل مؤتمرنا ببضعة أيام ، وقد كان حريصاً دائماً على أن يشترك معنا فيه بنفسه ، أو بما يقدمه من بحث ودرس . حظينا بزمالته منذ عام ١٩٦١ ، وطوال خمس عشرة دورة من دوراتنا المتلاحقة لم يتخلف إلا عن دورة واحدة ، هى الدورة الأخيرة التى حالت أحداث لبنان الأليمة دونه والاشتراك فيها . فى أربعة عشر مؤتمراً أسهم بأربعة عشر بحثاً ، فيها عمق ودقة ورأى وتوجيه . والمقدسى باحث طويل النفس ، يصدر عن خبرة واسعة وزاد وفير ، فيفصل القول فيما يعرض له ويحلله ، ويؤيده بشواهد وأسانيد ، يستمسك بالماضى ويعنى بالحاضر ويؤاخى بينهما ، ويمهد بهما للمستقبل. وكان على شيخوخته وكبر سنه أميل إلى الابتكار والتجديد . وتكاد تنقسم بحوثه الأربعة عشر قسمة متعادلة بين الأدب واللغة :

ومن بحوثه الأدبية الموجهة محاولته ربط التاريخ بالأدب ، وهى محاولة ما أجدرنا أن نفيد منها وأن نتوسع فيها . وقد تخير لها مثلا رائعاً هو «رسائل ابن الأثير » التى عاش معها زمناً طويلا ، وقد شاء بحق أن يستخلص منها قدراً من تاريخ الدولة الأيوبية السياسى والاجتماعى . وابن الأثير وثيق الصلة بالأيوبيين ، ومن أعرف الناس بأسرارهم ودخائلهم .

وللمقدسى دراسة أدبية أخرى وصفية وتحليلية عن الشعر الغنائى ، وبواعثه فى الشرق والغرب فيما بين القرن التاسع عشر والقرن العشرين . والشعر الغنائى من أوسع أبواب الشعر المعاصر. وجدير بأن نقف عنده وأن ندرسه وزناً وقافية ، هدفاً وموضوعاً .

وفى آخر حديث له معنا يعرض فى إسهاب « للشعر الحر » ، وهو من مستحدثات الأدب المعاصر ، وقد أدلى فيه بآراء إن دلت على شىء فإنما تدل على أن ابن التسعين يبدو أفسح صدراً ، وأقل تزمتاً من ابن العشرين .

وأما بحوثه اللغوية فيعالج فى بعضها المولد والدخيل فى لغتنا المحلية ، وفى معاجمنا الحديثة ، ويبرهن على أن اللغات يأخذ بعضها عن بعض ، وقد أعطت العربية بقدر ما أخذت . وفى بحث آخر مسهب يسجل المقدسى ما أخذته الإنجليزية عن العربية قديماً وحديثاً . ومتى تبنت لغة لفظاً أجنبياً أصبح ملكاً لها ، وتصرفت فيه تصرفها فى ألفاظها الأصلية .

وفى بحث طريف يعرض فقيدنا لأثر الزمن فى اللغة . وهو يرى أن اللغة ، وإن كانت ملكة إنسانية ، لا تخضع للإنسان وحده ، بل تؤثر فيها عوامل شتى ، أخصها الزمن ، تسير بسيره وتتطور بتطوره ، وقد فرقنا بين أدب جاهلى ، وأدب إسلامى ، وآخر عباسى . ولا يقف تطور اللغة عند كسب ألفاظ وتعبيرات لم تكن معروفة ، بل الألفاظ نفسها تأخذ دلالات جديدة . ونقلا عن ابن قُتَيْبة ، يقدم المقدسى نماذج من ذلك ، كلفظ « الطرب » الذى كان يدل أصلا على خفة تصيب الإنسان لشدة الفرح أو لشدة الجزع ، ثم قصر على الفرح ، وكلفظ « المأتم » الذى كان يدل على اجتماع النساء فى الخير والشر ، ثم أريد به المصيبة والوفاة لاغير . ولا شك فى أن المعاجم التاريخية تكشف عن تطور المدلولات على مر الزمن . ويرى المقدسى أن من الظلم أن ترمى العربية بالجمود . وهى بالعكس حية ومتجددة ، متجددة فى ألفاظها وأساليبها ، متجددة فى معانيها ومدلولاتها .

والمقدسى ، وقد عاش معنا خمس عشرة سنة ، وقف على جهود مجمعنا وأسهم فيها — ويرى أنها تدور حول بابين : الوضع والإفتاء ، فأخذ المجمع على عاتقه وضع معجم كبير ، يجمع بين دفتيه ما حوته أمهات المعاجم القديمة ، مضافاً إليها ما تولد على توالى الأجيال من ألفاظ اقتضاها تطور الزمن وتقدم العلوم وأساليب الحضارة فى العالم العربى ، وهذا عمل طويل النفس وإلى جانبه معاجم فرعية لسد حاجات أهل العصر من أدباء وباحثين ، نذكر من بينها : « معجم ألفاظ القرآن » ، و « المعجم الوسيط » .

وأما الإفتاء فى مسائل اللغة ومشاكلها ، فهو عند المقدسى أهم وأعون على تجديد حياة اللغة والسير بها إلى الأمام . وفى رأيه أن مهمة الإفتاء هذه لم تفت أعضاء المجمع فى كل عهد من عهوده ، فهم يعنون بمشاكل اللغة وقواعدها ، ويهتمون بما يتطلبه التقدم من تعديل بعض وجوهها ، أو إكمال نقصها .

هذه بعض جوانب أنيس المقدسى المجمعى ، والحديث فيها طويل ، جزى الله فقيدنا خير الجزاء عما قدم لأمته ولغته .

٢١ ـ كامل حسين الأديب (أبريل ١٩٧٧)

رحم الله كامل حسين بين الخالدين الأبرار، ورحمه الله بين الزملاء الأخيار ورحمه بين الأصدقاء الأوفياء. ولقد عرفته منذ نصف قرن أو يزيد، وعرفته أديبا قبل أن أعرفه عالماً وطبيبا وهذه هي الناحية التي أود أن أقف عندها قليلا، عرفته من خلال صحيفة أحدثت ما أحدثت من حركة في حياتنا الأدبية والفكرية وأعني بها «السياسة الأسبوعية» وكان يسهم فيها مع قادة النهضة الأدبية المعاصرة حين ذاك، أمثال الدكتور هيكل وطه حسين. واختار لنفسه اسما مستعارا هو «ابن سينا». وسألت عن «ابن سينا» القرن العشرين، فقيل لي إنه طبيب شاب حصل على بكالوريوس الطب ولما يجاوز الثانية والعشرين. وما إن أمضى سنتي الامتياز بطب القاهرة حتى أوفد في بعثة إلى انجلترة، ومن هناك كان يراسل «السياسة الأسبوعية» وينشر فيها بواكير إنتاجه الأدبي. ولم تقف مقالاته عند الطب والصحة العامة، بل امتدت إلى «اللغة» و«البحوث الأدبية»، ولو سمي نفسه «ابن المقفع»، أو «عبد الحميد» ماعز عليه.

وجمعتني وإياه مجالس لطفي السيد، وكم كانت ملأى بالأدب والحكمة، بالعلم والفلسفة، بالتوجيه والإصلاح. وتمر بنا أمور لها شأنها، وقل أن نفكر في تسجيلها مع أنها من ذخائر الماضي وعدد المستقبل. وما أشبه مجالس لطفي السيد بمجالس «الإمتاع والمؤانسة» وإن لم تجد بين المعاصرين من يعنى بها، كما صنع أبو حيان التوحيدي. وكان صوت كامل حسين في هذا المجلس مسموعا، وكلامه عذبا ـ وتعليقه واضحا، ونقده سمحا وكلنا يعرف منزلته بين العلماء والأطباء، ومع هذا كان حديثه في تلك المجالس يدور غالبا حول الأدب واللغة، والإصلاح والتجديد ولا أزال أذكر مجلسا منها عقد بقاعة لطفي السيد في نادي محمد علي ـ نادي التحرير اليوم ـ على أثر ظهور قصة أديبنا الخالدة: «قرية ظالمة» وكان بين من شهدوا هذا المجلس عبد الحميد بدوي، وبهي الدين بركات وما كان أشبهه بحفل تكريم منه بمحاكمة أدبية، وإن لم يخل من تندر رقيق وخشية وتوجس من أن تثير القصة بعض رجال الدين وقد سبق للحاضرين جميعا أن قرءوها، وقدروها قدرها، وكأنهم كانوا يتوقعون ما ستحظى به من إعجاب وتقدير لدى كبار الكتاب والمثقفين.

وتوثقت صلتي به يوم أن اختير عضوا بمجمع اللغة العربية عام ١٩٥٢ وسعدت باستقباله وقلت فيه حين ذلك: قل أن نجد من يقبل على الثقافة إقباله، ويحب القراءة حبه، فلا تكاد تذهب إلى محاضرة عامة في علم أو أدب أو فلسفة، إلا وتراه في مقدمة المستمعين. ولا يكاد يظهر كتاب قيم في العربية أو الإنجليزية أو الفرنسية إلا ويسارع إلى قراءته وكم ساءلت نفسي: «كيف يوفق صاحبنا بين هذا وبين أعبائه المتعددة، في درسه، وفي عيادته الخاصة، وفي سهره على مرضاه في منازلهم أو في المستشفيات»؟

ولم تقف قراءة كامل حسين عند الحديث والمعاصر ، بل أبى إلا أن يجمع بين الماضى والحاضر . ودون أن أعرض لإلمامه الواسع بالثقافات العالمية الكبرى ، أحب أن أشير إلى تمكنه من الثقافة العربية . عرف أصولها ، وأحاط بشتى جوانبها ، درسها فى عمق وسعة ، وكون فيها رأيه الخاص ، ولا أظن أن من بين أقرانه من عنى بقراءة «المغنى» و «التصريح» فى النحو ، أو من فتش كثيراً فى «القاموس» و «اللسان» من كتب اللغة .

أما الأدب فله فيه درس وبحث ، ونقد وتعليق ، وحكم ورأى ، وقد وقف طويلا عند المتنبى وأبى العلاء ، وكشف فى مجمع الخالدين عن حسه اللغوى وذوقه الأدبى .

والواقع أن كامل حسين يؤمن إيمانا جازما بأن العربية لغة حية ، كفيلة بأن تؤدى رسالة العلم والحضارة اليوم كما أدتها بالأمس . وحياة كل لغة بحياة أهلها ، فهم الذين يستطيعون أن يغذوها وينموها ، أن يلائموا بينها وبين حاجات العصر ومقتضياته . هى أداة أساسية من أدوات التفاهم والتبادل ، يملكها أصحابها ومن العبث أن تملكهم أو أن تتحكم فيهم ، وهى ملكية عامة شائعة بين الجميع ولايقبل اليوم بحال أن تقصر على الخاصة أو طبقة بعينها : وانظروا — أمنيته الحارة التى استقبل بها عام ١٩٤٢ فى «دعاء الكروان» ، إذ يقول : «آمل أن أرى يوما هذه اللغة الشعرية تنحدر دون ابتذال ودون أن تفقد من رونقها شيئا ، إلى أن تصبح أداة فعالة لمجرد رواية حادثة وشرح موقف معين » .

يلمس أديبنا الصراع بين العربية والعامية ، ويراه دورا من أدوار التطور فى حياة اللغة وعلينا أن نواجهه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بتيسير العربية على الناس كتابة ، وقراءة وتعليما : وبهذا تحيا وتنشر ، ويقبل عليها النشء ، وإلا عز عليه أمرها ، واستبدل بها وسائل تعبير أخرى : ويسهم كامل حسين فى هذا التيسير إسهاما جادا ، فيعرض للإملاء ورسم الحروف مقترحا طريقة سهلة لكتابة الهمزة ، وأخرى لرسم الكلمات الأجنبية :

ولفت نظره ماقى بعض قواعد النحو من غموض أو تعقيد ، واستوقفه بوجه خاص جنس العدد ، ومايستلزمه من تذكير أو تأنيث للفظ العدد نفسه . ورأى أن ييسر ذلك بإبقاء اسم العدد على حاله دائما ، مع الفصل بينه وبين المعدود بحرف «من» فيقال دون تفرقة خمسة من الرجال وخمسة من النساء . ويذهب بوجه عام إلى أن فى النحو توسعا وفلسفة ، إن لاءمت الخاصة فإنها تلائم العامة ، ولابد أن نيسر تعليمه على الناشئين :

وهذا أمر فكرت فيه وزارة المعارف قديماً (وزارة التربية والتعليم اليوم)فكرت فيه على يد مصلح آخر هو المرحوم بهى الدين بركات ، واقترحت نحواً مدرسياً ميسراً ، وتركت للمتخصصين أن يدرسوا فلسفة النحو ما وسعهم ، وعرض هذا الاقتراح على مجمع اللغة العربية ، وأقره

فى تعديل يسير . ولم يفت أديبنا أن يدلى بدلوه فى التيسير ، واقترح ما سماه « النحو المعقول » وبسط قواعده بالقدر الذى ارتضاه :

وكتب اللغة فى رأيه تحتاج إلى تعديل وتنقيح ، فتكتب بروح العصر وفى ضوء التقدم العلمى الحديث ، وتستبعد منها المماحكات اللفظية ، والتعليلات السطحية ، ونحن باختصار فى حاجة ماسة إلى معجم حديث مصفى ، حديث فى اختيار ألفاظه ، حديث فى تحديد معانيه لايذكر فيه اختلاف اللهجات ، ولااستعمال الأضداد للفظ الواحد ، ولايقبل فيه إلا صيغة واحدة للكلمة ، وإلا مصدر واحد للفعل ، وإلا جمع واحد للاسم ، وتشرح فيه الألفاظ شرحاً دقيقاً واضحاً ، يتمشى مع ما انتهى إليه العلم الحديث .

* * *

يقدر كامل حسين العربية قدرها ، ويعتز بها ، ويريد لها أن تستعيد مجدها وأن تصبح لغة العلم والفن ، وأن تؤدى رسالتها على أكمل وجه ، وأن تأخذ مكانتها بين اللغات العالمية الكبرى : ينقد بعض جوانبها ، ولكنه نقد بناء يرمى إلى الإصلاح والتجديد . وليس ثمة لغة لامأخذ عليها : وحسه الأدبى لايقل عن حسه اللغوى ، درس الأدب العربى درساً عميقاً ، وحاول أن يطبق عليه المنهج المقارن ، فيقارن أدباء العربية بعضهم ببعض ، ويقارنهم ببعض الأدباء العالميين . وفى المقارنة تشويق وفتح لأبواب مغلقة .

ولعلة لايسلم بنظرية التحليل النفسى سيكلوجياً ، ولكنه لايرفض أن يطبقها فى دراساته الأدبية ، فهو يرى مثلا أن ما فى شعر المتنبى من غموض وتعقيد أحياناً إنما يرجع إلى ما صادفه من خيبة وفشل ، ذلك لأن هذا الشاعر الكبير الذى شغل الدنيا وملأ الأسماع لم يحقق شيئاً من أهدافه السياسية والإجتماعية ، فشاء أن يتخيل فى شعره مشاكل وصعوبات ويحاول تذليلها ، فينجح هنا بعد أن فشل هناك . ونقائض الفرزدق ، وقوله الفاحش ، وهجاؤه المقذع حتى لنفسه وأهله ربما كان وليد ضعف وقصور فى الشخصية .

وبعكس هذا سما فى رأيه أدب أبى العلاء بسمو شخصيته ، وهو عنده أقوى رجال الأدب العربى شخصية ، وأعمقهم تفكيراً ، وأصدقهم عاطفة ، وأحدهم ذكاء . حقاً إن نثره وشعره لم يخلوا من مآخذ ، ففى سجعه ضعف وتكلف أحياناً وفى شعره تشبيهات غامضة ، وفى معانيه تكرار ، وفى تعبيراته إسراف فى بيان ثروته اللغوية ، ومع ذلك يعد إنتاجه من الأدب الرفيع ، لصدقه وقوة تعبيره ، وأدبه فى الواقع هو كل حياته ، عاش فيه وله وعن طريق اللغة عرف الحياة كلها ، ولاغرابة إذن أن تطغى هذه اللغة على نثره وشعره .

* * *

وكامل حسين أديب موضوعى ، يعنى بالحقائق والمعانى ، يجمعها ويتخير أوثقها ، يهذبها وينسقها بحيث تبدو جلية واضحة . وقد مكنه اطلاعه الواسع من أن يعرض منها ألوانا شتى فى الأدب والتاريخ ، فى العلم والفلسفة . وهو ممن يؤمنون بوحدة المعرفة وارتباط جوانبها ، وكثيراً ما تقود الدراسات الطبيعية إلى ضرب من الميتافيزيقا .

ويترجم لبعض الشخصيات المعاصرة ، فيقف عند أبرز المعالم وأوضح الصفات ، فلطفى السيد فى رأيه أرسطى صادق فى أرسطيته ، ولاغرابة فوجوه الشبه بين الرجلين كثيرة : « كلاهما معلم ، وكلاهما شديد العناية بالكليات عناية فائقة ، وكلاهما مرهف الحس من ناحية المنطق البحت ، يدرك الخطأ فى التفكير بطبيعته الصافية . والدكتور على إبراهيم بناء « شيد كثيراً ، وكأنما عاهد نفسه على ألا يترك شيئاً مما تفخر به البلاد الحديثة إلا أنشأ له شبيهاً فى مصر وكان يرى أن ينشئ أولا وأن يترك للتطور الطبيعى أن يتمم ما أنشأ ، وقد عيب عليه ذلك ولكنه لم يكن يؤمن بالطفرة وكان يرى أن الأمور يجب أن تبدأ صغيرة ، وأن علينا أن نبدأ ، وعلى الزمن أن يستكمل النقص »

وكامل حسين ناثر ، ولم أر له إلا قصيدة واحدة تحت عنوان : « لقمان المريض » وهى من شعر الشباب ، وأرجح أنها لم ترقه ، وترك الشعر جانباً ، ونثره نثر رقة وحضارة ، سهل واضح ، فلا يرتضى اللفظ الغامض ولا التعبير المعقد . أسلوب مطرد لاعلو فيه ولاانخفاض ، حلو عذب يستمد عذوبته من رقة صاحبه ودماثه خلقه ، يقرب الأفكار البعيدة ، وييسر البرهنة الدقيقة بمقت الصناعة اللفظية والجمل الطنانة ، ويكره السجع والتكرار ، كان معجباً بالفكر المستقيم ، ويعده أكبر نعمة وأكبر لذة فى الحياة . والفكر المستقيم يؤدى عادة إلى تعبير مستقيم .

رحم الله كامل حسين رحمة واسعة ، وجزاه خير الجزاء .

٢٢ ـ ابراهيم أنيس المجمعى (٢ نوفمبر ١٩٧٧)

نلتقى اليوم لنقضى لحظات مع ذكرى عزيزة علينا جميعا ، ولقد كان أنيس رحمه الله أنيسا فى لقائه ، أنيسا فى مجلسه ، أنيسا فى حديثه ، يلقانا ببسمته الخفيفة المعبرة ، ثم يجلس لينصت ويسمع أولا ، ولا يتحدث إلا إن دعا داعى الحديث ، ودواعيه لديه دائما ذات مغزى ودلالة لم يبتل قط بشهوة الكلام ، وإذا ماتكلم فإنما يتحدث عن بينة . يحرص على الأصالة ماوسعه ، ويمقت التكرار والإعادة ، ويصدر عن ذوق سليم وحس صادق .

عشنا معه فى هذه الدار ست عشرة سنة أو يزيد ، وصلته بها أقدم من ذلك بكثير ، فقد اختير خبيرا بلجنتى اللهجات والأصول عام ٤٨ ، وغذى المجمع ببحوث لغوية خصبة قبل أن يصبح عضوا فيه ، ثم استمر يغذيه بغذاء ممتع إلى آخر لحظة من حياته ، وأشهد أنه كان مؤمنا الإيمان كله برسالة المجتمع ، وحريصا الحرص كله على أدائها . كان يؤمن بالتطور فى غير ما طفرة ، وبالتجديد والإصلاح فى غير ما غموض ولا تعقيد .

وقد أعطى المجمع ماوسعه ، بحث فيه ودرس ما أمكنه ،أعطى فى لجاننا المختلفة من لهجات وأصول ومن لجان علمية وألفاظ وأساليب ، أوفى لجان المعجمات اللغوية المتعددة ، من الكبير إلى الوسيط ، ثم إلى الوجيز ، وأعطى بسخاء فى مجلة المجمع التى اضطلع بالاشراف عليها منذ عام ٦٧ ، واستطاع أن يخرج منها فى حياته خمسة عشر جزءا ، وتحت الطبع جزآن آخران يحملان اسمه . فكساها بكساء جديد ، وأمدها دون انقطاع بأفكار رائدة وتوجيهات سديدة ، وقد التقيت معه أخيرا على مائدة « المعجم الوجيز » ، وما كان أعزها عليه وأحبها إلى نفسه . وإنا لنرجو أن يخرج هذا المعجم قريبا إلى النور وفاء لذكراه ، وتخليدا لجهوده وجهود من أسهموا معه .

أما عطاؤه فى مجلس المجمع ومؤتمره فمجال القول فيه ذو سعة ، ولايقل عن ذلك عطاؤه الجم الفسيح فى عالم التأليف والبحث ، فى عالم الأدب واللغة ، إن فى مصر أو خارجها .

رحم الله فقيدنا رحمة راسعة ، وجزاه خير الجزاء عما قدم للغته وأمته .

٢٣ ـ انا وعثمان امين (أكتوبر ١٩٧٨)

يفقد المرء نفسه شيئا فشيئا حين يفقد الإخوان الأعزاء والزملاء الأوفياء ، ولقد كان عثمان أمين منى فى مقدمه هؤلاء . عرفته شابا ، وصاحبته كهلا وشيخا — عرفته فى باريس بين رعيل من مبعوثى كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وفى باريس مجال فسيح للجد واللهو . وأشهد أن فقيدنا رحمه الله كان جادا دائما . أتيحت له موارد البحث والدرس فنهل منها ماوسعه ، قرأ فى الأدب والفن ، كما قرأ فى العلم والفلسفة ، وتابع كبار الأساتذة ، وتتلمذ لشيوخهم ، وجوّد لغته الفرنسية إلى جانب لغته الإنجليزية ، وضم إليها حظا غير قليل من اليونانية واللاتينية . وتوفر له فى مصر قبل سفره زاد كبير من العربية أدبا وعلما وفلسفة ، ولم يصرفه تعمقه فى دراسة الفكر الغربى قديمه ومتوسطه وحديثه ومعاصره عن أن يتابع النظر فى الفكر الإسلامى : ويكفى أن أشير إلى أنه استطاع أثناء بعثته أن يحقق كتابا من أهم كتب المعلم الثانى ، وهو كتاب « إحصاء العلوم » لأبى نصر الفارابى ، وجاءت طبعته الأولى وليدة هذه الجهود . وفى حرصه على التجويد ألحق بها الطبعة الثانية والثالثة .

وزاملته فى مصر منذ عودته من أوربا ، فالتقينا على مائدة التدريس فى كليه الآداب بجامعة القاهرة ، واشتركنا فى لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بمجمعنا هذا ، اشترك معنا خبيرا ثم عضواً وزميلا والمعجم الفلسفى الذى يخرجه المجمع الآن مدين له بقسط كبير من تمحيصه وتحقيقه : واشتركنا أيضا فى لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بالمجلس الأعلى للآداب والفنون وجمعت بيننا ندوات ومؤتمرات متلاحقة . ولا أذكر أننا اختلفنا قط فى الحكم والتقدير أو تباعدنا فى التوجيه ورسم السياسة . وقد رميت يوما بممالأته والتعصب له ويعلم الله أنى لم أرشحه لأمر ، ولم أختره لموقف إلا وهو به جد جدير .

واليوم وقد رحل عنا وخلف ما خلف من فراغ فإن الواقع يقتضينا أن نسجل أنه يعد بحق من بناة الفكر الفلسفى المصرى المعاصر . كون رعيلا مرموقا من الباحثين والدارسين وزود المكتبة العربية بزاد وفير سيبقى على الدهر . ولم يفته أن يكتب ويؤلف باللغتين الفرنسية والإنجليزية تغمده الله برحمته ، وجزاه خير الجزاء عما قدم للغته وثقافته .

٢٤ — على الخفيف (نوفمبر ١٩٧٨)

أودع اليوم على الخفيف الأستاذ ، فقد تتلمذت له منذ نصف قرن أو يزيد . تتلمذت له فى معهد لم يقدر مع الأسف حق قدره ، ولم يترك سائراً فى طريقه بل تحزب ضده المتحزبون ، وتألب الخصوم والمعارضون ، وقضوا عليه ولما يمض على نشأته عشرون عاماً — وأعنى به مدرسة القضاء الشرعى التى أريد بها أن تجمع بين القديم والحديث ، وأن تلائم بين الماضى والحاضر تجمع فى تحر تام وتقدير صحيح ، وتلائم فى اختيار سليم وتوفيق حكيم — فلا تأخذ بالقديم لمجرد أنه قديم ، وفيه ولاشك الزائف والباطل والخرافة والأسطورة — ولاتسير وراء الجديد لبريقه ولمعانه ، وفيه قطعا ما لاوزن له ولاقيمة — وقد سارت مدرسة القضاء الشرعى فى هذا الطريق سيراً حثيثاً ، وخرجت جيلا من العلماء والمفكرين الذين كنا نود أن يغذى بهم العالم العربى والإسلامى دون انقطاع .

فى هذه المدرسة تتلمذت للمرحوم الخفيف فى درس لاأنساه تتلمذت له فى علم الفرائض ، ونعمت فى درسه بالفقيه المتمكن والرياضى الدقيق . وقدر لى أن أشترك بعد زمن فى مناقشة مشروع قانون المواريث بمجلس الشيوخ ، وكان هذا الدرس خير عون لى . فى هذه المدرسة تتلمذت للمرحوم وصادقته ، وهكذا كان شأن مدرسة القضاء فقد كان يراد بها أن تجمع بين الأساتذة والطلاب والأصدقاء ، وأى صداقة أقوى وأمتن من تلك التى تتوثق بين رجال العلم والمعرفة طوال تسع سنين .

ورحم الله عاطف بركات الأب الأول لهذه المدرسة ، وقد خطط لها وأحكم التخطيط ، ومن تخطيطه أن تنشأ لها مدينة خاصة فى ضاحية من ضواحى القاهرة لايقيم فيها إلا طلابها وأساتذتها ، توفر فيها وسائل البحث والدرس ومتطلبات العيش والحياة .

وأودع أيضا على الخفيف الزميل ، فقد نعمنا بزمالته فى هذه الدار زمناً ، ويوم أن دخلها عددناه غنما كبيراً وسنداً عظيما . حرص ما وسعه على أن يشترك فى بعض لجاننا ، وأن يتابع جلسات مجلسنا ، ولم يتخلف قط إلا لعذر قاهر — أعطى لجاننا فى سخاء ، وله علمه الفياض وذوقه السليم ، وحكمه الدقيق ، وأثار مجلسنا بآرائه الصائبة وتوجيهاته السديدة . لم يعرف الإسراف قط ، لافى القول ولافى العمل . وقد عنى بالمصطلح الفقهى ، وعقد له لجنة فرعية خاصة ، وأقر فيه ما أقر ، ووفاء لذكراه آمل أن نخرج ما أقره إلى النور ، لاسيما وهو تراث يخشى عليه الضياع .

وأودع أخيراً على الخفيف الفقيه والمشرع ، تمكن من الفقه الإسلامى تمكناً لا يجاريه فيه كثير من معاصريه . حذقه فى بصر وبصيرة ، ومارسه علما وعملا ، وضم إليه قدراً غير قليل من علوم القانون — فتوفرت له أسباب الاجتهاد والفتوى ، وكان يؤمن بأن التشريع إنما وجد ليسد حاجة ، ويعين

على تنظيم المجتمع وتدبير شئونه — وليس فى تعاليم الإسلام ما يعارض النهوض الصحيح والتقدم السليم ومن الخزى أن نعيش عالة على من سبقونا ، أن نحرم أنفسنا من حق التفكير والتعديل والتصحيح — وأذكر أنى تحدثت إليه فى شأن الحركة الذائعة التى ترمى إلى إحلال الفقه محل القوانين الوضعية ، وكان يرى أنها حركة قليلة الجدوى وصعبة التنفيذ وفى رأيه أنه إن كان ولابد فلننظر فى القوانين الوضعية الحالية وبخاصة القوانين المدنية ، فإن كان فيها ما يعارض مبادئ الإسلام الثابتة رفضناه أو عدلناه ، أما أن نهدم فى غير بناء جهد ضائع لا طائل تحته — ومن أشد ما آسف له أن مجمع البحوث الإسلامية ، وفيه المرحوم على الخفيف وأمثاله — كان فى وسعه أن يواجه مشاكل الساعة ، وأن يحلها حلا إسلامياً عصرياً ، فيخدم الإسلام والمسلمين ، ولكنه لم يواجه ذلك مواجهة صادقة .

رحم الله الأستاذ على الخفيف وشمله برضوانه .

الفهـرس

صفحة

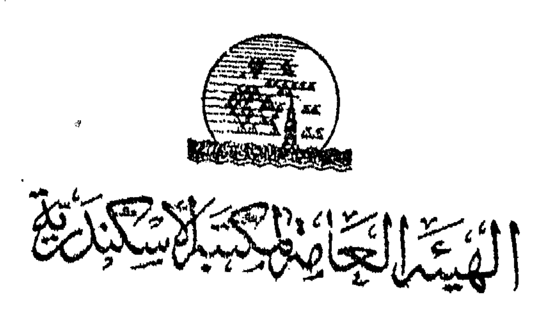
صفحة

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رئيس مجلس الادارة
مهندس / رجاء الهادى محمد عناره

رقم الايداع بدار الكتب ۱۹۸۱/۲۹۵۹

الهيئة العامة لشئون المطابع الاميرية
۳۰۱۰-۱۹۸۰-۱۲۳٤۸


الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

